حقائق التصوف المعتدل

طريق تزكية وإحسان

تأليف المربي
الدكتور محمد خير فاطمة النعيمي

دار رواد المجد
دار العصماء

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

1440 هـ 2019 م

يمنع طبع هذا الكتاب أو أي جزء منه بكل طرق
الطبع والتصوير والنقل والترجمة والتسجيل الحاسوبي.. وغيرها
إلا بإذن خطي من دار العصماء

فـرع أول: سورية - دمشق - برامكة - جانب دار الفكر
قبل دار التوليد - دخلة الحلبوني
هاتف: 2224279 -11-00963 - تلفاكس: 2257554 -11-00963
فرع ثاني: دمشق - ركن الدين - السوق التجاري
جانب مجمع الشيخ أحمد كفتارو
هاتف: 2770433 -11-00963 تلفاكس: 2752882 -11-00963
ص.ب: 36267 - موبايل: 944/349434 -00963
E-mail:daralasma@gmail.com

الإهداء

- إلى كل مسلم منصفٍ -وعلى الأخص طالب العلم- أراد معرفة حقائق التصوف المعتدل السُّنِّيّ، ومقاصده وعلومه المستمدة من القرآن والسنة، والبعيد عن كل بدعة ضلالة.

- أهدي كتابي هذا للوصول إلى الحقيقة المشرقة.

راجياً من الله ﷻ القبول.

المؤلف

د. محمد خير فاطمة

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة على سيد المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد:

فإنّ المسلم يحار في أمره عندما يجد الصراع قوياً بين أصحاب التصوف والمعادين لهم من علماء الإسلام، فهؤلاء يجعلون التصوف جزءاً هاماً من الإسلام، وأولئك يجعلونه بدعة وخروجاً عن الدين، فأيهم يصدق، وبأيهم يقتدى؟

إنّ المسلم الذي يتتبَّعُ هذا الأمر ويقوم بدراسته دراسة منهجية دقيقة علمية يجد أن التصوف إنما هو اختصاص في ركن هام من أركان التربية الإسلامية ألا وهو فقه الباطن كما سمّاه علماء الشريعة، أو التربية الروحية كما سمّاه علماء التربية، أو التزكية كما سمّاه القرآن الكريم، أو الإحسان كما سمّاه النبي العدنان ﷺ.

ولو أن أهل التصوف سموا اختصاصهم في تربية النفوس وتزكيتها لتبلغ مقامَ الإحسان تسميةَ القرآن الكريم أو تسمية السنة الشريفة، لكفونا مشاق تلك الحيرة والدراسة ولكفونا هذا الصراع الذي لا طائل منه ولا فائدة.

ففي عهد الصحابة ﷺ لم يكن هناك حاجة لمثل هذه التسميات الاختصاصية فقد كان الصحابة يتلقون الإسلام متكاملاً من النبي ﷺ عن طريق القرآن الكريم، وسنته الشريفة، إلى أن جاء عهد التابعين ومَنْ بعدهم وأخذ العلماء بالتخصص في فروع الإسلام من فقه وتفسير وحديث ولغة وغير ذلك، فكان أن قام أناس بالتخصص، في تزكية النفس وتطهير القلب والتمسك بأخلاق الإسلام وسلوكه وآدابه.

ومعلوم أنَّ العلماء قد اصطلحوا على تسمية كلّ علمٍ من العلوم الشرعية وغيرها باسمٍ خاصّ به، فكان أن اختار أصحاب هذا الاختصاص في التربية والتزكية، اسم التصوف.

ولعل انتساب بعض الجاهلين والمغرضين أو المنتفعين أو الدجالين أو غيرهم من أصحاب الأهواء الخاصة إلى أهل التصوف وعلمائهم وظهور إساءاتهم الكثيرة، جعل بعض العلماء والمسلمين يعادون أهل التصوف نتيجة لذلك. وهذا خطأ فاحش - فليس من الحق والعدل إصدار حكم على أي جماعة بالنظر إلى تصرفات بعض أفرادها الذين لا يعبرون عنها التعبير الصحيح، وإنما إصدار الحكم يجب أن يكون على الآراء والأفكار والاعتقاد والسلوك والأخلاق التي تطرحها تلك الجماعة، وتعمل وفق مقتضاها.

والمتمعن في التصوف وما يدعو إليه في حقيقته وجوهره، يجد أنه من الضروري التمسك به وتبني طرائقه ليتمَّ للمسلم إسلامه، فالتصوف يُعْنى بجانب هام من جوانب الإسلام وهو الجانب العاطفي الروحي النفسي، يُعْنى بجانب الفقه الباطني وتزكية النفس والروح والقلب، جانب الأخلاق والسلوك وهو جانب هام وأساسي في الإسلام لا يمكن الاستغناء عنه أبداً ليكمُل إسلام المسلم وإيمانه، وليصل إلى أحد أركان الدين وهو الإحسان.

من أجل هذا أردت بكتابي هذا أن أقدم:

➢ **أولاً**: مدخلاً إلى علم التصوف أبين فيه بعض المواضيع الهامة التي تتعلق بالتصوف ليتعرف عليها القارئ.

➢ **ثانياً**: ذكرت بعض المواضيع الهامة المتعلقة في سلوك هذا العلم ليطلع عليها القارئ ويفهم المقصود منها، ويسعى إلى تطبيقها وسلوكها، ليصل إلى الغاية المرجوة من التصوف المتمثلة في تزكية النفس وتهذيبها والوصول بها إلى مقام الإحسان.

أما العلم الحقيقي بالتصوف والتطبيق العملي له، وسلوك مسالكه، ومعرفة طرقه، والوصول إلى ثماره وكماله، فقد كتبت فيه كتاباً آخر سميته تسمية القرآن تفادياً للقيل والقال وهو:

[قد أفلح من تزكى، أو منهج الإسلام في تزكية النفس].

أرجو من اللّه القبول، ورضا النبي الرسول ﷺ وسرور أهل التصوف والنقول.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

المؤلف

د. محمد خير فاطمة

١- تعريف علم التصوف.

٢- تعريف التصوف.

٣- نشأة علم التصوف.

٤- لمحة عن تاريخ علم التصوف.

٥- التصوف بين الحاجة إليه ونكرانه.

أولاً: أهمية التصوف.

ثانياً: ما السبب في أن التصوف لم يظهر إلا بعد عصر الصحابة والتابعين.

ثالثاً: التصوف المفترى عليه.

رابعاً: حاجتنا إلى التصوف.

خامساً: منهج التصوف.

٦- موقف التشريع الحكيم من التصوف ورأي العلماء فيه.

١- تعريف علم التصوف

- علم التصوف من أهم العلوم الإسلامية المتعددة وقد عرفه كثير من علمـــاء أهل التصوف ومما ورد في تعريفاتهم ما يلي:

١) قال ابن عجيبة رحمه اللّه تعالى: (وهو مفسر صوفي من أهل المغرب).

(هو علم يعرف به كيفية السلوك إلى حضرة ملك الملوك، وتصفية البواطن مـــن الرذائل، وتحليتها بأنواع الفضائل، وأوله علم، وأوسطه عمل، وآخره موهبة).

٢) وقال القاضي شيخ الإسلام زكريا الأنصاري رحمه اللّه تعالى: (وهو قاض مفسر من حفاظ الحديث): (التصوف علم تُعرف به أحوال تزكية النفوس، وتـــصفية الأخلاق، وتعمير الظاهر والباطن، لنيل السعادة الأبدية).

٣) وقال الشيخ أحمد زروق الفاسي رحمه الله: (وهو محدث صوفي فقيه): (التصوف علم قصد لإصلاح القلوب، وإفرادها للّه تعالى عما سواه).

٤) وقال العلامة حاجي خليفة (في كتابه كشف الظنون): هو علم يعرف به كيفية ترقي أهل الكمال من النوع الإنساني في مدارج سعاداتهم.

ثم قال:

علم التصوف علمٌ ليس يعرفـــه ... إلا أخو فطنة بـــالحق معـــروفُ

وليس يعرفه من ليس يـــشهده ... وكيف يشهد ضوءَ الشمس مكفوفُ

٥) قال ابن ذكوان رحمه الله (وهو قاضي القضاة بالأندلس) معرفاً علم التـــصوف ببيت من الشعر فيقول:

علـــمٌ بـــه تـــصفية البـــواطن ... من كدرات النفس في المـــواطن

- قال العلامة المنحوري رحمه الله (وهو العالم المحدث الثقة) في شـــرح هـــذا البيت: (التصوف علم يعرف به كيفية تصفية الباطن من كدرات النفس أي عيوبها

وصفاتها المذمومة كالغل والحقد والحسد والغش وحب الثناء والكبر والرياء والغضب والطمع والبخل وتعظيم الأغنياء والاستهانة بالفقراء، لأن علم التصوف يطلع على العيب والعلاج وكيفيته، فبعلم التصوف يُتوصل إلى قطع عقبات النفس والتنزُّهِ عن أخلاقها المذمومة وصفاتها الخبيثة، حتى يتوصل إلى تخلية القلب عن غير اللّه تعالى، وتحليته بذكر اللّه تعالى).

٦) وقال أبو الحسن بن أبي ذر رحمه الله (وهو العالم الصدوق) في كتابه (منهاج الدين) أنشدونا للشبلي رحمه الله (وهو دمشقي من فقهاء الحنفية وهو من كبار القضاة):

علم التصوف علم لا نفاد لـه ... علم سَنِيٌّ سماوي رَبُوبي

فيه فوائد للأرباب يعرفها ... أهل الجَزالَة والصنع الخصوصي

- من هذه الأقوال نجد أن التصوف علم قائم بذاته وهو من أشرف العلوم، وهو علم يختص بعلم الباطن وفقهه، وإصلاح القلب وتزكيته، وتطهير النفس وتهذيبها، ويسعى إلى الوصول إلى مقام الإحسان، ويستحسن هنا أن نستشهد بقول الأستاذ عبد الباري الندوي (وهو أستاذ الفلسفة الحديثة في الجامعة العثمانية بحيدر آباد سابقاً):

(فإن أبى شخص أن يعترف بالتصوف كعلم بعينه، وفن بذاته، فَلِمَ لا ينفر ويشمئز من المصطلحات الدينية الأخرى من تفسير ومفسر، وتجويد ومجود، وكلام ومتكلم، وغيرها)

(بين التصوف والحياة، عبد الباري الندوي).

٢- تعريف التصوف

- عندما نتحدث عن تعريف علم التصوف لابد من أن نلم بتعريف التصوف بالذات.

وهناك الكثير من العلماء الذين تحدثوا في تعريف التصوف نذكر منهم ما يلي:

- يقول الشيخ السهروردي رحمه الله (وهو العلامة والفيلسوف المنطقي البارع في أصول الفقه): (أقوال المشايخ في ماهية التصوف تزيد على ألف قول).

- وقال الشيخ أحمد زروق رحمه الله (المالكي الصوفي الفقيه المحدث) في كتابه قواعد التصوف: (وقد حُدّ التصوف ورسم وفسر بوجوه تبلغ نحو الألفين مرجع كلها صدق التوجه إلى اللّه وإنما هي وجوه فيه).

- إذاً للتصوف تعريفات كثيرة أذكر منها ما يلي:

١ - قال الإمام الغزالي رحمه اللّه تعالى:

(التصوف: هو تجريد القلب للّه تعالى واحتقار ما سواه، أي تخليص القلب للّه تعالى، واعتقاد ما سواه اعتقاداً أنه لا يضر ولا ينفع، فلا يعول إلا على اللّه، فالمراد باحتقار ما سواه اعتقاد أنه لا يضر ولا ينفع، وليس المراد الازدراء والتنقيص) (كتاب حكايا الصوفية، أبو اليسر عابدين).

٢ - وقال الشبلي رحمه اللّه تعالى:

(التصوف: ضبط حواسك، ومراعاة أنفاسك) (معيد النعم ومبيد النقم، عبد الوهاب سبكي).

٣ - وقال أبو الحسن الشاذلي رحمه اللّه تعالى:

(التصوف: تدريب النفس على العبودية، وردها لأحكام الربوبية) (نور التحقيق، حامد صفر).

٤ - وقال الشيخ محيي الدين بن عربي رحمه اللّه تعالى:

(التصوف هو الوقف مع الآداب الشرعية ظاهراً وباطناً).

وقال أيضاً: (التصوف خلق فمن زاد عليك في الخلق زاد عليك في التصوف)

(الموسوعة اليوسفية، يوسف خطار محمد).

٥ - وقال الإمام الجنيد رحمه اللّه تعالى:

(التصوف تصفية القلب عن موافقة البرية، ومفارقة الأخلاق الطبيعية، وإخماد الصفات البشرية، ومجانبة الدواعي النفسية، ومنازلة الصفات الروحانية، والتعلق بالعلوم الحقيقية، واستعمال ما هو أولى على الأبدية، والنصح لجميع الأمة، والوفاء للّه على الحقيقة، واتباع الرسول ﷺ في الشريعة).

(التعرف لمذهب أهل التصوف، أبو بكر محمد الكلاباذي)

- وأقول: وبعد أن تربيت على يدِ أشياخ التصوف الحقيقيين، وسلكت مسلكهم في تربية نفسي وأنُفسِ من خدمتهم من أجيال الشباب الكثيرين منذ أكثر من خمسين عاماً على هذه الطريق.

- أقول: إن التصوف هو طريق تحقيق التزكية للنفس التي ذكرت في القرآن الكريم في عدة آيات، وسبيل تحقيق مقام الإحسان الذي ذكره النبي ﷺ، هذا الطريق الذي يجب أن يسلكه كل مسلم ليكون مطبِقاً الشريعة على أكمل وجه متقيداً بالقرآن والسنة، فبالتصوف يعرف المسلم ربه حق المعرفة، فيسعى إلى تقوية علاقته به التي تجعل منه نموذجاً فذاً ومثالاً واقعياً لحقائق الإسلام والإيمان والإحسان.

٣- نشأة علم التصوف

- نزل الوحي على رسول الله ﷺ بالإسلام وأخذ الرسول ﷺ يدعو إليه وكان نزول القرآن الكريم على رسول الله ﷺ نزولاً منجماً متتابعاً مدة ثلاث وعشرين سنة، وكان الصحابة الكرام كلما نزلت آيات من القرآن تلقوها من رسول الله ﷺ وتعلموها وحفظوها وعملوا بما فيها، ثم قاموا بالدعوة إليها.

فالصحابة ﷺ أخذوا تعاليم الإسلام عن النبي ﷺ، وأخذها عنهم من صَحِبَهم من التابعين، ثم أخذها عن التابعين من صحبهم ممن سُمُّوا تابعي التابعين، وهم الذين نَحَوْا بتلك التعاليم منحى تخصصياً، فمنهم من تخصص في القرآن الكريم وما يتعلق به من علوم كالتفسير وغيره، ومنهم من تخصص بالحديث النبوي وما يتعلق به من علوم فرعية كثيرة كعلم الرواية والدراية، ومنهم من تخصص بعلوم اللغة كالنحو والصرف والبلاغة والأدب وغير ذلك، ومنهم من تخصص في علم الفقه وما يتعلق به من الأحكام الشريعة، وقد دونت هذه العلوم المنقولة واستحدثت لها أسماء ومصطلحات متعددة لم تكن في زمن رسول الله ﷺ فمن اشتغل بالتفسير سُمي (مفسراً) ومن اشتغل بالحديث الشريف سُمي (محدثاً) ومن اشتغل في اللغة سُمي (لغوياً) ومن اشتغل بالفقه سُمي (فقيهاً) أما من اشتغل بالتربية والأخلاق والسلوك في طريق الله سُمي (صوفياً).

- إذن هذه الأسماء لم تكن على عهد رسول الله ﷺ وإنما هي مصطلحات وأسماء مستحدثة للعلوم الشرعية التي جاء بها سيدنا محمد ﷺ، فمن تخصص في علم من هذه العلوم أو غيرها فنسب إليه وسُمي باسمه المستحدث لا يتعارض عن تسميته مسلماً، إذْ ليس كل اسم أو وصف لم يأت في القرآن الكريم أو السنة الشريفة يحرم التسمي به بل هو جائز شرعاً فقد سمى الله سبحانه وتعالى المسلمين بأسماء عديدة السابقين الصالحين - المخبتين... وغير ذلك بأعمال اتصفوا بها واستداموا عليها.

- كذلك سُمي بعض الصحابة بأسماء نسبة إلى قبائلهم أو أوطانهم مثل سيدنا أبي ذر (الغفاري) وسيدنا بلال (الحبشي) وسيدنا سلمان (الفارسي) وسيدنا صهيب (الرومي).

- نخلص مما سبق إلى أن إطلاق التصوف والصوفي على من سلك منهج تزكية النفس في الإسلام لا يناقض ويعارض تسميته مسلماً، ولا يدل على خروج عن الإسلام وتعاليمه، ولا يثير شبهة ما، بل يدل على من أراد أن يتمسك بالسلوك الإسلامي الصحيح، والدين القويم، والتقرب من رب العالمين، كما جاء في القرآن الكريم وهدي النبي ﷺ.

- أما من أراد أن يتعرف على أصل هذا الاشتقاق فإنه سيجد أنه كثرت الأقوال فيه، ومما قيل فيه:

➢ **أولاً**: أنه من الصوف، وتصوف إذا لبس الصوف، كما يقال تقمّص إذا لبس القميص، فهذا وجه، ولكن القوم لم يختصوا بلبس الصوف، وإن لبسه بعضهم.

- هذا وأثر عن سيدنا الحسن البصري ﷺ أنه قال:

(لقد أدركت سبعين بدرياً كان لُبْسُهم الصوف) (حلية الأولياء، أبو نعيم).

➢ **ثانياً**: أنه منسوب إلى أهل الصفة المشهورين زمن رسول الله ﷺ بالتفرغ للعلم والعبادة وقد كانت حياتهم المثل الأعلى الذي استهدفه رجال التصوف في العصور الإسلامية المتتابعة.

➢ **ثالثاً**: إنه مشتق من الصف فكأنهم في الصف الأول بقلوبهم من حيث حضورهم مع الله تعالى، وتسابقهم في سائر الطاعات وهو عند بعض العلماء غلط أيضاً، فإنه لو كان كذلك لقيل: صَفّيّ وعند القشيري (شيخ خراسان وكان زاهداً وعالماً بالدين): المعنى صحيح ولكن اللغة لا تقتضي هذه النسبة إلى الصف.

➢ **رابعاً:** إنه من الصفاء حتى قال أبو الفتح البستي رحمه الله تعالى (شاعر عصره وكاتبه)

تنازع الناس في الصوفي واختلفوا وظنه البعض مشتقاً من الصوف
ولست أمنح هذا الاسم غير فتىً صفا فصوفي حتى سُمي الصوفي

- ويشير الغزالي في كتاب عوارف المعارف إلى هذا المعنى فيقول:

(الصوفي هو الذي يكون دائم التصفية لا يزال يصفي الأوقات عن شوب الأكدار، بتصفية القلب عن شوب النفس، ويعينه على كل هذه التصفية دوام افتقاره إلى مولاه، فبدوامِ الافتقار ينقى من الكدر، وكلما تحركت النفس وظهرت بصفة من صفاتها أدركها ببصيرته النافذة وفر بها إلى ربه، فبدوام تصفيته جمعيته، وبحركة نفسه تفرقته وكدره، فهو قائم بربه على قلبه، وقائم بقلبه على نفسه. قال تعالى: ﴿كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ﴾[المائدة ٨] وهذه القوامية للّه على النفس هو التحقق بالتصوف) (ملحق إحياء علوم الدين، الغزالي)

- ويؤكد هذا المعنى الشيخ محمد أمين الكردي(وهو من كبار علماء الطريقة النقشبندية) فيقول:

(علم التصوف مأخوذ من الصفاء، والصوفي إن صفا قلبه من الكدر، وامتلأ من العبر، استوى عنده الذهب والمدر) (تنوير القلوب، محمد أمين الكردي).

➢ **خامساً:** إنه نسبة إلى الصفوة من خلق اللّه. قال العلماء في ذلك وهو غلط، لأنه لو كان كذلك لقيل صَفَوِيّ.

➢ **سادساً:** من الصوفة، لأن الصوفي مع اللّه تعالى كالصوفة المطروحة لاستسلامه للّه تعالى.

➢ **سابعاً:** مشتق من (صوفة) وذلك أن قوماً كانوا في الجاهلية يقال لهم صوفة انقطعوا إلى اللّه تعالى وقطنوا الكعبة فمن تشبه بهم من الناس سموا بالصوفية.

➢ **ثامناً**: يرى بعض المستشرقين أن الكلمة راجعة إلى أصل يوناني أو بوذي أو غير ذلك وأنها مشتقة من الأصل اليوناني (صوفا) ومعناها الحكمة وهذا رأي فاسد مدسوس لا يوجد له دليل إيجابي قطعاً.

- والذي أراه بعد عرض هذه الآراء أن المتصوفة لقب لأناس اتصفوا بصفات معينة أذكرها لاحقاً، وأن الصوفي اسم جامد أو لقب أطلق على من ينتمي إليهم ليميزه من غيره.

٤- لمحة عن تاريخ علم التصوف

- تحدث العديد من العلماء المهتمين بعلم التصوف قديماً وحديثاً عن تاريخ علم التصوف ومن هؤلاء القشيري في رسالته فقال:

(اعلموا رحمكم اللّه أن المسلمين بعد رسول اللّه ﷺ لم يَتَسَمَّ أفاضلهم في عصرهم بتسمية علم سوى صحبة رسول اللّه ﷺ، إذ لا أفضلية فوقها، فقيل لهم ((الصحابة)) ولما أدرك العصر الثاني سمي من صحب الصحابة ((التابعين)) ورأوا ذلك أشرف تسمية، ثم قيل لمن بعدهم ((أتباع التابعين)). ثم اختلفت وتباينت المراتب، فقيل لخواص الناس ممن لهم شدة عناية بأمر الدين: ((الزهاد والعباد)) ثم ظهرت البدع وحصل التداعي بين الفرق فكل فريق ادَّعَوْا بأن منهم زهاداً، فانفرد خواص أهل السنة الراعون أنفسهم مع اللّه تعالى الحافظون قلوبهم عن طوارق الغفلة باسم ((التصوف)) واشتهر هذا الاسم لهؤلاء الأكابر بعد المائتين من الهجرة).

- ولكن كما سيأتي يبدو أن هذا الاسم كان موجوداً قبل المئتين بقليل ولكنه اشتهر بعدها، ويقول الدكتور حسن إبراهيم حسن في كتابه تاريخ الإسلام:

(ومن المسائل التي شغلت أفكار المسلمين في ذلك العصر ((التصوف)) وذلك أن كثيراً من المسلمين الذين اشتهروا بالورع والتقوى لم يجدوا في علم الكلام ما يقنع نفوسهم المولعة بحب اللّه سبحانه وتعالى، فرأوا أن يتقربوا إليه عن طريق الزهد والتقشف وفناء الذات في حبه تعالى ومن ثم سموا ((بالمتصوفين))).

- وقال المدائني رحمه الله (وهو راوية ومؤرخ وله كثير من التصانيف عن بعض العلماء: كان رجل من العرب في زمن النبي ﷺ مسرفاً على نفسه، لم يكن يتحرج، فلما أن توفي النبي ﷺ لبس الصوف، ورجع عما كان عليه، وأظهر الدين والنسك، فقيل له لو فعلت هذا والنبي ﷺ حي لفرح بك، قال: كان لي أمانان

فمضى واحد وبقي الآخر قال الله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ﴾ [الأنفال: ٣٣] فهذا أمان والثاني: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ [الأنفال: ٣٣].

- هذا وأثر عن سيدنا الحسن البصري ﷺ وكان تابعياً أنه قال:

(لقد أدركت سبعين بدرياً كان لباسهم الصوف) (حلية الأولياء، أبو نعيم).

- كما روى عنه أنه قال: (لقيت صوفياً في الطواف فأعطيته شيئاً فلم يقبله وقال: معي أربعة دوانق فيكفيني ما معي) (اللمع، أبو نصر الطوسي).

- وقيل إنّ أول من تسمى بالصوفي هو أبو هاشم الكوفي الذي ولد في الكوفة وأمضى سواد حياته في الشام وتوفي سنة /١٥٠هـ/ (الفتاوى الحديثة، ابن حجر).

فقد روى عن سفيان الثوري رحمه الله (أمير المؤمنين في الحديث وسيد أهل زمانه في العلوم والتقوى) أنه قال: (لولا أبو هاشم الصوفي ما عرفت دقيق الرياء) (كشف الظنون، حاجي خليفة).

- وقيل إن أول من بنى دويرة التصوف بعض أصحاب عبد الواحد بن زيد وهو من أصحاب الحسن البصري رحمه الله تعالى.

- ولقد ذكر أن الإمام مالك رحمه الله تعالى قال: (من تَفَقَّهَ و لم يَتَصَوَّفَ فقد تَفَسَّقَ، ومن تَصَوَّف و لم يتفقَّهْ فقد تَزَنْدَقَ ومن جمع بينهما فقد تحقَّقَ) (الشفا للقاضي، شرح ملا علي القاري).

ومن المعلوم أن الإمام مالك رحمه الله تعالى توفي سنة ١٧٩هـ في المدينة المنورة وهذا يدل على أن التصوف كان معروفاً بهذا الاسم في هذه الفترة.

- ولكن قيل إنّ أول من حدد نظريات التصوف وشرحها هو ذو النون المصري /٢٤٥هـ/ تلميذ الإمام مالك وهو أحد الزهاد العباد المشهورين.

- وأن الذي شرحها وبوبها ونشرها هو الجنيد البغدادي المتوفى سنة /٣٣٤هـ/ (التعرف لمذهب أهل التصوف، أبو بكر محمد الكلاباذي).

- (وإن من أخلد ما كتب عن التصوف والصوفية كتاب التعرف لمذهب أهل التصوف للإمام العالم العارف تاج الإسلام أبي بكر محمد بن إسحاق البخاري الكلاباذي المتوفى سنة (٣٨٠هـ-٩٩٠م) وهو من أقدم وأدق وأنقى وأصفى ما كتب عن هذا العلم ورجاله كتبه العارف الكلاباذي في العصر الذهبي للتصوف في أوائل القرن الرابع للهجرة القرن الذي بلغ فيه التصوف كماله العلمي والفني واستكمل فيه التصوف علومه ومناهجه وآدابه وسلوكه ومقاماته).

(مقدمة لجنة نشر التعرف لمذهب أهل التصوف).

- ثم بعد ذلك ظهر العديد من علماء التصوف ومشاهيرهم وأصبح لهم طرقاً يسلكونها للوصول إلى غايتهم وانتشر التصوف في جميع أرجاء الأمة الإسلامية وعلى مر العصور والأزمنة، وفي جميع البقاع والأمكنة، حتى وقتنا الحاضر.

٥- ارتباط التصوف بالشريعة

- يظن كثير من المسلمين الذين لم يطلعوا على حقائق التصوف أن أصحاب التصوف هم من أهل البدع الخارجين عن الإسلام أو المرتدين عنه، أو البعيدين عن تعاليمه، أو المدسوسين لهدمه.

- لكن المنصف عندما يدرس حقائقهم وأهدافهم وغاياتهم وطرائقهم ويعيش في مدارسهم ويسلك سلوكهم ويتربى في كنفهم، يجد أنهم على الإسلام الحقيقي، والإيمان الكامل، فهم يتمسكون بتعاليم القرآن الكريم، وهدي النبي العظيم ﷺ، وأنهم لا يخرجون عن الشريعة قيد أنملة، وأن تعاليمهم لا تخرج عن منهج التزكية الذي ذكره القرآن الكريم، والسعي إلى مقام الإحسان الذي ذكره النبي العدنان ﷺ.

- وعندما يتدبَّرُ المسلم القرآن الكريم يجد أن هناك آيات متعددة بينت مهمة النبي ﷺ في نشر الدعوة وأنها أربع وهي:

- **أولاً:** تعليم المسلمين آيات القرآن الكريم تلاوة وعملاً وتطبيقاً.
- **ثانياً:** تزكية النفس وهي التربية الروحية.
- **ثالثاً:** تعليمهم أحكام القرآن الكريم وأهدافه ومقاصده.
- **رابعاً:** تعليمهم الحكمة وهي السلوك العملي للمؤمن في هذه الحياة مع كل المخلوقات.

من هذه الآيات قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ﴾ [الجمعة: ٢].

- ورجال التصوف قاموا بحمل هذه المهمات خير قيام، ولكن كان اهتمامهم بتزكية النفس أكثر، لأنهم وجدوها السبيل الأمثل لتحقيق المهمات الأخرى، وأنها

السبيل الوحيد لإعادة المؤمنين إلى صفاء الإسلام والإيمان، الذي كان على عهد رسول اللّه ﷺ بين صحابته الكرام الذين رباهم النبي ﷺ وزكاهم فكانوا خير أمة أخرجت للناس.

ودفعهم إلى ذلك ما حدث من تغير بعد ذلك في نفوس بعض المسلمين، بسبب الانغماس بالدنيا والشهوات والملذات إثر الفتوحات واختلاطهم بالأمم الأخرى.

- وهذا ما أشار إليه ابن خلدون في مقدمته وهو يتحدث عن علم التصوف قال: (فلما فشا الإقبال على الدنيا في القرن الثاني وما بعده وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا، اختص المقبلون على العبادة باسم الصوفية والمتصوفة).

(مقدمة ابن خلدون، علم التصوف ص٣٢٩).

- ومن الأصول التي اعتمدوها في منهجهم الحديث الصحيح المشهور والذي جرى بين جبريل وهو في هيئة رجل أسود الشعر أبيض الثياب وبين رسول اللّه ﷺ وهو جالس مع أصحابه، هذا الحديث الذي جرى على طريقة الحوار، جبريل يسأل ويصدق وسيدنا محمد ﷺ يجيب سأله عن أركان الدين الإسلام والإيمان والإحسان ولقد اختص كل فريق من العلماء بأحد الأركان فأركان الإسلام اهتم بها أصحاب العقيدة والفقه وأركان الإيمان اهتم بها أصحاب العقيدة والكلام، والإحسان كما عرفه النبي ﷺ: «أن تعبد اللّه كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك». (متفق عليه)

اهتم به الدعاة والمربون والمصلحون وهم أصحاب التصوف، وسعوا إلى تحقيقه ضمن برنامج مستمد من القرآن والسنة من خلال المحبة للّه ورسوله واتباع سنة رسول اللّه في كل الأحوال ومن خلال الذكر والدعوة إلى الصدق والإخلاص والاستقامة وغير ذلك.

- سئل الإمام الحافظ السيد محمد صديق الغماري رحمه اللّه عن أول من أسس التصوف وهل هو بوحي سماوي؟ فأجاب: (أما أول من أسس الطريقة، فلنعلم أن

الطريقة أسسها الوحي السماوي في جملة ما أسس من الدين المحمدي، إذ هي بلا شك مقام الإحسان الذي هو أحد أركان الدين الثلاثة التي جعلها النبي ﷺ بعدما بينها واحداً واحداً ديناً بقوله: «هذا جبريل عليه السلام أتاكم يعلمكم دينكم»).

وهو الإسلام والإيمان والإحسان، فالإسلام طاعة وعبادة، والإيمان نور وعقيدة، والإحسان مقام مراقبة ومشاهدة: «أن تعبد اللّه كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك».

- ثم قال السيد محمد صديق الغماري في رسالته تلك: (فإنه كما في الحديث، الدين عبارة عن الأركان الثلاثة، فمن أخل بهذا المقام (الإحسان)، فدينه ناقص بلا شك لتركه ركناً من أركانه، فغاية ما تدعو إليه الطريقة وتشير إليه هو مقام الإحسان بعد تصحيح الإسلام والإيمان).

(انتصار الطريقة الصوفية، للمحدث محمد صديق الغماري ص٦)

- هذا وإننا إذا درسنا الشريعة من خلال آيات القرآن الكريم، وما أثر عن النبي ﷺ من الأقوال والأفعال والأحوال، وما دوّن في الكتب حول ذلك نجد أنها تنقسم إلى قسمين:

➢ **أولاً**: أفعال وهيئات وأمور محسوسة كقيام وقعود وركوع وسجود وتلاوة وتسبيح وأدعية وأذكار، وأحكام ومناسك وغير ذلك وكل ذلك تكفل به أصحاب الحديث ورواته، وعلماء الفقه والشريعة -جزاهم اللّه عن الأمة خيراً- فحفظوا للأمة دينها وسهلوا لها العمل به.

➢ **ثانياً**: كيفيات باطنية كانت تصاحب هذه الأفعال والهيئات عند الأداء وتلازم الرسول ﷺ قياماً وقعوداً وركوعاً وسجوداً، وداعياً وذاكراً، وآمراً وناهياً، وفي خلوة البيت وساحة الجهاد، وهي الإيمان والإخلاص والاحتساب والصبر والتوكل والزهد وغنى القلب والإيثار والسخاء والأدب والتقوى والورع والحياء

والخشوع والتضرع والابتهال، وإيثار الآخرة على العاجلة، والشوق إلى لقاء اللّه، إلى غير ذلك من كيفيات باطنية وأخلاق إيمانية، وسلوك إسلامي، وآداب قرآنية نبوية - هي من الشريعة بمنزلة الروح من الجسد، والباطن من الظاهر وتتدرج تحت هذه العناوين تفاصيل وجزئيات وآداب وأحكام تجعل منها علماً مستقلاً، وفقهاً منفرداً فإن سمي العلم الذي تكفل بشرح الأول وإيضاحه وتفصيله والدلالة على طرق تحصيله (فقه الظاهر) سُمي هذا العلم الذي يتكفل بشرح هذه الكيفيات ويدل على طرق الوصول إليها (فقه الباطن)، ولئن تكفل أهل الفقه والحديث والعقيدة والسيرة بعلم الظاهر، فإن أهل التصوف تكفلوا بفقه الباطن وسموا هذا الفقه بالتصوف ولو أنهم سموه بعلم التزكية أو بالإحسان أو بفقه الباطن أو بالتربية الروحية لكان بذلك أجدر وأقرب للواقع، وأبعد عن الخلاف والشقاق الذي نراه حول هذه التسمية.

- وفي هذا الموضوع يقول أبو نصر السراج الطوسي رحمه اللّه: (أنكرت طائفة من أهل الظاهر وقالوا: لا نعرف إلا علم الشريعة الظاهرة التي جاء بها الكتاب والسنة، وقالوا: لا معنى لقولكم علم الباطن وعلم التصوف، فنقول، وباللّه التوفيق.

إن علم الشريعة علم واحد، وهو اسم واحد يجمع معنيين: الرواية والدراية؛ فإذا جمعتهما فهو علم الشريعة الداعية إلى الأعمال: الظاهرة والباطنة، ولا يجوز أن يجرَّد القول في العلم: أنه ظاهر أو باطن لأن العلم متى ما كان في القلب فهو باطن فيه، إلى أن يجري ويظهر على اللسان؛ فإذا جرى على اللسان فهو ظاهر، غير أننا نقول: إن العلم: ظاهر، وباطن، وهو علم الشريعة الذي يدل ويدعو إلى الأعمال الظاهرة والباطنة، والأعمال الظاهرة كأعمال الجوارح الظاهرة، وهي العبادات والأحكام، مثل الطهارة والصلاة والزكاة والصوم والحج والجهاد وغير ذلك؛ فهذه العبادات، وأما الأحكام فالحدود والطلاق والعتاق والبيوع والفرائض والقصاص وغيرها، فهذا كله على الجوارح الظاهرة التي هي الأعضاء، وهي الجوارح، وأما الأعمال

الباطنة فكأعمال القلوب وهي المقامات والأحوال، مثل التصديق، والإيمان، واليقين، والصدق، والإخلاص، والمعرفة، والتوكل، والمحبة، والرضا، والذكر، والشكر، والإنابة، والخشية، والتقوى، والمراقبة، والفكرة والاعتبار، والخوف، والرجاء، والصبر، والقناعة، والتسليم، والتفويض، والقرب، والشوق، والوجد، والوجل، والحزن، والندم، والحياء، والخجل، والتعظيم، والإجلال، والهيبة، ولكل عمل من هذه الأعمال الظاهرة والباطنة علمٌ وفقه وبيان وفهم وحقيقة ووجد، ويدل على صحة كل عمل منها من الظاهر والباطن آيات من القرآن وأخبار عن الرسول ﷺ علمه من علمه، وجهله من جهله؛ فإذا قلنا: علم الباطن أردنا بذلك علم أعمال الباطن التي هي على الجارحة الباطنة، وهي القلب، كما أنا إذا قلنا: علم الظاهر أشرنا إلى علم الأعمال الظاهرة التي هي على الجوارح الظاهرة، وهي الأعضاء.

وقد قال الله تعالى: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان: ٢٠].

فالنعمة الظاهرة ما أنعم الله تعالى بها على الجوارح الظاهرة من فعل الطاعات، والنعمة الباطنة ما أنعم الله تعالى بها على القلب من هذه الحالات، ولا يستغنى الظاهر عن الباطن ولا الباطن عن الظاهر، وقد قال الله ﷻ:

﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾ [النساء: ٨٣]

فالعلم المستنبط هو العلم الباطن، وهو علم أهل التصوّف، لأن لهم مستنبطات من القرآن والحديث غير ذلك، ونحن نذكر إن شاء الله طرفاً من ذلك؛ فالعلم ظاهر وباطن، والقرآن ظاهر وباطن، وحديث رسول الله ﷺ ظاهر وباطن، والإسلام ظاهر وباطن، ولأصحابنا في معنى ذلك استدلالات واحتجاجات من الكتاب والسنة والعقل، وشرحه يطول ويخرج على حدّ الاختصار إلى حد الإكثار، وفيما قلنا كفاية، وبالله التوفيق). (اللمع، أبو نصر السراج ص٤٣-٤٤)

- وهنا يجب أن نعلم أن الشريعة لها فقهها الظاهري وفقهها الباطني والمسلم الكامل والداعي الناجح هو من يتعلم ويتمسك ويعمل بكلا الفقهين.

فمن تعلم الفقه الظاهري وترك الفقه الباطني فهو لم يتعلم دينه كاملاً، ومن تعلم الفقه الباطني وترك الفقه الظاهري فهو لم يتعلم دينه كاملاً أيضاً.

ومن تمسك بأحدهما ونادى به عالياً دون الآخر فلا يعد دينه كاملاً.

لذلك من ادّعى التصوف ولم يتعلم الفقه الظاهري ولم يعمل به فلا يعتد به ولا يكون قدوة لغيره ولا يمثل الإسلام بكامله.

ومن ادّعى التصوف ولم يتمسك بالشريعة أي بالقرآن والسنة فليس له من الإسلام حظ ولا صلة.

- ولا أدل على هذه الحقائق من الذي ورد عن كبار علماء أهل التصوف في ذلك.

قال الإمام سهل التستري (وهو أحد أئمة الصوفية وعلمائهم والمتكلمين في علوم الإخلاص والرياضيات وعيوب الأفعال): (أصولنا ستة: التمسك بكتاب اللّه، والاقتداء بسنة رسول اللّه ﷺ، وأكل الحلال، وكف الأذى، واجتناب الآثام، وأداء الحقوق).

(دائرة معارف الشعب، ج٣ ص٤٨١)

وقال أبو يزيد البسطامي: (لو نظرتم إلى رجل أُعطي الكرامات حتى يرتقي في الهواء، فلا تغتروا به حتى تجدوه عند الأمر والنهي، وحفظ الحدود وأداء الشريعة).

(الرسالة القشيرية، القشيري ص١٣)

ويقول الجنيد: (الطرق كلها مسدودة على الخلق إلا من اقتفى أثر الرسول ﷺ).

(أبو نعيم: حلية الأولياء، جزء ٤، ص٣٧٥)

ويقول أيضاً: (من لم يحفظ القرآن، ولم يكتب الحديث لا يقتدى به في هذا الأمر، لأن عملنا هذا مقيد بالكتاب والسنة). (المصدر نفسه، جزء٤، ص٣٧٣)

وقال الشيخ أبو القاسم النصر أباذي رحمه اللّه (وهو المحدث والمؤرخ، صحب الشبلي، وأبا على الروذباري، والمرتعش، وغيرهم):

(أصل التصوف ملازمة الكتاب والسنة وترك الأهواء والبدع ورؤية أعذار الخلائق والمداومة على الأوراد وترك الرخص والتأويلات).

(طبقات الأولياء، ابن الملقن ص٥)

وقال ابن عطاء اللّه السكندري (وهو المالكي الصوفي الواعظ المذكر، وكان رجلاً صالحاً عالماً يتكلم على كرسي ويحضر ميعاده خلق كثير، وكان لوعظه تأثير في القلوب، وكان له معرفة تامة بكلام أهل الحقائق وأرباب الطريق): (من ألزم نفسه آداب السنة نور اللّه قلبه بنور المعرفة، ولا مقام أشرف من مقام متابعة الحبيب ﷺ في أوامره وأفعاله وأخلاقه). (أبو نعيم: حلية الأولياء، جزء٤، ص٤٠٠)

وقال أبو حمزة البغدادي (جالس بشراً الحافي، والإمام أحمد. وصحب السري ابن المغلس، وكان بصيرا بالقراءات، وكان كثير الرباط والغزو): (لا دليل على الطريق إلى اللّه إلا متابعة الرسول ﷺ في أحواله وأقواله وأفعاله).

(مختصر تاريخ دمشق، ابن منظور جزء ٦، ص٤١٩)

أما حجة الإسلام أبو حامد الغزالي فقال عن الصوفي: (إن سالك سبيل اللّه قليل والدَّعِيّ فيه كثير ونحن نعرفك علامتين له:

➢ **الأولى**: أن تكون جميع أفعاله موزونة بميزان الشرع موقوفة على توقيفاته إيراداً وإصداراً وإقداماً وإحجاماً، إذ لا يمكن سلوك السبيل إلا بعد التلبس بمكارم الشريعة كلها.

➢ **الثانية**: لا يصل إليه إلا من واظب على جملة من النوافل فكيف يصل إليه من أهمل الفرائض). (ميزان العمل، أبو حامد الغزالي ص١٤٥)

وقد تحدث أحد كبار العلماء عن تمسك الصوفية بالكتاب والسنة فقال: (فأما المستقيمون من السالكين كجمهور مشايخ السلف مثل الفضيل بن عياض، وإبراهيم بن أدهم، وأبي سليمان الداراني، ومعروف الكرخي، والسري السقطي، والجنيد بن محمد، وغيرهم من المتقدمين ومثل الشيخ عبد القادر الجيلاني والشيخ حماد، والشيخ أبي البيان، وغيرهم من المتأخرين، فلا يسوغون للسالك ولو طار في الهواء أو مشى على الماء أن يخرج عن الأمر والنهي الشرعيين، بل عليه أن يعمل المأمور ويدع المحظور إلى أن يموت، وهذا هو الحق الذي دل عليه الكتاب والسنة وإجماع السلف، وهذا كثير في كلامهم).

- من كل ما ورد نخلص إلى أن التصوف يدعو إلى التمسك بالكتاب والسنة وما كان مخالفاً لهما فليس من التصوف، وإنما هو بدعة أو دس أو افتراء أو مصلحة ذاتية أو هوى نفس ممن ادعى التصوف، والتصوف منه براء.

٦- التصوف بين الحاجة إليه ونكرانه

عندما نريد التحدث في هذا العنوان لابد أن نمر على عدة مواضيع ومن أهمها ما يلي:

> أولاً: أهمية التصوف:

- عندما نريد أن نتحدث عن أهمية التصوف يجب أن نعرف أن هذه الأهمية ليست نابعة من التصوف في حد ذاته، وإنما هي نابعة من الاختصاص الذي يختص به التصوف.

- فقد بينا سابقاً أن التصوف ليس شيئاً جديداً على الإسلام، ولا منفصلاً عنه، ولا زيادة مضافة إليه: إنه اسم يعبر عن اختصاص بجانب معين من الإسلام إنه جانب مهم، هو جانب التزكية، التزكية التي هي من مهمات النبي ﷺ التي أرسله الله بها. قال تعالى مبيناً ذلك: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الجمعة: ٢].

- وقد أمرنا الله ﷻ في عدد من الآيات بالاهتمام بهذا الجانب في مثل قوله سبحانه: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٩].

- وفي قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾ [الأعلى: ١٤].

- كما أن التصوف من جهة أخرى يسعى إلى الوصول إلى مقام الإحسان عند المسلم وهو أحد الأركان الأساسية للدين كما جاء في الصحيح من حديث جبريل مع رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ: «الإِحْسَانُ أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ». (أخرجه البخاري في صحيحه عن أبي هريرة ﷺ)

- وقد علمنا أن الشارع أمر الإنسان بتكاليف في خاصة نفسه ترجع إلى قسمين:

• قسم يتعلق بأعماله الظاهرة.

• وقسم يتعلق بأعماله الباطنة.

- وبلفظ آخر: أحكام تتعلق بظاهر الإنسان وأحكام تتعلق بباطنه (القلب والنفس).

- أما الأعمال التي تتعلق بظاهرة فهي نوعان:

- أوامر ونواه، **فالأوامر** المفروضة كالصلاة والصوم...

- وأما **النواهي** المحظورة كتحريم الزنى والسرقة..

- وأما الأعمال التي تترتب على القلب فهي كذلك نوعان أوامر ونواه، فالأوامر المفروضة: كالإيمان بالله وملائكته.. وكالإخلاص والتوكل والخشوع والصدق والصبر..

- وأما النواهي المحظورة، كالكفر والنفاق والحقد...

- وهذا القسم الثاني هو المعول عليه في ديننا ألا وهو أعمال القلوب لأنه مَبْنَى الأمور كلها على إخلاص النيات لرب البريات التي لا يعلم بها غيره فقد قرن اللّه سبحانه وتعالى أعمال الظاهر وسلامة الباطن فيها، لأن فساد الباطن يوجب فساد الأعمال الظاهرة، فقال سبحانه: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠].

- وإلى ذلك أشار النبي ﷺ بقوله: «ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب» (متفق عليه عن النعمان بن بشير ﷺ).

- لأن العمدة يوم القيامة على القلب السليم كما أخبر اللّه سبحانه وتعالى فقال:

﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء، ٨٨-٨٩].

- وكما أخبر سيدنا محمد ﷺ أن محل نظر الرب هو القلب، فقال ﷺ: «إن الله لا ينظر إلى أجسامكم ولا إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم».

(أخرجه مسلم في صحيحه)

- مما مر معنا نتبين أن التصوف إنما هو العلم المختص بموضوع هام هو فقه الباطن المسمى بعلم الباطن وهو الذي يهتم بالأحكام التي تتعلق بباطن الجسد وهو القلب والنفس وهو ما سماه القرآن أيضاً بالتزكية وسماه النبي بالإحسان.

- وهذا الجانب الذي اهتم به التصوف هو جانب أساسي بل هو الجانب الأهم في الشريعة لأنها تبنى عليه.

- لذلك عدّ كثير من العلماء هذا الاختصاص فرضَ عين لأن تصفية القلب ومداواته، وكبح جماح النفس عن شهواتها وتهذيبها وتزكيتها والسعي بها إلى كمالاتها، للوصول إلى مقام الإحسان من أهم الفرائض العينية وأهم الواجبات الربانية، وقد دل على ذلك كثير من آيات القرآن وسنة النبي ﷺ وأقوال العلماء والفقهاء التي تتحدث عن أعمال القلب كالإخلاص والإيمان وحسن الخلق والصدق والصبر والتوكل والإحسان والبعد عن الرياء والحقد والحسد والنفاق...

- وقد أجمع العلماء على أن الأمراض والآفات القلبية من الكبائر التي تحتاج إلى توبة مستقلة لأن أمراض الباطن كافية لإحباط أعمال العبد ولو كانت كثيرة.

- قال الفقيه العلامة الكبير ابن عابدين في حاشيته الشهيرة:

(إن علم الإخلاص والعجب والحسد والرياء فرض عين مثل غيرها من آفات النفوس كالكبر والشح والحقد... إلى أن قال: ولا ينفك عنها بشر، فيلزمه أن يتعلم منها ما يرى نفسه محتاجاً إليه وإزالتها فرض عين ولا يمكن إلاّ بمعرفة حدودها وأسبابها وعلاماتها وعلاجها فإن من لا يعرف الشر يقع فيه).

(حاشية رد المحتار، ابن عابدين)

- كما قال ابن خلدون في مقدمته: (وهذا العلم -يعني التصوف- من العلوم الشرعية الحادثة في الملة، وأصله أن طريقة هؤلاء القوم لم تزل عند سلف الأمة وكبارها من الصحابة والتابعين ومن بعدهم طريقةَ الحق والهداية، وأصلها العكوف على العبادة، والانقطاع إلى اللّه تعالى، والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها، والزهد في ما يقبل عليه الجمهور من لذة مال وجاه، والانفراد عن الخلق والخلوة للعبادة، وكان ذلك عاماً في الصحابة والسلف: فَلَمّا فشا الإقبال على الدنيا في القرن الثاني وما بعده، وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا، اختص المقبلون على العبادة باسم الصوفية والمتصوفة).

- وقال العلامة الشيخ محمد أمين الكردي رحمه الله: (وهو عالم صوفي واعظ تعلم بالأزهر وله كتب عديدة).

(واعلم أن التصوف ويقال له علم الباطن من أجل العلوم قدراً، وأعظمها محلاً وفخراً، وأسناها شمساً وبدراً، وقد فضل اللّه أهله على الكافة من عباده بعد رسله وأنبيائه صلوات اللّه وسلامه عليهم، وجعل قلوبهم معدن الأسرار، واختصهم من بين الأمة بطوابع الأنوار، فهم الغياث للخلق، والدائرون في عموم أحوالهم مع الحق) (تنوير القلوب، محمد أمين الكردي).

ثم يقول: (وفضله أنه أشرف العلوم لتعلقه بمعرفة اللّه تعالى وحبه وهي أفضل على الإطلاق، ونسبته إلى غيره من العلوم أنه أصلٌ لها وشرط فيها إذ لا علم ولا عمل إلا بقصد التوجه إلى اللّه فنسبته لها كالروح للجسد) (المصدر السابق).

- وقال حجة الإسلام الإمام الغزالي - بعد أن اختبر طريق التصوف ولمس نتائجه وذاق ثمراته- : (الدخول مع الصوفية فرض عين، إذ لا يخلو أحد من عيب إلا الأنبياء عليهم الصلاة والسلام) (النصرة النبوية على هامش شرح الرائية، الفاسي).

- وقال أبو الحسن الشاذلي رضي اللّه عنه: (من لم يتغلغل في علمنا هذا مات مصراً على الكبائر وهو لا يشعر).

- وفي هذا القول يقول ابن علاّن الصديقي (الشافعي النقشبندي وهو عالم فاضل متصوف، من أهل مكة مولداً ووفاة له مؤلفات كثيرة): ولقد صدق فيما قال- يعني أبا الحسن الشاذلي -فأي شخص يا أخي يصوم ولا يعجب بصومه؟ وأي شخص يصلي ولا يعجب بصلاته، وهكذا سائر الطاعات).

(إيقاظ الهمم شرح متن الحكم، ابن عجيبة)

- ولما كان هذا الطريق صعب المسالك على النفوس الناقصة فينبغي للإنسان أن يجتازه بعزم وصبر ومجاهدة حتى يُطهّر نفسه من أدرانها ونقائصها وبعدها عن الله تعالى ورضوانه.

- يقول الفضيل بن عياض رحمه اللّه تعالى (وهو من كبار أهل التصوف):

(عليك بطريق الحق ولا تستوحش لقلة السالكين، وإياك وطريق الباطل ولا تغتر بكثرة الهالكين، وكلما استوحشت من تفردك فانظر إلى الرفيق السابق، واحرص على اللحاق بهم، وغض الطرف عن سواهم، فإنهم لن يغنوا عنك من اللّه تعالى شيئاً، وإذا صاحوا بك في طريق سيرك فلا تلتفت إليهم فإنك متى التفت إليهم أخذوك وعاقوك) (المصدر السابق).

- (وقد قال ابن زكرى رحمه اللّه متحدثاً عن التصوف:

به وصول العبد للخلاص روح العبادة بالاختصاص

وذاك واجب على المكلف تحصيله يكون بالمعروف

يعني أن علم التصوف فرض عين على كل مكلف، وذاك أن الغالب أن الإنسان لا ينفك عن دواعي الشر والرياء والحسد، فيجب عليه أن يتعلم ما يتخلص به من ذلك). (الدر الثمين والمورد المعين، محمد أحمد الفاسي)

- من كل ما سبق نجد أن التصوف يهتم بجانب مهم من جانبي الإسلام وهو جانب علم الباطن وتزكية النفس والقلب وهو جانب ضروري لا يستغنى عنه ولا يتم الإسلام ولا يكمل الإيمان إلا به.

- من هنا نخلص إلى أن هذا العلم علم التصوف الصافي والعمل به هو فرض عين على كل مسلم.

➢ ثانياً: ما السبب في أن التصوف لم يظهر إلا بعد عصر الصحابة والتابعين؟

- يجيب على هذا السؤال المهم الدكتور أحمد علوش (وهو من الرواد الأوائل الذين نقلوا حقائق التصوف الإسلامي إلى اللغات الأجنبية وكان له أكبر الأثر في تصحيح الأفكار والرد على المستشرقين [نقلاً عن الموسوعة اليوسفية ص١٦] فيقول: (قد يتساءل الكثيرون عن السبب في عدم ظهور هذه الدعوة إلا بعد عهد الصحابة والتابعين والجواب عن هذا: أنه لم تكن ثمة حاجة إليها في العصر الأول، لأن أهل ذاك العصر كانوا أهل تقىً وورع، وأرباب مجاهدة وإقبال على العبادة بطبيعتهم، وبحكم قرب اتصالهم برسول الله ﷺ، كانوا يتسابقون ويتبادرون في الاقتداء به في ذلك كله، فلم يكن ثمة ما يدعو إلى تلقينهم علماً يرشدهم إلى أمر هم قائمون به فعلاً، وإنما مثلهم في ذلك كله كمثل العربي القحّ، يعرف اللغة العربية بالتوارث كابراً عن كابر حتى إنه ليقرض الشعر البليغ بالسليقة والفطرة دون أن يعرف شيئاً من قواعد اللغة والإعراب والنظم والقريض، فمثل هذا لا يلزمه أن يتعلم النحو ودروس البلاغة، ولكن علم النحو وقواعد اللغة والشعر تصبح لازمة وضرورية عند تفشي اللحن، وضعف التعبير، أو لمن يريد من الأجانب أن يتفهمها ويتعرف عليها، أو عندما يصبح هذا العلم ضرورة من ضرورات الاجتماع كبقية العلوم التي نشأت وتألفت على توالي العصور في أوقاتها المناسبة.

فالصحابة والتابعون، وإن لم يتسموا باسم المتصوفين - كانوا صوفيين فعلاً وإن لم يكونوا كذلك اسماً، وماذا يراد بالتصوف أكثر من أن يعيش المرء لربه لا لنفسه، ويتحلى بالزهد وملازمة العبودية، والإقبال على الله بالروح والقلب في جميع الأوقات وسائر الكمالات التي وصل بها الصحابة والتابعون من حيث الرقي

الروحي إلى أسمى الدرجات، فهم لم يكتفوا بالإقرار في عقائد الإيمان، والقيام بفروض الإسلام، بل قرنوا الإقرار بالتذوق والوجدان، وزادوا على الفروض الإتيان بكل ما استحبه الرسول ﷺ من نوافل العبادات، وابتعدوا عن المكروهات فضلاً عن المحرمات، حتى استنارت بصائرهم، وتفجرت ينابيع الحكمة من قلوبهم، وفاضت الأسرار الربانية على جوانحهم، وكذلك كان شأن التابعين وتابعي التابعين، وهذه العصور الثلاثة كانت أزهى عصور الإسلام وخيرها على الإطلاق، وقد جاء عن رسول الله ﷺ قوله: «خير القرون قرني هذا فالذي يليه والذي يليه» (متفق عليه).

فلما تقادم العهد، ودخل في حظيرة الإسلام أممٌ شتى، وأجناس عديدة، واتسعت دائرة العلوم وتقسمت وتوزعت بين أرباب الاختصاص، قام كل فريق بتدوين الفن والعلم الذي يجيده أكثر من غيره، فنشأ بعد تدوين النحو في الصدر الأول علم الفقه، وعلم التوحيد، وأصول الدين، وعلوم الحديث، والتفسير، والمنطق ومصطلح الحديث، وعلم الأصول، والفرائض (الميراث) وغيرها...

وحدث بعد هذه الفترة أن أخذ التأثير الروحي يتضاءل شيئاً فشيئاً، وأخذ الناس يتناسون ضرورة الإقبال على الله بالعبودية، والقلب والهمة، مما دعا أرباب الرياضة والزهد إلى أن يعملوا هُم من ناحيتهم أيضاً على تدوين علم التصوف، وإثبات شرفه وجلاله وفضله على سائر العلوم، و لم يكن ذلك منهم احتجاجاً على انصراف الطوائف الأخرى إلى تدوين علومهم - كما يظن ذلك- خطأً بعضُ المستشرقين - بل كان سداً للنقص، واستكمالاً لحاجات الدين في جميع نواحي النشاط، مما لا بد منه لحصول التعاون على تمهيد أسباب البر والتقوى) (مجلة العشيرة المحمدية عدد محرم (١٣٧٦هـ) من بحث التصوف من الوجهة التاريخية للدكتور أحمد علوش).

- كما أن أبا نصر السراج الطوسي أجاب على هذا السؤال فقال في باب الرد على من قال: لم نسمع بذكر الصوفية في القديم وهو اسم مُحْدَث:

(إن سأل سائلٌ فقال: لم نسمع بذكر الصوفية في أصحاب رسول اللّه ﷺ رضي الله عنهم أجمعين، ولا فيمن كان بعدهم، ولا نعرف إلا العبَّاد والزهَّاد والسيَّاحين والفقراء؛ وما قيل لأحد من أصحاب رسول اللّه ﷺ: «صوفيٌّ»، فنقول وباللّه التوفيق: الصُّحبة مع رسول اللّه ﷺ لها حرمة، وتخصيص من شمله ذلك، فلا يجوز أن يعلق عليه اسم على أنه أشرفُ من الصحبة، وذلك لشرف رسول اللّه ﷺ وحرمته، ألا ترى أنهم أئمة الزهَّاد والعبَّاد والمتوكلين والفقراء والراضين والصابرين والمخبتين، وغير ذلك، وما نالوا جميع ما نالوا إلا ببركة الصحبة مع رسول اللّه ﷺ، فلمَّا نُسبوا إلى الصحبة التي هي أجلُّ الأحوال استحال أن يفضلوا بفضيلة غير الصحبة التي هي أجلُّ الأحوال وباللّه التوفيق.

- وأما قول القائل: إنه اسم محدث أحدثه البغداديون، فمحال، لأن في وقت الحسن البصري رحمه اللّه كان يُعرف هذا الاسم، وكان الحسن قد أدرك جماعة من أصحاب رسول اللّه ﷺ ورضي عنهم، وقد رُوى عنه أنه قال: رأيتُ صوفياً في الطواف فأعطيته شيئاً فلم يأخذه وقال: معي أربعة دوانيق فيكفيني ما معي).

- ورُوي عن سفيان الثوري رحمه اللّه أنه قال: (لولا أبو هاشم الصوفي ما عرفت دقيق الرياء) (اللمع).

- ولخص ابن خلدون في مقدمته الإجابة على هذا السؤال فقال: (وهذا العلم يعني التصوف من العلوم الشرعية الحادثة في الملّة وأصله أن طريقة هؤلاء القوم لم تزل عند سلف الأمة وكبارها من الصحابة والتابعين ومن بعدهم طريقة الحق والهداية، وأصلها العكوف على العبادة، والانقطاع إلى اللّه تعالى، والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها، والزهد في ما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه، والانفراد عن الخلق، والخلوة للعبادة، وكان ذلك عاماً في الصحابة والسلف، فلما فشا الإقبال على الدنيا في القرن الثاني وما بعده، وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا، اختص المقبلون على العبادة باسم الصوفية).

- ويقول الشاطبي (وهو محدث، فقيه أصولي، لغوي، مفسر. لـه مؤلفـات عديدة) ناقلاً عن أبي القاسم القشيري ما يلي:

(إنهم إن اختصوا باسم التصوف انفراداً به عن أهل البدع فذكر أن المسلمين بعد رسول اللّه ﷺ لم يتسم أفاضلهم في عصرهم باسم علم سـوى الـصحبة إذ لا فضيلة فوقها ثم سمى من يليهم التابعين ورأوا هذا الاسم أشرف الأسماء ثم قيل لمن بعدهم أتباع التابعين ثم اختلف الناس وتباينت المراتب فقيل لخواص الناس ممن لهـم شدة عناية في الدين: الزهاد والعباد وقال: ثم ظهرت البدع وادعى كل فريـق أن منهم زهاداً وعباداً فانفرد خواص أهل السنة الراعون أنفسهم من اللّه، الحـافظون قلوبهم عن الغفلة باسم التصوف) (الاعتصام).

- من هذه النصوص السابقة، يتبين لنا أن التصوف لـيس أمـراً مـستحدثاً جديداً، ولكنه مأخوذ من توجيهات القرآن الكريم، وسيرة الرسـول ﷺ، وحيـاة أصحابه الكرام، ومن تبعهم بإحسان، ولم يظهر اسم التـصوف في عهـد الـنبي وصحابته لأن الإسلام كلٌ لا يتجزأ وقد ظهر الإسلام في حياتهم كلـها، تطبيقـاً عملياً، فلما توسعت رقعة الإسلام، وانتشر في ربوع الـبلاد المختلفـة، وحـدث الاختلاط بالأقوام الأخرى من جهة، وأخذ العلماء يتخصصون به في ميادين العلوم الإسلامية من جهة أخرى، اهتم أناس بفقه الباطن والتطبيـق العلمـي للأخـلاق والسلوك الإسلامي، والعودة بالإسلام إلى جوهره وحقيقته وأخلاقه وما كان عليه عهد النبي وصحابته وسموا بذلك تسمية تخصصية وهي الصوفية.

- ويؤيد كل ذلك ما قاله الإمام الغزالي في كتاب عوارف المعارف:

(وقيل لم يعرف هذا الاسم إلى المائتين من الهجرة النبوية، لأن في زمن رسول اللّه ﷺ كان أصحاب رسول اللّه ﷺ يسمون الرجل صحابياً لشرف صحبة رسول اللّه ﷺ وكون الإشارة إليها أولى من كل إشارة، وبعد انقراض عهد رسول اللّـه،

من أخذ منهم العلم سمي تابعياً، ثم لما تقادم زمن الرسالة، وبعد عهد النبوة وانقطع الوحي السماوي، وتوارى النور المصطفوي، واختلفت الآراء وتنوعت الأنحاء، وتفرد كل ذي رأي برأيه، وكدر شرب العلم شوب الأهوية، وتزعزعت أبنية المتقين، واضطربت عزائم الزاهدين، وغلبت الجهالات وكثف حجابها، وكثرت العادات وتملكت أربابها، وتزخرفت الدنيا وكثر خطابها، تفرد طائفة بأعمال صالحة وأحوال سنية وصدق عزيمة وقوة في الدين، وزهدوا في الدنيا ومحبتها، واغتنموا العزلة والوحدة، واتخذوا لنفوسهم زوايا يجتمعون فيها تارة وينفردون أخرى أسوة بأهل الصفة وتهيأ لهم صفاء الفهوم لقبول العلوم، وصار لهم بعد اللسان لسان، وبعد العرفان عرفان، وبعد الإيمان إيمان، كما قال حارثة أصبحت مؤمناً حقاً، حيث كوشف برتبة من الإيمان غير ما يتعاهدها، فصار لهم بمقتضى ذلك علوم يعرفونها، وإشارات يتعاهدونها، فحرروا لنفوسهم اصطلاحات تشير إلى معان يعرفونها، وتعرب عن أحوال يجدونها، فأخذ ذلك الخلف من السلف، حتى صار ذلك رسماً مستمراً وخبراً مستقراً في كل عصر وزمان فظهر هذا الاسم بينهم وتَسَمَّوْا به وسموا به، فالإسلام سمتهم، والعلم باللّه صفتهم، والعبادة حليهم، والتقوى شعارهم، وحقائق الحقيقة أسرارهم) (ملحق إحياء علوم الدين، ص٦٦).

➢ ثالثاً: التصوف المفترى عليه:

- لعل من أهم الأسباب التي جعلت كثيراً من المتأخرين يهاجمون التصوف حتى إن بعضهم يصفهم بالمبتدعين أو بالمرتدين ويشن عليهم حرباً ضروساً في أقواله وكتاباته.

- أقول: لعل من أهمها ما يرونه على بعض من تسمى باسم التصوف، والتصوف منهم بَرَاء، فهم يرون منهم استغلالاً أو انحرافاً أو كذباً، أو معاملة سيئة، أو أعمالاً شاذة، أو خروجاً عن تعاليم الشريعة، أو غير ذلك من الأمور التي لا يرضاها عاقل أو مسلم أو محب للّه ﷻ ورسوله ﷺ.

فهل ينبغي إن رأى أحد من أولئك على هؤلاء مثل هذه الأمور أن يشن حرباً على أهل التصوف جميعاً.

- إنّ المنصفين دائماً يرون أنه قد يوجد في كل جماعة أياً كانت بعض المنافقين أو المستغلين أو المنحرفين أو السيئين، وهذا لا يدفعهم إلى الحكم على الجماعة كاملة بأحكام جائرة لأن الحكم يكون على المبادئ والحقائق وليس الحكم على الشواذ من المدعين.

- وبناء على ذلك نرى أن كل ما يخالف تعاليم الإسلام وشرائعه في شيء لا تصح نسبته إلى الصوفية والتصوف وإنما هو من ضلالات المدعين الذين انتسبوا للتصوف زوراً وبهتاناً أو من الأمور المدسوسة على كتبهم بقصد الطعن في هؤلاء القوم وتشويه صورتهم ونهجهم كما حدث في كتب التفسير، فقد دُسّ فيها من الإسرائيليات ما يناقض ما عرف عن هؤلاء المفسرين من حرص على بيان الحق والبعد عن هذه المرويات الملفقة وكذلك ما جاء في بعض كتب الحديث من الأحاديث الموضوعة، وقام العلماء الأجلاء ببيانها ولذلك فإني أرى أن الهوة بين التصوف والمعارضين له نشأت من اقتناعهم بأن هذه الأقوال الباطلة هي من صميم آراء المتصوفة، ولو أنهم وضعوا الأمور في نصابها ونظروا إليها نظرة فاحصة مستبصرة لوجب عليهم ألا يلصقوا هذه الأقوال الشنيعة بهؤلاء القوم وأن يحسنوا الظن بهم وخاصة أنهم قد لقوا ربهم وأصبحوا بين يدي الله تعالى وأفضوا إلى ما قدموا.

- وإليك بعض الأمثلة على ذلك الدس والافتراء على هؤلاء القوم يقول الشيخ عبد الوهاب الشعراني في كتابه لطائف المنن والأخلاق (وهو مصري، فقيه، أصولي، محدث، صوفي، له تصانيف كثيرة):

(ومما منّ الله تبارك وتعالى به عليّ صبري على الحسدة والأعداء لما دسوا في كتبي كلاماً يخالف ظاهر الشريعة وذلك لما صنفت كتاب: البحر المورود في المواثيق

والعهود وكتب عليه علماء المذاهب الأربعة بمصر وتسارع الناس لكتابته فكتبوا منه نحو أربعين نسخة غار من ذلك الحسدة فاحتالوا على بعض المغفلين من أصحابي واستعاروا منه نسخته وكتبوا لهم منها بعض كراريس ودسوا فيها عقائد زائفة ومسائل خارقة لإجماع المسلمين وحكايات وسخريات عن جحا وابن الراوندي وسبكوا في ذلك غضون الكتاب في مواضيع كثيرة حتى كأنهم المؤلف ثم أخذوا تلك الكراريس وأرسلوها إلى سوق الكتب في يوم السوق وهو مجمع طلبة العلم فنظروا في تلك الكراريس ورأوا اسمي عليها فاشتراها من لا يخشى الله تعالى ثم دار بها على علماء جامع الأزهر فأوقع ذلك فتنة كبيرة ومكث الناس يدورون في المساجد والأسواق وبيوت الأمراء نحو سنة وانتصر لي الشيخ نصر الدين اللقاني وشيخ الإسلام الحنبلي والشيخ شهاب الدين بن الحلبي كل ذلك وأنا لا أشعر فأرسل لي شخص من المحبين بالجامع الأزهر وأخبرني الخبر فأرسلت نسختي التي عليها خطوط العلماء فنظروا فيها فلم يجدوا فيها شيئاً مما دسه هؤلاء الحسدة... الخ).

- وقد ذكر ذلك أيضاً المؤرخ الكبير عبد الحي بن العماد الحنبلي في كتابه شذرات الذهب (وهو المؤرخ والفقيه والأديب، ولد في صالحية دمشق، وأقام في القاهرة مدة طويلة، وتوفي بمكة) حيث قال: (وحسده طوائف فدسوا عليه كلمات تخالف ظاهر الشرع وعقائد زائغة ومسائل تخالف الإجماع فخذلهم الله وأظهره الله عليهم وكان مواظباً على السنة ومبالغاً في الورع.. الخ).

- ومن ذلك يتبين واضحاً جلياً أن كل ما نراه في الكتب منسوباً إليهم وهو مخالف للشرع كما في الطبقات الكبرى للشعراني فهو من وضع الزنادقة وقد جاء في كتاب حقائق عن التصوف ما يلي: (وكذلك دسوا على الشيخ محيي الدين بن عربي رحمه الله قال الشعراني: (كان رضي الله عنه مقتدياً بالكتاب والسنة ويقول: كل من رمى ميزان الشريعة من يده لحظة هلك) إلى أن قال: (وجميع ما عارض من

كلامه ظاهر الشريعة وما عليه الجمهور فهو مدسوس عليه) كما أخبرني بذلك سيدي أبو طاهر المغربي ثم أخرج لي نسخة الفتوحات المكية التي قابلها على نسخة الشيخ التي بخطه في مدينة قونية فلم ير فيها شيئاً مما كنت توقفت فيه وحذفته حين اختصرت الفتوحات...

ثم قال الشعراني رحمه الله: إذا علمت ذلك فيحتمل أن الحُسَّدَ دسوا على الشيخ في كتبه كما دسوا في كتبي أنا، فإنه أمر قد شاهدته عن أهل عصري في حقي، فالله يغفر لنا ولهم آمين).

- وذكر العلامة ابن عابدين الفقيه الحنفي وصاحب أكبر موسوعة في الفقه الحنفي أن الأرجح عنده بالنسبة لما ورد في كتب الشيخ محيي الدين بن عربي مما يخالف الشرع بأنه مفترى عليه ولذلك تجد نص عبارته: (لكن الذي تيقنته أن بعض اليهود افتراها على الشيخ قدس اللّه سره).

➢ رابعاً: حاجتنا إلى التصوف:

- لو رجعنا إلى تاريخنا القديم، التاريخ الإسلامي، لأدركنا أنّ الحاجة ماسّة إلى التصوف فهو الذي حفظ روح الدين وجوهره على مدى هذا التاريخ، وهو الذي عمل أتباعُهُ على نشر هذه الدعوة، خاصة بعد الفتوحات، فعن طريق التجارة وغيرها عمل الدعاة المتصوفة على إيصال هذا الدين إلى جميع بقاع هذا العالم شرقه وغربه شماله وجنوبه، فكانوا عاملاً هاماً في نشر هذا الدين ووصوله إلى هذه البلاد البعيدة متحملين مشاقاً قاسية صعبة لم يسهلها عليهم إلا تصوفهم الذي بنى إيمانهم المتين، وعقيدتهم الصادقة، وسلوكهم المستقيم، وإرادتهم القوية، وصبرهم الشديد، فهان عليهم ما لاقوه، وفرحوا بما بذلوه.

- (وتجدر الإشارة أن الطرق الصوفية قد قامت بنشر الإسلام في أصقاع لم تطأها جيوش المسلمين كما حصل في غرب ووسط وجنوب الصحراء الإفريقية

حيث اندفعت هذه الطرق إلى الناس في القرى والأماكن النائية تاركة الخطوط التجارية والمسالك المعروفة والمدن الكبرى، فسطرت بذلك مآثر لا ينافسها سواها في مجالها) (موسوعة التاريخ الإسلامي؛ أحمد الشلبي).

- هذا وقال شاتيلي -وهو أحد المؤرخين الغربيين وبعد أن أطال البحث والشرح في كيفية انتشار الإسلام في العالم، وبعد أن عَزَاهُ إلى مشايخ الطرق الصوفية-: (والخلاصة أن الإسلام مدين بكل فتوحاته السلمية وانتشاره في الأقطار لجماعة الصوفية، فمشايخ الطرق هم في الحقيقة الذين يديرون حركة الإسلام الحية، ولا يخفى ما في عملهم هذا من الخطر على المصالح الأوربية).

[تاريخ الجزائر العام، عبد الرحمن الجيلالي]

- والتتر والمغول اللذان لم تستطع قوة أن تقف أمامهما استطاع هؤلاء الدعاة المتصوفة إيقافهم وصدهم وإجبارهم على التراجع وذلك بفضل دعوتهم إياهم إلى الإسلام، فدخل الإسلام قلوب ملوكهم ورؤسائهم وقوادهم فأصبحوا على خير كبير بعد الشر المستطير الذي كانوا عليه والذي حملوه للشعوب المستضعفة التي حل بها العار والدمار والفناء.

- وإذا أردنا أن نعرف بعض الأعمال التي قام بها رجالات التصوف فلنستمع إلى الشيخ أبي الحسن الندوي (وهو عضو المجمع العلمي العربي بدمشق ومعتمد ندوة العلماء بالهند)، يقول في بحث ((الصوفية في الهند وتأثيرها في المجتمع)):

(إن هؤلاء الصوفية كانوا يبايعون الناس على التوحيد والإخلاص واتباع السنة، والتوبة عن المعاصي، والظلم، والقسوة، ويرغبونهم في التحلي بالأخلاق الحسنة، والتخلي عن الرذائل، مثل الكبر والحسد والبغضاء، والظلم وحب الجاه، وتزكية النفس وإصلاحها، ويعلمونهم ذكر اللّه، والنصح لعباده، والقناعة والإيثار، وعلاوة على هذه البيعة التي كانت رمز الصلة العميقة الخاصة بين الشيخ ومريديه،

إنهم كانوا يعظون الناس دائماً، ويحاولون أن يلهبوا فيهم عاطفة الحب للّه سبحانه، والحنين إلى رضاه، ورغبة شديدة لإصلاح النفس وتغير الحال...).

- ثم تحدث عن مدى تأثير أخلاقهم وإخلاصهم وتعليمهم وتربيتهم ومجالسهم في المجتمع والحياة، وضرب بعض الأمثلة التي تلقي الضوء على هذا الواقع التاريخي ثم تحدث عن الشيخ أحمد الشهيد، رحمه اللّه تعالى، فقال: (إن الناس أقبلوا عليه إقبالاً منقطع النظير، وإنه لم يمر ببلدة إلا وتاب على يديه وبايعه عدد كبير من الناس، وإنه أقام في كلكتا شهرين ويقدر أن الذين كانوا يدخلون في البيعة لا يقل عددهم عن ألف نسمة يومياً، وتستمر البيعة إلى نصف الليل، وكان من شدة الزحام لا يتمكن من مبايعتهم واحداً واحداً، فكان يمدّ سبعة أو ثمانية من العمائم، والناس يمسكونها ويتوبون ويعاهدون اللّه، وكان هذا دأبه كل يوم سبع عشر أو ثماني عشرة مرة...).

- وتحدث عن شيخ الإسلام علاء الدين رحمه اللّه تعالى، فقال: (إن السنوات الأخيرة من عهده تمتاز بأن كسدت فيها سوق المنكرات من الخمر الحرام والفسق والفجور والميسر والفحشاء بجميع أنواعها، ولم تنطق الألسن بهذه الكلمات إلا قليلاً، وأصبحت الكبائر تشبه الكفر في أعين الناس، وظل الناس يستحيون من التعامل بالربا والادخار والاكتناز علناً، وندرت في السوق حوادث الكذب والتطفيف والغش..).

ثم قال: (إن تربية هؤلاء الصوفية والمشايخ ومجالسهم كانت تنشئ في الإنسان رغبة في إفادة الناس، وحرصاً على خدمتهم ومساعدتهم...).

- وقال الشيخ أبو الحسن الندوي في كتابه (ربانية لا رهبانية): (فلا شك أنه لولا هؤلاء ((الصوفية)) أصحاب النفوس المزكاة، الذين وصلوا إلى درجة الإحسان وفقه الباطن لانهار المجتمع الإسلامي، إيماناً روحانياً، وابتلعت موجة المادية الطاغية العاتية، الباقية من إيمان الأمة وتماسكها، وضعفت صلة القلوب باللّه، والحياة بالروح

والمجتمع بالأخلاق، وفقد الإخلاص والاحتساب، وانتشرت الأمراض الباطنة واعتلت القلوب والنفوس، وفقد الطبيب، وتكالب الناس على حطام الدنيا، وتنافس أهل العلم في الجاه والمال والمناصب، وغلب عليهم الطمع والطموح، وتعطلت شعبة من أهم شعب النبوة وبنيانها، وهي تزكية النفوس والدعوة إلى الإحسان وفقه الباطن).

- ثم بيّن الأستاذ الندوي أن تأثير هذه المواعظ، ودخول الناس في الدين وانقيادهم للشرع أدّى إلى تعطيل تجارة الخمر، وكساد سوقها في كلكتا، وهي كبرى مدن الهند، ومركز الإنجليز، وكسدت سوقه وأفقرت الخانات واعتذر الخمارون عن دفع الضرائب للحكومة، متعللين بكساد السوق، وتعطيل تجارة الخمر...

ثم قال: (إن هذه الحالة كانت نتيجة أخلاق هؤلاء المصلحين والدعاة الصوفية والمشايخ وروحانيتهم، أن اهتدى بهم في هذه البلاد الواسعة عدد هائل من الناس وتابوا عن المعاصي والمنكرات واتباع الهوى).

وفي ختام البحث قال الأستاذ الندوي حفظه اللّه تعالى: (لقد كانت هناك بجهود هؤلاء الصوفية أشجار كثيرة وارفة الظلال في مئات من بلاد الهند، استراحت في ظلها القوافل التائهة والمسافرون المتعبون، ورجعوا بنشاط جديد وحياة جديدة).

- وتحدث الشيخ أبو الحسن الندوي عن الصوفية وأثرها في نشر الإسلام بصدر حديثه عن الصوفي الشهير والمرشد الكبير سيدي الشيخ عبد القادر الجيلاني قدس اللّه روحه، فقال: (وكان يحضر مجلسه نحوٌ من سبعين ألفاً، وأسلم على يديه أكثر من خمسة آلاف من اليهود والنصارى، وتاب على يديه من العيارين أو المسالحة (أي: القوم ذوو السلاح) أكثر من مائة ألف، وفتح باب البيعة والتوبة على مصراعيه، فدخل فيه خلق لا يحصيهم إلا اللّه، وصلحت أحوالهم، وحسن إسلامهم، وظل الشيخ يربيهم ويحاسبهم ويشرف عليهم وعلى تقدمهم، وأصبح هؤلاء التلاميذ الروحانيون يشعرون بالمسؤولية بعد البيعة والتوبة وتجديد الإيمان، ثم يجيز

الشيخ كثيراً منهم ممن يرى فيه النبوغ والاستقامة والمقدرة على التربية، فينتشرون في الآفاق يدعون الخلق إلى اللّه، ويربون النفوس، يحاربون الشرك والبدع والجاهلية والنفاق، فتنتشر الدعوة الدينية وتقوم ثكنات الإيمان ومدارس الإحسان ومرابط الجهاد ومجامع الأخوة في أنحاء العالم الإسلامي).

(رجال الفكر والدعوة في الإسلام، أبو الحسن الندوي).

- وتحدث الشيخ أبو الحسن الندوي فقال: إنني أقول دائماً:

(لولا وجودهم وجهادهم لابتلعت الهندُ وحضارتُها وفلسفتُها الإسلامَ).

(روائع إقبال، أبو الحسن الندوي)

- وفي هذا الموضوع أيضاً يقول الأستاذ الشيخ أحمد الشرباصي الكاتب الإسلامي المعروف والمدرس في الأزهر الشريف:

(أرأيت إلى كنز وسيع عجيب فيه المال الغزير الذي لا يحصى وفيه أدوية الجسم الشافية التي لا تخون وفيه نور القلب الذي لا يخبو... ماذا يكون شأنك لو أن إنساناً أخبرك بوجود هذا الكنز بمكان ما ورسم لك الطريق إليه وذكر لك ما تحتاجه الرحلة من مجهود وتكاليف.. ألا تحاول أن تبذل جهدك وتستنفدَ طاقتك وتعمل وسعك حتى تصل إلى هذا الكنز الذي ستجد فيه جاه الدنيا وعز الآخرة؟. كذلك شأن التصوف يا صاح، إنه الدواء المخفي والكنز المطوي والسر العلمي، إنه الدواء الذي يحتاج إليه جسمك وفهمك وخلقك، ولكنك لن تصل إليه ولن تنتفع به حتى تتجه بمشاعرك نحوه وحتى تقبل ببصرك وبصيرتك عليه وحتى تبذل من ذات يدك وذات نفسك ومن وقتك وبحثك ما يهيّئ لك البلوغ إليه والوقوف عليه، فهل فعلت من ذلك شيئاً وقد عرفت الطريق إلى النعيم؟!..

يهمني أن تكون على بصيرة من أمرك، وأن لا تجهل شيئاً جليلاً يطالبك دينك وعقلك بأن تعرفه، ومن هنا يحتم عليك أن تدرس التصوف لتتصوره وتفهمه

وتفقهه، وبعد ذلك تحكم له أو عليه، وأزيدك بياناً فأقول لك: إنه قد يكون في التصوف وتاريخه وسير رجاله ما أضيف إليه أو افتراه المفترون عليه، ومن هنا يستتر حق وراء باطل، ومن هنا أيضاً يطالبك دينك بأن تقوم لتهتك حجاب الباطل وتستضيء بنور الحق، فهلا يكفي ذلك لتحريضك على دراسة التصوف؟؟!!

يا أبناء الإسلام!: إن التصوف يحتل من أخلاقكم وتاريخكم جانباً كبيراً وقد ضيعتموه أزمنة طوالاً، فحسبكم ما كان، وأقبلوا على التصوف، ففيه غذاء ودواء، والله الهادي إلى سبيل السواء).

(تصدير كتاب نور التحقيق، الشيخ حامد إبراهيم محمد صقر)

- وختاماً لهذا البحث نجد أن الحاجة ماسة لتعلم التصوف وتطبيق سلوكه وخاصة في هذا الزمان الذي كثرت فيه الشهوات والملذات والمبعدات عن الدين وجوهره، وعن الإسلام وأركانه، وعن الإيمان ومبادئه، وعن الأخلاق والسلوك وتعاليمه.

- حيث أصبحنا نرى المسلم يرتاد المساجد للصلاة، وربما سعى لأن يقف في الصف الأول، ونراه يتحدث بل ويجيد التحدث عن الإسلام وتشريعه، ولكننا لو راقبنا واقعه العملي في أسرته أو مع أهله أو جيرانه أو شركائه أو مع من يتعامل معهم لوجدنا الكثير من هؤلاء قد ضلوا السبيل بكلامهم أو أفعالهم، يأكلون أموال اليتامى، وأموال إخوانهم وأخواتهم، ولا يؤدون حقوق الآخرين، ويسعون في الأرض فساداً بالظلم والغش والحسد والحقد والغيبة والنميمة.

- مع هذا الواقع الأليم ألا نحتاج إلى المصلحين والمزكين والمربين الذين يأخذون بأيدي هؤلاء إلى جوهر الإسلام علماً وعملاً وتطبيقاً لشرع الله وسنة نبيه.

- فما أحرانا بأن نعود إلى العلماء العارفين والمزكين المربين، نجالسهم بأدب، ونتعلم منهم ونتأدب بآدابهم، ونتخلق بأخلاقهم، ونسلك طريقهم حتى نفوز بسعادة الدارين الدنيا والآخرة، ومن ثَمَّ نحمل هذه التعاليم وندعو إليها لتعم البلاد،

وينعم العباد، ويسود الوداد، حتى نلقى رب العباد وهو عنـــا راض ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُۥ﴾ [البينة: ٨].

➢ خامساً: منهج التصوف:

- هو منهج الإسلام، منهج اتباع القرآن والسنة والسلف الصالح يعمل علـــى تزكية النفس وتطهيرها من أدرانها والوصول إلى القلب السليم وإلى الإحسان وإلى محبة الله ورسوله وإلى التقوى والورع وإلى التوكل لا التواكل وإلى الإيثار والتعاون وإلى الإخلاص والصدق والصبر والاستقامة.

- كما أنه يعمل على معالجة النفس من أمراضها كالكبر والشح والعجـــب والحسد والرياء والحقد والغش والغضب والعداوة والبغضاء والطمع والبخل والبطر والخيلاء والخيانة والمكر والخداع والظلم والقسوة.

- معتمداً على وسائل كثيرة منها التوبة والاستغفار، ومراقبة اللّـــه في كـــل الحركات والسكنات والأعمال، والخوف منه ومن عقابه والإكثار مـــن الـــذكر والتسبيح والمحافظة على الفرائض والإكثار من النوافل كصلاة الليل والتهجد إلى غير ذلك من أعمال السلوك والرياضة الروحية وكل هذه المواضيع وغيرها مما يـــشتمل عليها منهاج التصوف إنما هي جزء هام من الإسلام إنها الجانب الروحـــي والفقـــه الباطني والتزكية الإيمانية والإحسان الذي هو أحد أركان الدين.

- يقول الشيخ محمد أمين الكردي شارحاً منهج التصوف: (التصوف هو علم يعرف به أحوال النفس محمودها ومذمومها، وكيفية تطهيرها من المـــذموم منـــها، وتحليها بالاتصاف بمحمودها، وكيفية السلوك والسير إلى الله تعالى والفرار إليه.

علم التصوف علم ليس يدركـــه ... إلا أخو فطنة بـــالحق معـــروف
وكيف يعرفه من ليس يـــشهده ... وكيف يشهد ضوء الشمس مكفوف

وموضوعه: أفعال القلوب والحواس من حيث التزكية والتصفية.

وثمرته: تهذيب القلوب، ومعرفة علام الغيوب ذوقاً ووجداناً، والنجاة في الآخرة والفوز برضا اللّه تعالى ونيل السعادة الأبدية، وتنوير القلب وصفاؤه بحيث ينكشف له أمور جليلة، ويشهد أحوالاً عجيبة، ويعاين ما عميت عينه بصيرة غيره.

وفضله: أنه أشرف العلوم المتعلقة بمعرفة اللّه تعالى وحبه وهي أفضل على الإطلاق.

ونسبته إلى غيره من العلوم، أنه أصل لها وشرط فيها، إذ لا علم ولا عمل إلا بقصد التوجه إلى اللّه فنسبته لها كالروح للجسد) (تنوير القلوب، محمد أمين الكردي).

- ولقد اتبع هذا المنهج الصحابة الكرام، ومن بعدهم التابعون، وتابعوهم والسلف الصالح والعلماء العاملون، وعلى مر العصور والأيام، وما خالفهم إلا كل جاهل أو حاقد أو حاسد أو مستأجر أو منافق أو ذو أهواء وأغراض.

- فما أحرانا نحن أن نتبع هذا المنهج ونتعلمه ونحافظ عليه ونطبقه وندعو إليه، وكم نحن بحاجة إليه وخاصة في هذا الزمان.

- ولابد لسلوك هذا المنهج من اتباع المعلم المرشد، والشيخ الدال على اللّه عز وجل الذي سلك هذا الطريق وعرف كنهه وصدق فيه فأصبح مرشداً حقاً ومربياً صادقاً يستطيع أن يدل من أراد سلوك هذا الطريق إلى حقائقه والوصول به إلى نتائجه وهي معرفة اللّه المعرفة الحقيقة والعمل على رضائه والسعي إلى طاعته والسير على منهجه حتى يلقاه وهو راض عنه، وينال بذلك سعادة الدارين الدنيا والآخرة، وكذلك يحتاج هذا المنهج إلى صحبة أهله والصدق معهم حتى يتعلم منهم ويستفيد منهم.

٧- موقف التشريع الحكيم من التصوف، ورأي العلماء فيه

- إن أهم ما يزيل كل لبس أو نقد أو فكرة تعترض المسلم فيما يتعلق بموضوع التصوف، هو موقف ورأي وأقوال السلف الصالح، من العلماء الأكابر، في هذا الموضوع، فموقفهم وأقوالهم وآراؤهم في التصوف -وهم الأقرب من الشريعة وعهد النبوة زمناً وعلماً وتقديراً للأمور- هو الحكم الفصل، لا موقف وأقوال وآراء المبغضين أو الحاسدين أو المغرضين أو مدعي العلم أو غيرهم من الأبواق التي تتحدث بألسنة غيرهم دون علم أو فهم أو تبين.

- هؤلاء السلف الذين كانوا من أكابر العلماء في الفقه وغيره من العلوم الإسلامية والذين اشتغلوا وقتئذ في الدراسة والبحث والاستنباط ومع ذلك لم يمنعهم ذلك من اتباع طريقة التصوف أو مصاحبة أصحابها أو الاستفادة منهم.

- وإليك بعض مواقف السلف الصالح من التصوف من خلال أقوالهم:

➢ أولاً: الإمام مالك رحمه الله تعالى:

يقول الإمام مالك رحمه الله تعالى: (من تفقه ولم يتصوف فقد تفسق، ومن تصوف ولم يتفقه فقد تزندق ومن جمع بينهما فقد تحقق).

(كتاب: الشفا للقاضي شرح ملا علي القاري).

وهذا يدلنا على أن الإمام مالك يدعو إلى الجمع بين فقه الظاهر وفقه الباطن.

ومعنى قوله هذا أي من تعلم الفقه -وهو الفقه الظاهري- ولم يتصوف أي ولم يتعلم -الفقه الباطني- فقد تفسق أي يُخشى عليه من الفسق- أي الخروج عن المقاصد الحقيقية من أحكام الشرع.

وقوله ومن تصوف -أي سار في طريق أهل التصوف-، ولم يتفقه- أي لم

يجالس علماء الفقه- فقد تزندق -أي يُخشى عليه من أن يصبح زنديقاً بعيداً عن الدين بتلبسه ببدع نتيجة جهله بالأحكام الشرعية-.

ومن جمع بين الفقه و التصوف،فقد تحقق- أي وصل إلى الحقيقة الصحيحة في فهم الدين وتطبيقه-.

➢ ثانياً: الإمام أبو حنيفة رحمه اللّه تعالى:

(نقل الفقيه الحنفي الحصكفي صاحب الدر: أن أبا علي الدقاق رحمه اللّه تعالى قال: أنا أخذت هذه الطريقة من أبي القاسم النصر أبادي، وقال أبو القاسم: أنا أخذها من الشبلي، وهو من السري السقطي، وهو من معروف الكرخي، وهو من داود الطائي، وهو أخذ العلم والطريقة من أبي حنيفة النعمان ﷺ وكل منهم أثنى عليه وأقر بفضله).

وهذا يدلنا أن الإمام أبا حنيفة كان صاحب علم وهو صاحب المذهب، وصاحب طريقة فقد جمع فقه الظاهر وفقه الباطن.

➢ ثالثاً: الإمام الشافعي رحمه اللّه تعالى:

(يقول صحبت الصوفية فاستفدت منهم ثلاث كلمات:

قولهم: الوقت سيف إذا لم تقطعه قطعك.

وقولهم: نفسك إن لم تشغلها بالحق شغلتك بالباطل.

وقولهم: (العدم عصمة): أي عدم حب الظهور أمام الآخرين عصمة من الوقوع في الخطأ لأن الظهور لمن لا يحسن الظهور يكسر الظهور.

[تأييد الحقيقة العلية، جلال الدين السيوطي].

ويقول أيضاً: (حبب إلي من دنياكم ثلاث: ترك التكلف، وعشرة الخلق بالتلطف، والاقتداء بطريق أهل التصوف) (كشف الخفاء ومزيل الإلباس، العجلوني).

وهذا يدلنا على أن الإمام الشافعي صحب أهل التصوف وانتفع بهم وحبب إليه الاقتداء بطريقهم.

➢ **رابعاً: الإمام أحمد رحمه اللّه تعالى:**

(انظر الموسوعة اليوسفية في بيان أدلة الصوفية):

مر هذا الإمام بمرحلتين فيما يتعلق بالتصوف:

المرحلة الأولى: عدم ثقته بهم ويدل على ذلك وصيته لولده عبد اللّه: (يا ولدي عليك بالحديث، وإياك ومجالس هؤلاء الذين سموا أنفسهم صوفية، فإنهم ربما كان أحدهم جاهلاً بأحكام دينه).

المرحلة الثانية: الثقة بهم، والدعوة إلى مجالستهم للانتفاع بهم، ومشاورتهم والأخذ بآرائهم. وذلك عندما صاحب أبا حمزة البغدادي الصوفي وعرف أحوال القوم أصبح يقول لولده: (أيا ولدي عليك بمجالسة هؤلاء القوم، فإنهم زادوا علينا بكثرة العلم والمراقبة والخشية والزهد وعلو الهمة).

وكان الإمام أحمد بن حنبل مع جلالة قدره إذا توقف في مسألة يقول لأبي حمزة البغدادي ﷺ: (ما تقول في هذه المسألة يا صوفي)؟ فما قال له اعتمده.

(النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ابن تغري بردي)

(ونقل العلامة محمد السفاريني الحنبلي رحمه اللّه تعالى عن إبراهيم بن عبد اللّه العلاني رحمه اللّه تعالى أن الإمام أحمد رحمه اللّه تعالى قال عن الصوفية: لا أعلم قوماً أفضل منهم، قيل إنهم يستمعون ويتواجدون، قال: دعوهم يفرحون مع اللّه ساعة) (الفروع، لابن مفلح).

➢ **خامساً: الإمام أبو حامد الغزالي رحمه اللّه تعالى:**

يقول الإمام الغزالي في كتابه (المنقذ من الضلال) بعد أن فرغ من علوم الشريعة بكتاب «الأربعين» وعلوم الفلسفة القديمة بكتاب (مقاصد الفلاسفة)

وكذلك (التهافت) يقول واصفاً التصوف والصوفية: (ثم إني لما فرغت من هذه العلوم أقبلت بهمتي على طريق الصوفية، وعلمت أن طريقهم إنما يتم بعلم وعمل، وكان حاصل علمهم قطع عقبات النفس والتنزُّه عن أخلاقها المذمومة وصفاتها الخبيثة حتى يتوصل بذلك إلى تخلية القلب من غير اللّه تعالى وتحليته بذكر اللّه وكان حينئذ العلم أيسر عليّ من العمل فابتدأت بتحصيل علمهم من مطالعة كتبهم مثل قوت القلوب لأبي طالب المكي رحمه اللّه وكتب الحارث المحاسبي والمتفرقات المأثورة عن الجنيد والشبلي وأبي يزيد البسطامي وغير ذلك من كلام مشايخهم حتى اطلعت على كنْهِ مقاصدهم العلمية، وحصلت على ما يمكن أن يحصل المرء من طريقتهم بالتعليم والسماع فظهر لي أن أخص خصائصهم لا يمكن الوصول إليه بمجرد العلم بل بالذوق والحال، وتبدل الصفات، فعلمت يقيناً أنهم أرباب أحوال لا أصحاب أقوال.

والقدر الذي أذكره لينتفع به هو أني علمت يقيناً أن الصوفية هم السالكون لطريق اللّه تعالى.

وأن سيرتهم أحسن السير وطريقهم أصوب الطرق وأخلاقهم أزكى الأخلاق بل لو جمع عقل العقلاء وحكمة الحكماء وعلم الواقفين على أسرار الشرع من العلماء ليغيروا شيئاً من سيرهم وأخلاقهم ويبدلوه بما هو خير منه لم يجدوا إلى ذلك سبيلا وإن جميع حركاتهم وسكناتهم في ظاهرهم وباطنهم مقتبسة من نور مشكاة النبوة وليس وراء نور النبوة على وجه الأرض نور يستضاء به، فأيقنت أنهم الفرقة الناجية وماذا يقول القائلون في طريقة أول شروطها: تطهير القلب بالكلية عما سوى اللّه تعالى، وعمادها ومفتاحها الجاري منها مجرى الإحرام في الصلاة: استغراق القلب بالكلية بذكر اللّه، وآخرها: الفناء بالكلية في اللّه).

الباب الثاني

أنواع التصوف

٧- التصوف السُّنِّيُّ.

٨- التصوف البِدْعِيُّ.

٩- التصوف الفلسفيُّ.

الشطح

أنواع التصوف

- ظهر التصوف منذ نشأته إلى هذا الوقت في ثلاثة أشكال:

➢ **أولاً: التصوف السُّنِّيّ**: (وهو المعتبر والمعتمد عند أهل التصوف الحقيقيين).

- وهو ما اعتمد في طريقته وسلوكه على القرآن والسنة، وهذا ما سمي أيضاً بالتصوف السلفي أو التصوف الشرعي.

- وهو يدعو للتقيد بالشريعة السَّمْحة بعيداً عن الشطحات الكثيرة، وهذا هو التصوف الذي نتحدث عنه في كتابنا هذا، ونتمسك به وندعو إليه.

- وقد عبر عن هذا التصوف العارف بالله سهل التستري وهو من كبار علمائه بقوله: (أصول طريقتنا ستة: التمسك بكتاب الله، والاقتداء بسنة رسول الله، وأكل الحلال، وكفُّ الأذى، واجتناب الآثام، وأداء الحقوق) (دائرة معارف الشعب).

- التصوف السني يقوم على الاعتدال والوسطية والتوازن في كل شأن من شؤون الدين والدنيا محققاً قول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٧٧].

- وقوله تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١].

- وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾.

[الإسراء: ٣٠-٢٩]

إلى غير ذلك من الآيات التي تدعو إلى التوسط والاعتدال وعدم المغـــالاة أو الإفراط أو التفريط.

- ولقد أشار سماحة المربي الشيخ أحمد كفتارو رحمه الله إلى هـــذا النـــوع مـــن التصوف- وهو الذي اعتمده منهجاً في تربية تلامذته- حين قسم التصوف إلى قسمين:

التصوف القرآني، والتصوف الرهباني، وقال منتقداً التصوف الرهباني:

(إن التصوف الرهباني هو الذي حطم وجود العـــالم الإســـلامي الفكـــري والحضاري، وهو الذي أضعف المسلمين فكرياً وحضارياً).

ثم تحدث عن التصوف القرآني فقال: وأما التصوف القرآني فهو التـــصوف المعتمد بل النابع من تعاليم القرآن التي توجه إلى الفقه الباطني و التزكيـــة النفـــسية والتربية الأخلاقية ويعقب على ذلك بقوله: (دعونا من كلمة تـــصوف ولنعـــد إلى مصطلح القرآن: التزكية والتربية الروحية والتربية الحكيمة التي تعطي إسلام الحيـــاة المتكاملة فكراً وروحاً وخلقاً ومعاملة).

ثم أضاف قائلاً: (وأما التصوف القرآني بحقائقه الكلية وواقعه فينقسم أيضاً إلى قسمين: ١ - التصوف الخلقي. ٢ - التصوف التحققي.

• **فالتصوف الخلقي**: هو التصوف الذي يجب أن يتحلى به كـــل مـــسلم، ولا يستثنى منه أحد، وهو التربية الروحية القرآنية الخلقية بترويض الـــنفس لتمثـــل أخلاق القرآن كاملة.

• **والتصوف التحققي**: هو إدراك مقام الإحسان كما جاء في حديث رسول الله ﷺ عندما جاءه جبريل وقال: ما الإحسان؟ قال: (أن تعبد الله كأنما تراه، فإن لم تكن تراه فهو يراك).

والإحسان هو أعلى مراتب الإيمان بل هو اليقين الحقيقي وهو الإيمان الشهودي.

فعَنِ الْحَارِث بن مَالك الأَنْصَارِيِّ، أَنَّهُ مَرَّ برَسُول اللَّه ﷺ، فَقَالَ لَهُ: «كَيْفَ أَصْبَحْتَ يَا حَارِثُ؟» قَالَ: أَصْبَحْتُ مُؤْمناً حَقّاً، فَقَالَ: «انْظُرْ مَا تَقُولُ؟ فَإِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ حَقِيقَةً، فَمَا حَقِيقَةُ إِيمَانِكَ؟» فَقَالَ: قَدْ عَزَفَتْ نَفْسِي عَنِ الدُّنْيَا، وَأَسْهَرْتُ لِذَلِكَ لَيْلِي، وَاظمَأْتُ نَهَارِي، وَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى عَرْشِ رَبِّي بَارِزاً، وَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى أَهْلِ الْجَنَّة يَتَزَاوَرُونَ فِيهَا، وَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى أَهْلِ النَّارِ يَتَضَاغَوْنَ فِيهَا، فَقَالَ: «يَا حَارِثُ عَرَفْتَ فَالْزَمْ»، ثَلاثاً. (أخرجه الطبراني في الكبير)

(انظر التربية الروحية بين السلفيين والصوفيين ص٩٧، د. محمد شيخاني)

➢ ثانياً - التصوف البدعي:

(وهو المردود و المرفوض عند أهل التصوف الحقيقيين).

- وهو ما ابتدعه بعض من انتسب إلى التصوف، وأدخلوا فيه بدعاً كثيرة تنافي الشريعة وليس لها أصلٌ فيها، وقد جاء في كتاب الاعتصام: (البدعة عبارة عن طريقة في الدين مخترعة تضاهي الشريعة يقصد بالسلوك عليها المبالغة في التعبد لله تعالى) (الاعتصام، الشاطبي).

- وهذا مرفوض شرعاً ويرفضه أهل التصوف الحقيقيون، وقد ظهر من بعض الصحابة مثل هذا الأمر، فأظهر النبي ﷺ رفضه له وعدم موافقتهم يظهر ذلك واضحاً في الحديث الذي رواه أَنَسُ بْنُ مَالك ﷺ يَقُولُ: جَاءَ ثَلاَثَةُ رَهْط إِلَى بُيُوت أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ يَسْأَلُونَ عَنْ عِبَادَة النَّبِيِّ ﷺ فَلَمَّا أُخْبِرُوا كَأَنَّهُمْ تَقَالُّوهَا فَقَالُوا وَأَيْنَ نَحْنُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ قَدْ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِه وَمَا تَأَخَّرَ. قَالَ أَحَدُهُمْ: أَمَّا أَنَا فَإِنِّي أُصَلِّي اللَّيْلَ أَبَداً. وَقَالَ آخَرُ: أَنَا أَصُومُ الدَّهْرَ وَلاَ أُفْطِرُ. وَقَالَ آخَرُ: أَنَا أَعْتَزِلُ النِّسَاءَ فَلاَ أَتَزَوَّجُ أَبَداً، فَجَاءَ رَسُولُ اللَّه ﷺ فَقَالَ: «أَنْتُمُ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا أَمَا وَاللَّه إِنِّي لأَخْشَاكُمْ لِلَّه وَأَتْقَاكُمْ لَهُ، لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي» (أخرجه البخاري).

سؤال مهمّ يجب أن نفهم جوابه: ما البدعة وما حكمها؟

- قال الحافظ ابن حجر في شرح حديث البخاري: «وشر الأمور محدثاتها».

البدعة لغة: كل شيء أُحدث على غير مثال.

وقال أيضاً في شرح حديث: «نِعْمَتِ البدعة هذه».

البدعة أصلها ما أحدث على غير مثال سابق.

البدعة شرعاً: عرف الإمام النووي البدعة: (هي إحداث ما لم يكن في عهد رسول الله ﷺ). (تهذيب الأسماء واللغات)

هذا وقد قسم العلماء البدعة إلى قسمين اثنين: بدعة محمودة، وبدعة مذمومة.

فقد قال الشافعي رحمه الله تعالى: (البدعة بدعتان: بدعة محمودة، وبدعة مذمومة، فما وافق السنة فهو محمود، وما خالف السنة فهو مذموم).

(حلية الأولياء، أبو نعيم)

وأخرج البيهقي عن الإمام الشافعي في مناقبه: (المحدثات ضربان: ما أُحدث فيه مما يخالف كتاباً أو سنة أو أثراً أو إجماعاً فهذه البدعة الضلالة، وما أُحدث فيه من الخير لا يخالف شيئاً من ذلك فهو محدثة غير مذمومة) (ابن حجر: فتح الباري).

وقد تحدث العديد من العلماء في البدعة، وأوصلوها إلى خمسة أقسام:

- **واجبة:** مثل تعلم النحو، ونظم أدلة المتكلمين للرد على الملاحدة والمبتدعين.
- **مندوبة:** مثل الأذان على المنائر، وتصنيف كتب العلم وبناء المدارس وغير ذلك.
- **مباحة:** مثل استعمال المنخل، والتوسع في المآكل والمشرب...
- **مكروهة:** مثل تزيين المصاحف وزخرفة المساجد...
- **محرمة:** وهي ما أحدث مخالفاً السنة، ولم تشمله أدلة الشرع العامة، ولم يحتوِ على مصلحة شرعية.

- ومما يوضح فهم هذا الموضوع حديث النبي ﷺ الذي قال فيه: «مَنْ سَنَّ فِي الإِسْلاَمِ سُنَّةً حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أُجُورِهِمْ

شَيْءٌ وَمَنْ سَنَّ فِي الإِسْلاَمِ سُنَّةً سَيِّئَةً كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ» (أخرجه مسلم عن جرير بن عبد الله).

- هذا وقد سنّ بعض الصحابة أموراً في العبادات في عهد النبي ﷺ فوافقهم عليها وأقرّها، وأُخذ بها على أنها سنة حسنة، والأمثلة في ذلك كثيرة أذكر منها مثالاً واحداً على سبيل الذكر لا الحصر: عَنْ رِفَاعَةَ بْنِ رَافِعٍ الزُّرَقِيِّ قَالَ كُنَّا يَوْماً نُصَلِّي وَرَاءَ النَّبِيِّ ﷺ فَلَمَّا رَفَعَ رَأْسَهُ مِنَ الرَّكْعَةِ قَالَ: «سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ». قَالَ رَجُلٌ وَرَاءَهُ رَبَّنَا وَلَكَ الْحَمْدُ، حَمْداً كَثِيراً طَيِّباً مُبَارَكاً فيه، فَلَمَّا انْصَرَفَ قَالَ: «مَنِ الْمُتَكَلِّمُ». قَالَ أَنَا. قَالَ: «رَأَيْتُ بِضْعَةً وَثَلاَثِينَ مَلَكاً يَبْتَدِرُونَهَا، أَيُّهُمْ يَكْتُبُهَا أَوَّلُ» (أخرجه البخاري).

قال الحافظ ابن حجر وهو يشرح الحديث في فتح الباري: (يستدل به على جواز إحداث ذكر في الصلاة غير مأثور إذا كان غير مخالف للمأثور، وعلى جواز رفع الصوت بالذكر ما لم يشوش).

- ومن هذا القبيل أيضاً ما سنه الصحابة الكرام بعد النبي ﷺ واجتهدوا به ووافقهم عليه جموع الصحابة وهو أمور كثيرة أذكر منها ثلاثة للتبيان لا للحصر:

١) قتال أبي بكر ﷺ لمانعي الزكاة واستباحة دمائهم حتى يذعنوا لهذا الركن حتى قال قولته المشهورة: (والله لو منعوني عقالا كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعه).

فقال عمر: (فو الله ما هو إلا أن رأيت الله قد شرح صدر أبي بكر للقتال فعرفت أنه الحق) (أخرجه البخاري).

٢) جمع القرآن في كتاب واحد على عهد سيدنا أبي بكر ﷺ وقد توقف فيه زيد ابن ثابت وقال لأبي بكر وعمر رضي الله عنهما كيف تفعلان ما لم يفعله النبي ﷺ ثم علم أنه مصلحة، فوافق على جمعه.

وقد ذكر الشاطبي أن هذا العمل واجب وسماه مصلحة وأبى أن يسميه بدعة.

٣) جمع سيدنا عمر ﷺ المسلمين في صلاة التراويح في رمضان على قارئ واحد:

فعن عبد الرحمن بن عبد القاري أنه قال: خرجت مع عمر بن الخطاب ﷺ ليلة في رمضان إلى المسجد فإذا الناس أوزاع متفرقون يصلي الرجل لنفسه ويصلي الرجل فيصلي بصلاته الرهط فقال عمر: إني أرى لو جمعت هؤلاء على قارئ واحد لكان أمثل ثم عزم فجمعهم على أبي بن كعب ثم خرجت معه ليلة أخرى والناس يصلون بصلاة قارئهم قال: عمر نعم البدعة هذه. (أخرجه البخاري).

وعن أبي إسحاق الهمداني قال: خرج علي بن أبي طالب في أول ليلة من رمضان والقناديل تزهر وكتاب الله يتلى في المساجد فقال نور الله لك يا ابن الخطاب في قبرك كما نورت مساجد الله بالقرآن. (كنز العمال)

مما سبق يجب أن نفهم جيداً معنى البدعة، وأن البدعة بدعتان بدعة محمودة وبدعة مردودة، والبدع المردودة هي الضلالة فقط.

- وهذا ما أكد عليه الإمام الشافعي في قوله: (ما أُحدث وخالف كتاباً أو سنة أو إجماعاً أو أثراً فهو البدعة الضالة، وما أحدث من الخير، ولم يخالف شيئاً من ذلك فهو المحمود). (أخرجه البيهقي في مناقبه).

- وعلينا أن نعي **القاعدة الأصولية المشهورة** بين أهل العلم: (ترك النبي ﷺ لشيء لا يدل على حرمته، ما لم يأتِ حديث أو أثر بالنهي عن الشيء المتروك بمقتضى تحريمه أو كراهيته).

(انظر د. محمد سليمان الأشقر: أفعال الرسول ﷺ ودلالتها على الأحكام التشريعية).

- كل ذلك يجعلنا ألا نحكم على أمر نراه من أهل التصوف في طرقهم أنه بدعة، وأنها ضلالة، وهي في النار إلا إن تأكدنا بأنها مخالفة للقرآن والسنة وإجماع الصحابة، وليس لها دليل في هذه الأصول.

- ومن هذا القبيل فإن ذكر الناسِ الله ﷻ فُرادى أو جماعات، جهراً أو سراً بالصيغ المشروعة، من البدع الحسنة التي لها أدلتها من الشرع، وكذلك القيام لأهل العلم والفضل، وتقبيل يد العلماء والأفاضل، واستعمال السُّبحة (المِسبحة) في الذكر، والاحتفالات بمولد النبي ﷺ كلها لها أصلٌ في الشرع أيضاً.

(راجع كتاب المؤلف: د. محمد خير فاطمة اتباع لا ابتداع.
وكتابه المولد النبوي الشريف اتباع لا ابتداع).

- أما ما نراه من مظاهر الاختلاط بين الذكور والإناث في حفلات الذكر والموالد، واستعمال الآلات الموسيقية المتعددة - غير الدف- والأناشيد التي تتعدى ذكر الله ﷻ ومناجاته ودعاءه، والحديث عن النبي ﷺ وأخلاقه وصفاته وحبه، وحركات الرقص والتفنن بها أثناء ذلك، فكل ذلك وما شابهه بدعة مردودة مذمومة ضالة.

- **وأخيراً:** أقول لقد أسهبت في الحديث عن البدعة، وما يتعلق بها لأوضح للقارئ أن عليه أن يميز عندما يرى أي بدعة تظهر من أهل التصوف هل هي بدعة حسنة، أم بدعة سيئة قبل أن يحكم عليها بالضلالة والنار، أو يتأثر بأقوال الجهلة أو المغرضين.

- فإن خالفت الشرع فإن كل مؤمن صادق الإيمان يرفضها ويأباها، ولا يمكن له أن يمارسها أو يتغاضى عنها أو يقبلها، وأن يعلم أن أهل التصوف الحقيقيين لا يرضون عنها ولا يوافقون عليها، ولا يمكن أن تصدر منهم.

- وما ظهر من بدع من بعض المتصوفة، فإنما ظهر من المريدين المتأخرين منهم الذين لم يتقيدوا بشيوخهم الحقيقيين من أهل التصوف والطرق الصوفية المؤصلة، وهذا يدعو أن لا ينكر التصوف وأهله جملة وتفصيلاً، وإنما تنكر أعمال هؤلاء المبتدعين الجهلة.

- وإن وجد للبدعة أصلٌ في الدين فإنها تعدّ بدعة حسنة لا يُعارَض أهلها ويُتركون وشأنهم.

➢ ثالثاً - التصوف الفلسفي:

(وهو مرفوض ومردود عند أهل التصوف الحقيقيين بل هو انحراف وضلالة وبعد عن العقيدة الصحيحة).

- وهو التصوف الذي تأثر بالفلسفات القديمة من يونانية أو رومانية أو فارسية أو هندية أو غيرها، وظهر على دعاتها انحراف في العقيدة أو التعاليم الإسلامية، وأهم هذه الانحرافات أقوالهم في وحدة الوجود والحلول والاتحاد، فهم يتصورون في وحدة الوجود إتحاد الحق بالخلق، وأن لا شيء في هذا الوجود إلا الحق، وأن الكل هو وأنه هو الكل، وأنه عين الأشياء، ففي كل شيء له آية تدل على أنه عينه، وهذا لا شك فيه كفرٌ وزندقة وهو أشد ضلالة من أباطيل اليهود والنصارى وعبدة الأوثان.

- والإيمان الحقيقي عند كل مسلم هو اعتقاده: (أن وجود الله ﷻ ذاتي، أي لا تأثير لغيره به، إذ أن الله تعالى هو الأول فليس قبله شيء).

- قال ﷺ: «كَانَ اللَّهُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ غَيْرُهُ».

(أخرجه البخاري عن عمران بن حصين)

- أما وجود الموجودات فهو حاصل من إيجاد الله ﷻ لها، ومستمر بإمداد الله تعالى لها بالوجود، ولو انقطع الإمداد لعادت عدماً.

- وعليه فمن نظر إلى الموجد الممدِّ سبحانه وتعالى رآه هو الموجود حقيقة، ومن لاحظ الإمداد رأى الأشياء عدماً لولاه سبحانه، فوجودها ليس ذاتياً كوجود الله ﷻ، ولذلك قالوا: الوجود الحقيقي واحد وهو الله سبحانه وتعالى، ووجود غيره لا يشابه وجوده.

- عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «أَصْدَقُ كَلِمَةٍ قَالَهَا الشَّاعِرُ كَلِمَةُ لَبِيدٍ أَلاَ كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلاَ اللَّهَ بَاطِلٌ». (أخرجه البخاري)

- وأما القائلون بالحلول والاتحاد فهم يعتقدون أن الله سبحانه وتعالى قد حل في جميع أجزاء الكون في البحار والجبال والصخور والأشجار والإنسان والحيوان... الخ أو بمعنى أن المخلوق عين الخالق فكل الموجودات المحسوسة والمشاهدة في هذا الكون هي ذات الله تعالى وعينه، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، ولا شك أن هذا القول كفر صريح يخالف عقيدة الإسلام وشرعه.

- ينبغي للمسلم أن يعلم أن هذه الأفكار مرفوضة من وجهة النظر الإسلامية، ولا يمكن لأي مسلم قبولها لتصادمها مع مبدأ تنزيه الباري فهو الخالق لجميع المخلوقات، والمبدع لها من العدم.

- وعليه أن يعلم أن هذه الأفكار إن ثبتت على مدعيها و لم تكن مدسوسة عليهم لا يمكن قبولها على أنها من التصوف، فالتصوف بريء منها، ولا علاقة له بها لأنها تتصادم مع اعتقاد المسلم الذي جاءت به الشريعة الإسلامية.

- ولقد نُسِبَ إلى كثير من علماء التصوف الحقيقيين مثل هذه الأقوال وهم منها براء فهي مدسوسة عليهم من أعدائهم أو أن كلامهم لم يقصدوا به ما فهمه أعداؤهم، وكثير منهم دافع عن نفسه بالحقيقة وأظهر اعتقاده الحق، فقد قال الشيخ محيي الدين بن عربي: (تعالى الحق أن تحله الحوادث أو يحلها. وقال في عقيدته الوسطى أعلم أن الله تعالى واحد بالإجماع ومقام الواحد يتعالى أن يحل فيه شيء أو يحل هو في شيء أو يتحد في شيء). (الفتوحات المكية في العقيدة الصغرى، محيي الدين بن عربي)

- وقال في باب الأسرار: (لا يجوز لعارف أن يقول: أنا الله ولو بلغ أقصى درجات القرب وحاشا العارف من هذا القول حاشاه إنما يقول: أنا العبد الذليل في المسير والمقيل). (المصدر السابق)

- ثم قال: (من قال بالحلول فهو معلول فإن القول بالحلول مرض لا يزول، وما قال بالاتحاد إلا أهل الإلحاد، كما أن القائل بالحلول من أهل الجهل والفضول). (المصدر نفسه)

- وأما قول أبي يزيد البسطامي رحمه الله: (سبحاني ما أعظم شاني) فهو في معرض الحكاية عن الله، وليس عن نفسه، وكذلك قول من قال: (أنا الحق) محمول على الحكاية أيضاً، ولا يظن بهؤلاء العارفين الحلول والاتحاد، كذلك غير مظنون بعاقل فضلاً عن المتميزين بخصوص المكاشفات واليقين والمشاهدات.

- في هذا الموضوع لابد أن نشير إلى موضوع جانبي يتعلق به، ويتحدث به أهل التصوف، وهو موضوع (الشطح).

□ **الشطح:**

الشطح في اللغة: هو الحركة، يقال: شَطَحَ يَشْطَحُ إذا تحرك.

- ألا ترى أن الماء الكثير إذا جرى في نهر ضيق ففاض من حافتيه، يقال: شطح الماء في النهر.

- الشطح عند أهل التصوف: عبارة عن كلمات تصدر من بعض الصوفية بعبارات مستغربة في وصف وجدٍ (شعور نفسي) فاض بقوته وهاج بشدة غليانه ووهجه في حالة الغيبوبة وغلبة شهود الله تعالى عليهم بحيث لا يشعرون حينئذ بغير الحق، وهذه الكلمات لو صدرت عنه وعقله معه لأنكرها، وهذه الحالة غير محمودة عند الصوفيين.

- ومن الذين ذكر عنهم الشطحات أبو يزيد البسطامي والحلاج ومحيي الدين ابن عربي.

- ومع أن هؤلاء الرجال من المتصوفة قد أنكروا ما نسب إليهم في هذا الموضوع.

أو أنهم فسروا شطحاتهم بما يدفع التهم عنهم، (فقد نقل عن بن عربي أنه قال:

يا من يراني ولا أراه كم ذا أراه ولا يراني

فلما سمع بعض أصحابه هذا البيت قال له: كيف تراه ولا يراك، فأجاب مرتجلاً في لباقة عجيبة:

يـــا مـــن يـــراني مجرمـــاً ولا أراه آخـــــــــــذاً
كـــــم ذا أراه منعمـــــاً ولا يـــــراني لائـــــذاً).

لائذاً هنا: بمعنى مراوغاً ومنكراً، أي: يستر عليَّ تقصيري ونقصي ويسامحني.

(انظر موسوعة التراث الإنسانية، إصدار وزارة الثقافة المصرية، جزء١ ص١٥٦)

- لكن بعض المعاصرين لهم والمنكرين قد اتهموهم بالزندقة والكفر، وقـاموا بتجييش العلماء والحكام عليهم مما أدى إلى قتل بعضهم على أقوالهم تلك.

- ولكن المنصفين والمحبين لهم عللوا أقوالهم وفـسروها بمـا يبعـد الزندقـة والكفر عنهم.

- فمنهم من عدَّ أن هذه الشطحات قد دست عليهم من أجل الإيقاع بهـم، فلا يمكن لهؤلاء الرجال أصحاب الإيمان والتقوى والعلم والزهد أن يقع منهم مثل هذه الكلمات.

- ومنهم من قال: إن الشطحات يعفى عنها لأهـل الأحـوال والمواجيـد الصحيحة كما حصل مع الرجل الذي أضل راحلته في الصحراء وعليهـا طعامـه وشرابه ومتاعه، وعندما وجدها أصابه حال سرور، فأخطأ من شدة فرحه.

فعن أَنَسِ بْنِ مَالِك قَالَ، قَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ: «لَلَّهُ أَشَدُّ فَرَحاً بتَوْبَة عَبْده حينَ يَتُوبُ إِلَيْه منْ أَحَدكُمْ كَانَ عَلَى رَاحلَته بأَرْض فَلاَة فَانْفَلَتَتْ منْهُ وَعَلَيْهَـا طَعَامُـهُ وَشَرَابُهُ فَأَيسَ منْهَا فَأَتَى شَجَرَةً فَاضْطَجَعَ في ظلِّهَا قَدْ أَيسَ منْ رَاحلَته فَبَيْنَـا هُـوَ كَذَلكَ إِذَا هُوَ بهَا قَائمَةً عنْدَهُ فَأَخَذَ بخطَامهَا ثُمَّ قَالَ: منْ شدَّة الْفَرَح اللَّهُمَّ أَنْـتَ عَبْدي وَأَنَا رَبُّكَ. أَخْطَأَ منْ شدَّة الْفَرَح» (أخرجه مسلم).

- وفي الإجمال: فإن أهل التصوف الحقيقيين من العلماء العـاملين، والمـربين المرشدين، وأهل الله الصادقين، ينبهون بل ويشددون على أن العالم يجب ألا يظهر منه أي كلام أو ألفاظ تخالف الشريعة، ولو لم يقصد ذلك، بل عليـه أن يكـون

كلامه وجميع ألفاظه مقيدة بالشريعة، ولا حاجة لكلام وألفاظ تحتمل أكثر من معنى، أو له مفهوم ومقصود غامض لا يفهمه كل الناس، ويحتاج إلى تأويل وتفسير وتوضيح، وذلك حتى لا يخوض الناس في مثل هذا الموضوع من جهة، وحتى لا ندع المجال لأعداء التصوف للطعن ومحاربة هذا الطريق المرشد إلى الله ﷻ وإلى اتباع القرآن والسنة المطهرة من أجل تعميق الإيمان، وتزكية النفس، وتطهير الروح، وطمأنينة القلب، وانشراح الصدر، والذي نحن في أشد الحاجة إليه في هذا الزمان العصيب.

الباب الثالث

السلوك في طريق التصوف

١- البحث عن العالم المربي، والمرشد المزكي والانتساب إليه ومصاحبته والالتزام بإرشاداته و توجيهاته.

٢- مصاحبة عباد الله الصالحين وأوليائه المقربين.

٣- أداء الفرائض بكمالها والتقرب إلى الله بنوافلها.

٤- الإكثار من ذكر الله في كل الأحوال مع الصلاة على النبي ﷺ.

٥- السعي على سلامة القلب وصلاحه.

٦- التزام المقامات والأحوال التي تُبَلِّغُهُ الطريق وتدله عليه.

السلوك في طريق التصوف

- يقول الإمام القشيري تحت عنوان الشريعة والحقيقة: (الشريعة أمر بالتزام العبودية، والحقيقة مشاهدة الربوبية (أي رؤيتها بالقلب)، وكل شريعة غير مؤيدة بالحقيقة فأمرها غير مقبول، وكل حقيقة غير مقيدة بالشريعة فأمرها غير محصول.

والشريعة جاءت بتكليف من الخالق، والحقيقة أنباء عن تصريف الحق، فالشريعة أن تعبده، والحقيقة أن تشهده، والشريعة قيام بما أمر، والحقيقة شهود لما قضى وقدر، وأخفى وأظهر.

سمعت أبا علي الدقاق رحمه الله (صوفي، فقيه، أصولي) يقول: (إياك نعبد) حفظ للشريعة، و(إياك نستعين) إقرار بالحقيقة.

واعلم أن الشريعة حقيقة من حيث إنها وجبت بأمره، والحقيقة أيضاً شريعة من حيث إنّ المعارف به سبحانه أيضاً وجبت بأمره). (الرسالة، القشيري)

- فبعد الأبحاث النظرية عن علم التصوف وما يتعلق به، كان لابد من دراسة حقائق التصوف؟ وكيف يمكن سلوك طريقه؟ وهذا أهم شيء يجب أن يبحث عنه من أراد التعرف حقاً على طريق أهل التصوف الذين هم أهل الله ﷻ وخاصته، وأهل الصفاء والنقاء، وأهل الولاية والعرفان، وأهل التقى والنقاء، أحباب الله والدعاة إليه، وأهل الإخلاص والصدق مع الله، وأهل القرب والاستقامة.

فمن أراد أن يسلك مسلكهم، وأن يتتبع خطاهم وجب عليه أن يسعى للسير في خمسة مطالب:

المطلب الأول: البحث عن العالم المربي، والمرشد المزكي والانتساب إليه ومصاحبته والالتزام بإرشاداته وتوجيهاته.

المطلب الثاني: مصاحبة عباد الله الصالحين وأوليائه المقربين.

المطلب الثالث: أداء الفرائض بكمالها و التقرب إلى الله بنوافلها.

المطلب الرابع: الإكثار من ذكر الله في كل أحواله مع الصلاة على النبي ﷺ.

المطلب الخامس: السعي إلى سلامة القلب وصلاحه.

المطلب السادس: التزام المقامات والأحوال التي تُبَلِّغه الطريق وتدله عليه.

المطلب الأول: البحث عن العالم المربي، والمرشد المزكي والانتساب إليه ومصاحبته والالتزام بإرشاداته وتوجيهاته.

- إن أول طريق التصوف لمن أراد أن يسلكه أن يبحث عن شيخ مربٍ يلتزمه حتى يشرف على تربيته، ويوجهه إلى الطريق المستقيم، وهذا لابد منه لكل سالك أي طريق في هذه الحياة، فمن أراد أن يكون نجاراً لابد أن يكون له معلم، وكذلك مَنْ أراد أن يكون حداداً أو طالباً أي صنعة أخرى فلابد أن يكون له معلم وكذلك من أراد أن يتعلم أي علم فلابدّ أن يكون له معلم، فمن أراد أن يتقن علم الطب أو الهندسة أو غير ذلك فلابدّ من معلم وأستاذ يتقن هذا العلم أو ذاك، وكل مطلب في هذه الحياة لابد لمن أراد أن يسلك مسلكه ممن يدله على الطريق ويرشده إلى الصواب، وهذا أمر بديهي، فكيف بمن أراد أن يسلك طريق الله ﷻ طريق الصلاح والفلاح، طريق الحياة والنجاح، وهو أعظم طريق وأشرفه، فلابد لسالكه من مرشد ومربٍ وعارف بالله يدله على الطريق، ويساعده على سلوكه، يشير سبحانه وتعالى إلى ذلك بقوله: ﴿رَبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ﴾ [آل عمران: ١٩٣].

هذه الآية تشير إلى أن الإيمان لابد له ممن يدعو إليه حتى يؤمن الناس، أي لابد من مربٍ ومرشد ومعلم يوضح للناس الطريق نحو الإيمان بالله ويعلمهم كل ما يتعلق بهذا الطريق حتى يبلغوا حقيقة هذا الطريق علماً وفهماً وتطبيقاً وسلوكاً.

- ولهذا اختار الله ﷻ النبي محمداً ﷺ ليكون نبي هذه الأمة فوجهه وعلمه وأدبه بواسطة الوحي عن طريق جبريل.

- ولقد كان النبي ﷺ المرشد والمربي والموجه للصحابة الكرام.

- وكذلك كان كل صحابي أستاذاً ومربياً للتابعين، وكان التابعون أساتذة لمن تبعهم وهكذا انتقلت العلوم إلينا بفضل العلماء، الذين حملوه إلينا، قال رسول الله ﷺ:

«وَإِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ وَإِنَّ الأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَاراً وَلاَ دِرْهَماً وَرَّثُوا الْعِلْمَ فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ». (أخرجه أبو داود في سننه عن أبي الدرداء ﷺ)

- وهذه سنة من سنن الله في خلقه، فقد قال تعالى:

﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرعد: ٧].

فدلت هذه الآية على أن قضية المعلم الهادي والدليل المرشد ضرورية لزومية طبعاً وشرعاً، ومن هنا أرسل الله الرسل مبشرين ومنذرين وهادين ومعلمين ومرشدين، ومن هنا جاء أمر الله باتخاذ القدوة الصالحة فقال سبحانه: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١].

- فكان النبي ﷺ المربي الأول للمؤمنين كلفه الله ﷻ بهذه المهمة فقال سبحانه: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾. [آل عمران: ١٦٤]

- وعندما ذكر الله أنماطاً من أهل القدوة الصالحة الداعية إليه تعالى، قال لرسوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠]

- من هنا نرى أن اتخاذ الشيخ العالم المربي واجب لأنّ ما لا يتم الواجب إلا به، فهو واجب وهو ثابتٌ كما رأيت عقلاً وطبعاً وشرعاً مؤيّدٌ بالواقع العلمي والعملي والتاريخي، وقد أشار الله سبحانه وتعالى إلى أهمية القدوة والمرشد بآيات كثيرة منها قوله تعالى: ﴿فَاسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٧]

- وقوله ﷻ: ﴿وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [لقمان: ١٥].

- وقوله سبحانه وتعالى: ﴿الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٩].

- إن المناهج التربوية جميعاً، وفي كل مجالات التربية والتعليم تحتم وجود معلم ومتعلم فكيف بمن أراد أن يسلك طريق معرفة الله تعالى والوصول إليه، وهو غاية وجود الإنسان في هذه الدنيا التي حدّدها الله سبحانه وتعالى بقوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

قال مجاهد ﷺ: إلا ليعرفوني. (تفسير القرطبي).

- ومعرفة أي شيء لابد لها من معرِّفٍ، فكيف بمعرفة الله ﷻ.

- قال الشيخ أبو حامد الغزالي: (يحتاج المريد إلى شيخ وأستاذ يقتدي به لا محالة ليهديه سواء السبيل، فإن سبيل الدين غامض، وسبل الشيطان كثيرة ظاهرة، فمن لم يكن له شيخ يهديه قاده الشيطان إلى طرقه لا محالة، فمن سَلك سُلك البوادي المهلكة بغير خفير فقد خاطر بنفسه وأهلكها، ويكون المستقل بنفسه كالشجرة التي تنبت بنفسها، فإنها تجف على القرب، وإن بقيت مدة وأورقت لم تثمر، فمعتصم المريد شيخه فليتمسك به) (إحياء علوم الدين، الغزالي).

- وقال أيضاً مؤكداً على اتباع المرشد: (فما يجب في حق سالك طريق الحق أن يكون له مرشد ومربٍ ليدله على الطريق، ويرفع عنه الأخلاق المذمومة، ويضع مكانها الأخلاق المحمودة، ومعنى التربية أن يكون المربي كالزارع الذي يربي الزرع، فكلما رأى حجراً أو نباتاً مضراً بالزرع قلعه وطرحه خارجاً، ويسقي الزرع مراراً إلى أن ينمو ويكبر، ليكون أحسن من غيره، وإذا علمت أن الزرع محتاج للمربي علمت أنه لابد للسالك من مرشد ألبتة لأن الله تعالى أرسل الرسل عليهم الصلاة والسلام للخلق ليكونوا أدلاء لهم ويرشدوهم إلى الطريق المستقيم، وقبل انتقال المصطفى عليه الصلاة والسلام إلى الدار الآخرة قد جعل الخلفاء الراشدين نواباً عنه ليدلوا الخلق إلى طريق الله، وهكذا إلى يوم القيامة، فالسالك لا يستغني عن المرشد ألبتة).

(خلاصة التصانيف في التصوف، أبو حامد الغزالي ص١٨)

- وقال الإمام ابن عطاء الله السكندري: (وينبغي لمن عزم على الاسترشاد وسلوك طريق الرشاد أن يبحث عن شيخ من أهل التحقيق سالكاً للطريق، تاركاً لهواه، راسخ القدم في خدمة مولاه، فإذا وجده فليمتثل ما أمر، ولينتهِ عما نهى عنه وزجر).

(مفتاح الفلاح في ذكر الكريم الفتاح، تاج الدين بن عطاء الله السكندري ص٣٠)

- فلابد إذا للمسلم الذي يريد أن يسلك طريق التصوف، طريق معرفة الله ﷻ من أن يبحث عن هذا العالم الذي من أهم شروطه أن يكون عالماً بكتاب الله وسنة رسوله وبعلوم الشريعة وآدابها، وعلوم السلوك ومدارجه، وينبغي أن يكون موصوفاً بصفات أهل العلم الصادقين والمُخلِصين والمخلَصين، والأتقياء الورعين، والأولياء المقربين.

- وقد تحدث الشيخ الأكبر بن عربي قدس الله سره عن هؤلاء المربين فقال:

(الشيوخ نواب الحق في العالم كالرسل عليهم الصلاة والسلام بزمانهم، بل هم الورثة الذين ورثوا علم الشرائع عن الأنبياء عليهم السلام غير أنهم لا يشرعون فلهم رضي الله عنهم حفظ الشريعة في العموم وليس لهم التشريع، ولهم حفظ القلوب، ومراعاة الآداب في الخصوص، وهم من العلماء بالله بمنزلة الطبيب).

والشيوخ هم العارفون بالكتاب والسنة، قائلون بها في ظواهرهم، متحققون بها في سرائرهم، راعون حدود الله تعالى، ويوفون بعهد الله ﷻ، قائمون بمراسم الشريعة لا يتأولون في الورع، آخذون بالاحتياط، مجانبون لأهل التخليط، مشفقون على الأمة، لا يمقتون أحداً من العصاة، يحبون ما أحب الله، ويبغضون ما أبغض الله، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر المجمع عليه، يسارعون في الخيرات، ويعفون عن الناس، ويوقرون الكبير، ويرحمون الصغير، يميطون الأذى عن الطريق، طريق الله وطريق الناس، يؤدون حقوق الناس يبرون عباد الله، هينون لينون، رحماء بين خلق الله). (حقيقة الصوفية، أبو سعيد التونسي ص٢٩)

- وقد يسأل سائل كيف الوصول إلى هذا العارف بالله والهادي إليه؟ وكيف الاهتداء إليه والوصول إلى معرفته؟ وما هي شروطه وأوصافه؟

- إن أفضل من أجاب على هذا السؤال فضيلة الشيخ عبد القادر عيسى رحمه الله فقال: (عبد القادر عيسى: حقائق عن التصوف ص٦٨)

حين يشعر الطالب بحاجته إليه كشعور المريض بحاجته إلى الطبيب، عليه أن يصدق العزم، ويصحح النية، ويتجه إلى الله تعالى بقلب ضارع منكسر، يناديه في جوف الليل، ويدعوه في سجوده وأعقاب صلاته: اللهم دلني على من يدلني عليك، وأوصلني إلى من يوصلني إليك.

- وعليه أن يبحث في بلده، ويفتش ويسأل عن المرشد بدقة وانتباه غير ملتفت لما يشيعه بعضهم من فقد المرشد المربي في هذا الزمان.

- فإذا لم يجد أحداً في مدينته فليبحث عنه في مدن أخرى، ألا ترى المريض يسافر إلى بلدة ثانية للتداوي إذا لم يجد الطبيب المختص، أو حين يعجز أطباء مدينته عن تشخيص دائه، ومعرفة دوائه.

- ومداواة الأرواح تحتاج إلى أطباء أمهر من أطباء الأجسام.

وللمرشد شروط لابد منها حتى يتأهل لإرشاد الناس وهي أربعة:

١- أن يكون عالماً بالفرائض العينية ملتزماً بها الالتزام التام ومستقيماً عليها.

٢- أن يكون عارفاً بالله تعالى.

٣- أن يكون خبيراً بطرائق تزكية النفوس، ووسائل تربيتها.

٤- أن يكون مأذوناً بالإرشاد من شيخه.

١- أما الشرط الأول فينبغي أن يكون المرشد عالماً بالفرائض العينية: كأحكام الصلاة والصوم والزكاة، وأحكام المعاملات والبيوع...الخ، وأن يكون عالماً

بعقيدة أهل السنة والجماعة بالتوحيد مطبقا لمحتواها كامل التطبيق وملتزماً بهـا التزاماً تاماً، ومستقيماً عليها استقامةً ظاهرةً واضحةً دائمة.

٢- **وأما الشرط الثاني فينبغي أن يتحقق المرشد بعقيدة أهل السنة عملاً وذوقاً بعد أن عرفها علماً ودراية**، فيشهد في قلبه وروحه صحتها، ويشهد أن الله تعالى واحدٌ في ذاته، واحدٌ في أفعاله، ويتعرف على أسماء الله تعالى ذوقاً وشهوداً.

٣- **وأما الشرط الثالث فلابد أن يكون قد زكى نفسه على يد مربٍ ومرشد** فخبَرَ مراتب النفس وأمراضها ووساوسها، وعرف أساليب الشيطان ومداخله وآفات كل مرحلة من مراحل السير، وطرائق معالجة كل ذلك بما يلائم حالة كل شخص وأوضاعه.

٤- **وأما الشرط الرابع فلابد للمرشد أن يكون قد أجيز من شيخه بهذه التربية وهذا السير**، فمن لم يشهد له الاختصاصيون بعلم يدعيه، لا يحق له أن يتصدر فيه.

- قال رسول الله ﷺ: (إِنَّ هَذَا الْعِلْمَ دِينٌ فَانْظُرُوا عَمَّنْ تَأْخُذُونَ دِينَكُمْ).

(أخرجه مسلم)

- وقد أوصى رسول الله ﷺ ابن عمر رضي الله عنهما بذلك فقال: «يا ابن عمر لا يغرنَّك ما سبق لأبويك من قبلي فإن العبد لو جاء يوم القيامة بالحسنات كأمثال الجبال الرواسي ظن أنه لا ينجو من أهوال ذلك اليوم يا ابن عمر دينك دينك إنما هو لحمك ودمك فانظر عمن تأخذ خذ عن الذين استقاموا ولا تأخذ عن الذين مالوا». (أخرجه ابن عدي)

- ثم اعلم أن من علامات المرشد أموراً يمكن ملاحظتها:

• **منها**: أنك إذا جالسته تشعر بنفحة إيمانية، ونشوة روحية، لا يتكلم إلا بالله، ولا ينطق إلا بخير، ولا يتحدث إلا بموعظة أو نصيحة، تستفيد من صحبته كما تستفيد من كلامه، تنتفع من قربه كما تنتفع من بعده، تستفيد من لحظه كما تستفيد من لفظه.

• **ومنها:** أن تلاحظ في إخوانه ومريديه صور الإيمان والإخلاص، والتقوى والتواضع، وتتذكر وأنت تخالطهم المثل العليا من الحب، والصدق والإيثار، والأخوّة الخالصة، وهكذا يعرف الطبيب الماهر بآثاره ونتائج جهوده، حيث ترى المرضى الذين شفوا بإذن الله على يديه، وتخرجوا من مصحه بأوفر قوة، وأتم عافية.

علماً أن كثرة المريدين والتلاميذ وقلتهم ليس مقياساً وحيداً، وإنما العبرة بصلاح هؤلاء المريدين وتقواهم، وتخلصهم من العيوب والأمراض واستقامتهم على شرع الله تعالى.

• **ومنها:** أنك ترى تلامذته يمثلون مختلف طبقات الأمة، وهكذا كان أصحاب رسول الله فالظفر به يدفع الطالب للتمسك به، والتزام مجالسه، والتأدب معه، والعمل بنصحه وإرشاده في سبيل الفوز بسعادة الدارين).

(حقائق عن التصوف، عبد القادر عيسى ص٦٨)

- وفي هذا الموضوع للنبي ﷺ توجيه عظيم، فقد سئل النبي ﷺ فقيلَ: يَا رَسُولَ اللَّه، أَيُّ جُلَسَائِنَا خَيْرٌ؟ قَالَ: «مَنْ ذَكَّرَكُمُ اللَّهَ رُؤْيَتُهُ، وَزَادَ فِي عِلْمِكُمْ مَنْطِقُهُ، وَذَكَّرَكُمْ بِالآخِرَةِ عَمَلُهُ».

(أخرجه أبو يعلى في مسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما)

المطلب الثاني: مصاحبة عباد الله الصالحين وأوليائه المقربين

- لابد لمن أراد أن يسلك طريق التصوف من الصحبة، والمقصود بالصحبة البحث عن الأصحاب الذين يسلكون هذا الطريق، ويسيرون مع المربي بصدق وإخلاص، ليصحبهم وينتفع بصحبتهم، فيتعلم منهم ما ينقصه من أمور الدين والدنيا، ويمارس معهم ما تعلمه، ويرى فيهم النموذج الحي لما يتعلمه، ينصحونه تارة، ويبادلونه عواطفه وحياته تارة أخرى، ويشاركونه في فرحه ومسراته، وفي آلامه وامتحاناته.

- وللصحبة أثر كبير في التربية والتزكية، لذلك أمر الله ﷻ المؤمنين بمصاحبة الصالحين.

- فقال سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾. [التوبة: ١١٩]

- بل أمر الله ﷻ أن يصبر المؤمن نفسه مع الأصحاب، وألا يبتعد عنهم أو يزهد فيهم، كما أمر سبحانه بالابتعاد عن أصحاب السوء: ﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴾ [الكهف: ٢٨]

- وبين الله ﷻ ما سيؤول إليه الأمر يوم القيامة لمن ابتعد عن صحبة الصالحين، وصاحب أهل السوء، فقال سبحانه: ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴾ [الفرقان: ٢٧-٢٩]

- وتحدث سبحانه عن نتائج الصحبة يوم القيامة فقال: ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [الزخرف: ٦٧].

كما لفت النبي ﷺ الأنظار إلى أثر الصاحب على صاحبه منبهاً إلى أهمية البحث عن الصاحب التقي فقد روى أبو هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: «الرَّجُلُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلُ». (أخرجه أبو داود والترمذي)

- وقد حذر النبي ﷺ من قرناء السوء فقال: «إياك وقرين السوء فإنك به تعرف». (أخرجه ابن عساكر عن أنس بن مالك)

- قال الإمام علي ﷺ يحث على مصاحبة التقي والابتعاد عن الدنيء:

(غذاء الألباب في شرح منظومة الآداب، السفاريني جزء٤، ص٦٥)

وصاحب تقياً عالماً تنتفع بـه ... فصحبة أهل الخير ترجى وتطلبُ
وإياك والفساق لا تصحبنهم ... فصحبتهم تعدي وذاك مجربُ

- وقال أيضاً كرم الله وجهه:

واحذر مُؤَاخاة الدنيء فإنه ... يعدي كما يعدي الصحيحَ الأجربُ
واختر صديقك واصطفيه تفاخرا ... إن القرين إلى المقارن ينسب

- وقال أيضاً كرم الله وجهه منبهاً من ضرر مصاحبة الجهال:

(العقد الفريد، ابن عبد ربه الأندلسي ص١٩٧)

فلا تصحب أخا الجهلِ ... وإياك وإياهُ
فكم من جاهل أردى ... حليماً حين آخاهُ
يقاس المرء بالمرءِ ... إذا ما المرء ماشاهُ
وللشيء من الشيء ... مقاييس وأشباه
وللقلب على القلب ... دليلٌ حين يلقاه

- وقال عدي بن زيد متحدثاً عن طريقة انتقاء الأصحاب:

(أدب الدنيا الدين، الماوردي ص٢٠٦)

إذا كنت في قوم فصاحب خيارهم ... ولا تصحب الأردى فتردى مع الردي
عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه ... فكل قرين بالمقارن يقتدي
فإن كان ذا شر فجانبه سرعة ... وإن كان ذا خير فقاربه تقتدي

- كما ميز النبي ﷺ بين الجليس الصالح والجليس السوء وأثر كل منهما فقال ﷺ: «إِنَّمَا مَثَلُ الْجَلِيسِ الصَّالِحِ وَالْجَلِيسِ السَّوْءِ كَحَامِلِ الْمِسْكِ وَنَافِخِ الْكِيرِ فَحَامِلُ الْمِسْكِ إِمَّا أَنْ يُحْذِيَكَ وَإِمَّا أَنْ تَبْتَاعَ مِنْهُ وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا طَيِّبَةً وَنَافِخُ الْكِيرِ إِمَّا أَنْ يُحْرِقَ ثِيَابَكَ وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ رِيحًا خَبِيثَةً». (مسلم في صحيحه عن أبي موسى ﷺ)

- وينبغي لسالك طريق الصوفية أن يحب أصحابه السالكين لهذا الطريق ففي محبتهم يجد حلاوة الإيمان، وقد روى أنس بن مالك ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: «ثَلاَثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلاَوَةَ الإِيمَانِ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لاَ يُحِبُّهُ إِلاَّ لِلَّهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ». (أخرجه البخاري)

- كما ينبغي لهذا المسلم أن يستقيم على صحبتهم وتفقد أحوالهم وزيارتهم وكل ذلك مدعاة لمحبة الله له، فقد روى أبو هريرة ﷺ عن النبي ﷺ: «أَنَّ رَجُلاً زَارَ أَخًا لَهُ فِي قَرْيَةٍ أُخْرَى فَأَرْصَدَ اللَّهُ لَهُ عَلَى مَدْرَجَتِهِ مَلَكًا فَلَمَّا أَتَى عَلَيْهِ قَالَ أَيْنَ تُرِيدُ قَالَ أُرِيدُ أَخًا لِي فِي هَذِهِ الْقَرْيَةِ. قَالَ هَلْ لَكَ عَلَيْهِ مِنْ نِعْمَةٍ تَرُبُّهَا قَالَ: لاَ غَيْرَ أَنِّي أَحْبَبْتُهُ فِي اللَّهِ ﷻ. قَالَ فَإِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكَ بِأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَبَّكَ كَمَا أَحْبَبْتَهُ فِيهِ».

(أخرجه مسلم)

- وعنه ﷺ قال، قال رسول الله ﷺ: «مَنْ عَادَ مَرِيضاً أَوْ زَارَ أَخًا لَهُ فِي اللَّهِ نَادَاهُ مُنَادٍ أَنْ طِبْتَ وَطَابَ مَمْشَاكَ وَتَبَوَّأْتَ مِنَ الْجَنَّةِ مَنْزِلاً». (أخرجه الترمذي)

- هذا وإن أثر الصحبة الصالحة لا ينتهي في الدنيا وإنما يمتد إلى الآخرة فالمتصاحبون في الله ﷻ في ظل الله يوم لا ظل إلا ظله.

- فقد روى أبو هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لاَ ظِلَّ إِلاَّ ظِلُّهُ» وذكر منهم «وَرَجُلاَنِ تَحَابَّا فِي اللَّهِ اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ».

(أخرجه البخاري)

- وعنه أيضاً قال، قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَيْنَ الْمُتَحَابُّونَ بِجَلاَلِي الْيَوْمَ أُظِلُّهُمْ فِي ظِلِّي يَوْمَ لاَ ظِلَّ إِلاَّ ظِلِّي». (أخرجه مسلم)

- وقد بين النبي ﷺ مكانة الصحبة الصادقة في الله ﷻ وهي مكانة يغبطهم عليها الأنبياء والشهداء يوم القيامة، فقد روى عمر بن الخطاب ﷺ أن النبي ﷺ

قال: «إِنَّ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ لأُنَاساً مَا هُمْ بِأَنْبِيَاءَ وَلاَ شُهَدَاءَ يَغْبِطُهُمُ الأَنْبِيَاءُ وَالشُّهَدَاءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِمَكَانِهِمْ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى» قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ تُخْبِرُنَا مَنْ هُمْ. قَالَ: «هُمْ قَوْمٌ تَحَابُّوا بِرُوحِ اللَّهِ عَلَى غَيْرِ أَرْحَامٍ بَيْنَهُمْ وَلاَ أَمْوَالٍ يَتَعَاطَوْنَهَا فَوَ اللَّهِ إِنَّ وُجُوهَهُمْ لَنُورٌ وَإِنَّهُمْ عَلَى نُورٍ لاَ يَخَافُونَ إِذَا خَافَ النَّاسُ وَلاَ يَحْزَنُونَ إِذَا حَزِنَ النَّاسُ». وَقَرَأَ هَذِهِ الآيَةَ: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢].

(أخرجه أبو داود في سننه)

- من كل ما مر معنا سابقاً نجد أنه لابد للمسلم الذي أراد أن يسلك طريق التصوف، طريق أهل الله ﷻ، من أن يبحث عن هؤلاء الأصحاب ويصاحبهم ويسير معهم في هذا الطريق، ليكونوا له عوناً على سلوكه بصدق وإخلاص واستقامة.

المطلب الثالث: أداء الفرائض بكمالها و التقرب إلى الله بنوافلها

- التقرب إلى الله بأداء الفرائض بكمالها والتقرب إلى الله بنوافلها هي من أهم واجبات السالك لطريق التصوف، طريق التزكية والإحسان، وذلك تحقيقاً لما روى أبو هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ قَالَ مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطُشُ بِهَا وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لأُعِيذَنَّهُ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ، يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ ». (أخرجه البخاري)

- في هذا الحديث عدة إشارات منها أن العبد إذا أدى الفرائض والنوافل بكمالها وتمامها أصبح موالياً لله وأصبح الله ولياً له يدافع عنه فإن عاداه أحد حاربه الله ومن حاربه الله قصمه.

- ومنها أن التقرب إلى الله ﷻ يكون على مقامين وكل مقام له منازل متفاوتة، ودرجات متعددة، فهناك مقام قرب الفرائض وهو المطلوب أولاً وهذا

القرب أحب شيء إلى الله ﷻ وذلك بأن يؤدي العبد جميع فرائض الله تعالى عليه وما أوجبه عليه كاملة من غير نقصٍ، ويدخل في ذلك ترك جميع المحرمات.

- وهناك مقام قرب النوافل التي تؤدي إلى حب الله لمن أداها فإذا أحبه الله ﷻ ألهمه الله ألا يسمع ولا يبصر إلا ما يحبه الله ولا يستعمل يده ولا رجله إلا في طاعة الله عند ذلك ينال الإجابة عند سؤال الله ودعائه وإن استعاذ الله مما يكره أعاذه وإن أراد شيئاً حقق طلبه وأمله.

- والفرائض كثيرةٌ ليست فقط الفرائض الخمس التي ذُكرت في حديث النبي ﷺ: «بُنِيَ الإِسْلاَمُ عَلَى خَمْسٍ شَهَادَةِ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللَّهِ، وَإِقَامِ الصَّلاَةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَالْحَجِّ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ».

(أخرجه البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما)

- فهذه الفرائض الخمس هي أهم الفروض الإسلامية وأوجبها وهي متعينة الأداء على كل مُكلف ويجب عند أدائها أن تؤدى بكمالها وأركانها وواجباتها وبخشوعها وما يرتبط بها من أمور متعددة كي يكون أداؤها كاملاً كما يحب الله ويرضى لذلك يجب تعلم فقهها بشكل كامل صحيح وأداؤها بشكل كامل تام، كما يجب الوصول بها إلى الغايات التي تتحقق بأدائها.

- وأول أركان الإسلام الشهادتان: (أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله) فالنطق بالشهادتين هو أول واجب على كل مسلم مكلف، وهذه الكلمة هي عنوان الإسلام المجيد، وهي بعينها نور الإيمان وآية التوحيد، ويجب أداؤها بإخلاصها، فقد روى زيد بن أرقم قال، قال رسول الله ﷺ: «من قال لا إله إلا الله مخلصا دخل الجنة» قيل: وما إخلاصها قال: «أن تحجزه عن محارم الله ﷻ».

(أخرجه الطبراني في الأوسط عن زيد بن الأرقم ﷺ)

- وقال رسول الله ﷺ: «وقول لا إله إلا الله لا يترك ذنبا، ولا يشبهها عمل.

(أخرجه الطبراني في الأوسط عن زيد بن الأرقم ﷺ)

- لذلك أمرنا النبي ﷺ أن نجدد إيماننا بالإكثار من ذكرها، فقال ﷺ: «جَدِّدُوا إِيْمَانَكُمْ». قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَكَيْفَ نُجَدِّدُ إِيمَانَنَا قَالَ: «أَكْثِرُوا مِنْ قَوْلِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ». (أخرجه أحمد عن أبي هريرة ﷺ)

- ولا يدخل الجنة إلا من ملك المفتاح وقد بين النبي ﷺ حقيقة هذا المفتاح فقال: «مِفْتَاحُ الْجَنَّةِ شَهَادَةُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ». (أخرجه أحمد عن معاذ ﷺ)

- وقيل لوهب بن منبه (يعد في التابعين، كثير الأخبار عن الكتب القديمة): (أليس لا إله إلا الله مفتاح الجنة؟ قال: بلى ولكن ليس مفتاح إلا لـه أسنان "أي وأسنان هذا المفتاح فعل ما أمر الله تعالى به وترك ما نهى الله عنه" فإن جئت بمفتاح له أسنان فتح لك وإلا لم يفتح لك). (جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي)

والركن الثاني للإسلام هي فريضة الصلاة التي يجب أن تؤدى بأركانها وشروطها ويجب المحافظة عليها في أوقاتها وخاصة مع الجماعة وألا تُؤخر أو تُهمل وأن تحقق قول الله ﷻ: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

- وأن تحقق أيضاً قول النبي ﷺ: «مَنْ لَمْ تَنْهَهُ صَلاَتُهُ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ، لَمْ يَزْدَدْ مِنَ اللَّهِ إِلا بُعْداً». (أخرجه الطبراني في الكبير عن ابن عباس رضي الله عنهما)

- وقوله ﷺ في الحديث القدسي: (قال الله تعالى ليس كل مُصَلٍّ يصلي إنما أتقبل الصلاة ممن تواضع لعظمتي وكفَّ شهواته عن محارمي ولم يصر على معصيتي وأطعم الجائع وكسا العريان ورحم المصاب وآوى الغريب كل ذلك لي وعزتي وجلالي إن نور وجهه لأضوأُ عندي من نور الشمس على أن أجعل الجهالة له حلماً والظلمة نوراً يدعوني فألبيه ويسألني فأعطيه ويقسم عليَّ فأُبَرِّه أكلؤه بقوتي وأستحفظه ملائكتي مثله عندي كمثل الفردوس لا يتسنى ثمرها ولا يتغير حالها).

(أخرجه الديلمي عن حارثة بن وهب ﷺ في جامع الأحاديث)

- وكذلك القول في الصوم يجب أن يؤدى بما وجه إليه القرآن والسنة بكماله وتمامه ومقصده وغايته ليحصل المطلوب والفائدة المرجوة منه يبين ذلك قول الله ﷻ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٨٣].

فأهم غاية مرجوة من الصيام أن يصل الإنسان إلى كمال التقوى.

- كذلك يبين النبي ﷺ ذلك في قوله: «مَنْ لَمْ يَدَعْ قَوْلَ الزُّورِ وَالْعَمَلَ بِهِ فَلَيْسَ لِلَّهِ حَاجَةٌ فِي أَنْ يَدَعَ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ». (أخرجه البخاري عن أبي هريرة ﷺ)

- وقول النبي ﷺ: «لَيْسَ الصِّيَامُ مِنَ الأَكْلِ وَالشَّرْبِ فَقَطْ. إِنَّمَا الصِّيَامُ مِنَ اللَّغْوِ وَالرَّفَثِ. فَإِنْ سَابَّكَ أَحَدٌ أَوْ جَهِلَ عَلَيْكَ فَقُلْ: إِنِّي صَائِمٌ إِنِّي صَائِمٌ».

(أخرجه ابن خزيمة وابن حبان والحاكم عن أبي هريرة ﷺ)

وقوله ﷺ: «رُبَّ صَائِمٍ حَظُّهُ مِنْ صِيَامِهِ الْجُوعُ وَالْعَطَشُ وَرُبَّ قَائِمٍ حَظُّهُ مِنْ قِيَامِهِ السَّهَرُ». (أخرجه أحمد وابن خزيمة عن أبي هريرة ﷺ)

- وعَنْ عُبَيْدٍ مَوْلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّ امْرَأَتَيْنِ صَامَتَا وَأَنَّ رَجُلاً قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ هَا هُنَا امْرَأَتَيْنِ قَدْ صَامَتَا وَإِنَّهُمَا قَدْ كَادَتَا أَنْ تَمُوتَا مِنَ الْعَطَشِ. فَأَعْرَضَ عَنْهُ أَوْ سَكَتَ ثُمَّ عَادَ وَأُرَاهُ قَالَ بِالْهَاجِرَةِ قَالَ يَا نَبِيَ اللَّهِ إِنَّهُمَا وَاللَّهِ قَدْ مَاتَتَا أَوْ كَادَتَا أَنْ تَمُوتَا. قَالَ «ادْعُهُمَا». قَالَ: فَجَاءَتَا قَالَ: فَجِيءَ بِقَدَحٍ أَوْ عُسٍّ فَقَالَ: لِإِحْدَاهُمَا «قِيئِي». فَقَاءَتْ قَيْحاً أَوْ دَماً وَصَدِيداً وَلَحْماً حَتَّى قَاءَتْ نِصْفَ الْقَدَحِ ثُمَّ قَالَ لِلأُخْرَى: «قِيئِي». فَقَاءَتْ مِنْ قَيْحٍ وَدَمٍ وَصَدِيدٍ وَلَحْمٍ عَبِيطٍ وَغَيْرِهِ حَتَّى مَلأَتِ الْقَدَحَ ثُمَّ قَالَ: «إِنَّ هَاتَيْنِ صَامَتَا عَمَّا أَحَلَّ اللَّهُ وَأَفْطَرَتَا عَلَى مَا حَرَّمَ اللَّهُ ﷻ عَلَيْهِمَا جَلَسَتْ إِحْدَاهُمَا إِلَى الأُخْرَى فَجَعَلَتَا تَأْكُلاَنِ من لُحُومِ النَّاسِ».

(أخرجه أحمد والبيهقي)

- وكذلك القول في فريضة الزكاة وأدائها في وقتها وتمامها وكمالها مبتعداً عن الرياء وحب السمعة يؤدِّيها بلا منٍّ ولا أذى كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى ۙ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٢٦٢].

- مع التقيد بكامل أركانها وآدابها ومستحباتها، وكذلك فريضة الحج يجب تحقيق أهدافها وأركانها وواجباتها وسننها ومستحباتها والتأدب بآدابها كما قال تعالى: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [البقرة: ١٩٧].

- وكما قال النبي ﷺ: «مَنْ حَجَّ فَلَمْ يَرْفُثْ وَلَمْ يَفْسُقْ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ». (أخرجه الترمذي عن أبي هريرة ﷺ)

- فهذه الفرائض الخمس هي أهم الفروض الإسلامية وأوجبها، وهي متعينة الأداء على كل مكلف، ولكن هناك فروض وواجبات إسلامية غيرها يجب أداؤها من ذلك: أداء حقوق العباد المالية والثابتة في الذمة، أو التي دخلت عليك من طريق غير شرعي، والعدل في المبادلات المالية والمعاملات دون ظلم، ولا بخس حق، ولا غش ولا تطفيف كيل، ولا نقص وزن، ولا تدليس عيب، ولا قول كذب، ولا خيانة أمانة، ولا اختلاف في وعد، ولا نقض في عهد، ولا رجوع عن عقد بعد إبرامه دون خيار.

- ومن الواجبات إغاثة الملهوف، ونصرة المظلوم، وإعانة الضعيف، وصلة الرحم، ورد السلام، وحسن اللقاء، ومعاملة الناس بخلق حسن، والنصيحة لعباد الله تعالى، وحب الخير لهم كما تحب لنفسك.

- ومن الواجبات: حسن القيام بالحقوق الزوجية الواجبة على الزوجين، والملاطفة في المعاشرة الزوجية، وحسن الجوار، والبعد عما يؤذيهم.

- ومن الواجبات الإسلامية: بر الوالدين، وصلة الرحم، وحسن الصلة بالآخرين، والوفاء معهم.

- ومن الواجبات الإسلامية: تحسين الظن بالمسلمين، ما لم يشاهد فيهم غير ذلك، والستر على العصاة المستترين، والنصح لهم مع الدعاء لهم بالعافية من ذنوبهم.

- ومن الحقوق الواجبة على الإنسان حقوق الحيوان والرفق به فلا يجيعه ولا يوجعه، ولا يتعبه ولا يزعجه، ولا يحمله فوق طاقته، ولا يؤذيه بنفسه، ولا في أولاده، سواء في ذلك البهائم والطيور وغيرها.

- ومن الفروض الإسلامية: إبعاد النفس عن المحرمات وهي كثيرة فمنها: الربا والزنى، والخمر والميسر، والغضب والظلم، وشهادة الزور واليمين الغموس وقول الزور، وانتهاك الأعراض بالقذف ونحوه، والسباب والتعيير وكالتفسيق والتبديع والتكفير من غير دليل قطعي ثابت شرعاً، وتتبع عورات الناس وزلاتهم وأخطائهم وهفواتهم.

وكالسبّ والشتم واللعن، وكشف ستر المسلم، والغيبة والنميمة، وسوء الظن والسخرية بعباد الله تعالى، واحتقارهم والتكبر والعجب، والرياء والسمعة، والغرور وحب الظهور، والمفاخرة أو المكاثرة بالأولاد والأموال.

- كل ذلك من مقام قرب الفرائض أما مقام قرب النوافل فيجب أن نعلم أن النوافل هي الزيادة على الفرائض والواجبات، ولا تتحقق النافلة، وتعدّ زيادة على الفرائض والواجبات إلا إذا كملت للعبد فرائضه وواجباته كماً وكيفاً، فتصير الزيادة على ذلك نافلة.

- والنوافل تكمل نقص الفرائض، فقد روى أبو هريرة ﷺ قال، قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ أَوَّلَ مَا يُحَاسَبُ بِهِ الْعَبْدُ بِصَلَاتِهِ فَإِنْ صَلَحَتْ فَقَدْ أَفْلَحَ وَأَنْجَحَ وَإِنْ

فَسَدَتْ فَقَدْ خَابَ وَخَسِرَ فَإِنْ انْتَقَصَ مِنْ فَرِيضَتِه شَيْءٌ قَالَ انْظُرُوا هَلْ لِعَبْدِي مِنْ تَطَوُّعٍ فَيُكَمَّلُ بِهِ مَا نَقَصَ مِنْ الْفَرِيضَةِ ثُمَّ يَكُونُ سَائِرُ عَمَلِه عَلَى نَحْوِ ذَلِكَ».

(أخرجه الترمذي والنسائي وغيرهما)

- والنوافل هي العبادات والطاعات زيادة على الفرائض وهي أنواع متعددة:

أولاً - نوافل عملية: كأداء نوافل الصلاة المختلفة، مثل السنن الراتبة، وصلاة الضحى وقيام الليل والتهجد، وصلاة التسابيح وصلاة الحاجة، وصلاة التوبة وصلاة الاستخارة، والوتر، وسجدة التلاوة وسجدة الشكر.

- وصوم النفل كصوم يوم الاثنين والخميس من كل أسبوع، أو صيام ثلاثة أيام من كل شهر.

- فعن أبي ذر ﷺ قال: أَمَرَنَا رَسُولُ اللَّه ﷺ أَنْ نَصُومَ مِنْ الشَّهْرِ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ الْبِيضَ ثَلاثَ عَشْرَةَ وَأَرْبَعَ عَشْرَةَ وَخَمْسَ عَشْرَةَ. (أخرجه النسائي وابن حبان)

- وصيام ستة أيام من شوال، عن أبي أيوب الأنصاري ﷺ أن النبي ﷺ قال: «مَنْ صَامَ رَمَضَانَ ثُمَّ أَتْبَعَهُ سِتًّا مِنْ شَوَّالٍ كَانَ كَصِيَامِ الدَّهْرِ». (أخرجه مسلم)

- وصوم عشر ذي الحجة، ويتأكدّ صيام يوم عرفة لغير الحاج.

- وكذلك الحج والعمرة النافلة.

- هذا ويجب أن نعلم أن أهم هذه النوافل قيام الليل فقد قال رسول الله ﷺ: «عَلَيْكُمْ بِقِيَامِ اللَّيْلِ فَإِنَّهُ دَأْبُ الصَّالِحِينَ قَبْلَكُمْ وَهُوَ قُرْبَةٌ إِلَى رَبِّكُمْ وَمَكْفَرَةٌ لِلسَّيِّئَاتِ وَمَنْهَاةٌ لِلإِثْمِ». (أخرجه الترمذي وغيره عن أبي أمامة ﷺ)

- وقال رسول الله ﷺ: «يحشر الناس في صعيد واحد يوم القيامة، فينادي مناد فيقول: أين الذين كانت تتجافى جنوبهم عن المضاجع، فيقومون وهم قليل، فيدخلون الجنة بغير حساب، ثم يؤمر بسائر الناس إلى الحساب».

(أخرجه البيهقي عن أسماء بن زيد)

- وقال ﷻ: ﴿ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا ﴾ [الإسراء: ٧٩].

- وقال سبحانه وتعالى: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمۡ عَنِ ٱلۡمَضَاجِعِ يَدۡعُونَ رَبَّهُمۡ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴾ [السجدة: ١٦].

- وقوله تعالى: ﴿ كَانُواْ قَلِيلٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ ١٧ وَبِٱلۡأَسۡحَارِ هُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ ﴾. [الذاريات: ١٧-١٨]

- فمن صلى في جوف الليل، فقد تقرب إلى الله تعالى، في الوقت الذي يتقرب الله تعالى إلى عباده قرباً خاصاً.

- قال رسول الله ﷺ: «أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الرَّبُّ مِنَ الْعَبْدِ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ الآخِرِ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَكُونَ مِمَّنْ يَذْكُرُ اللَّهَ فِي تِلْكَ السَّاعَةِ فَكُنْ».

(أخرجه الترمذي وغيره عن عمرو بن عبسة)

- وعن عبد الله بن أبي قيس ﷺ قال: قالت عائشة رضي الله عنها: (لاَ تَدَعْ قِيَامَ اللَّيْلِ فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ لاَ يَدَعُهُ وَكَانَ إِذَا مَرِضَ أَوْ كَسِلَ صَلَّى قَاعِداً).

(أخرجه أبو داود وأحمد وابن خزيمة وغيرهم)

لهذا يجب على المؤمن أن يحافظ على قيام الليل كل ليلة ولو بصلاة ركعتين قبل النوم، ويقوم للتهجد ولو بصلاة ركعتين قبل الفجر، وأن يجعل ذلك ديدنه وورده اليومي، فإن نام عنه قضاه بعد الفجر، فقد روى عمر ﷺ أن النبي ﷺ قال: «مَنْ نَامَ عَنْ حِزْبِهِ أَوْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ فَقَرَأَهُ فِيمَا بَيْنَ صَلاَةِ الْفَجْرِ وَصَلاَةِ الظُّهْرِ كُتِبَ لَهُ كَأَنَّمَا قَرَأَهُ مِنَ اللَّيْلِ». (أخرجه مسلم)

- وفي هذا الحديث إشارة تظهر ضرورة أن يضع المسلم لنفسه منهجاً في كل شيء، وخاصة في النوافل، فإذا حصل له ما يمنعه من أدائها لأي سبب ألزم نفسه قضاءها ولو بعد حين حتى لا يعود نفسه تركها وإهمالها.

- هذا وإن المسلم يثاب على نيته إن غلبته عينه، فنام ولم يقم بالعمل، فقد روى أبو الدرداء ﷺ أن النبي ﷺ قال: «مَنْ أَتَى فِرَاشَهُ وَهُوَ يَنْوِي أَنْ يَقُومَ يُصَلِّي مِنَ اللَّيْلِ فَغَلَبَتْهُ عَيْنَاهُ حَتَّى أَصْبَحَ كُتِبَ لَهُ مَا نَوَى وَكَانَ نَوْمُهُ صَدَقَةً عَلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ ﷻ».

(أخرجه النسائي وابن ماجه وغيرهما)

ثانياً - نوافل قولية: وأبوابها كثيرة وواسعة منها: المواظبة على تلاوة كتاب الله تعالى، والإكثار من الصلاة على النبي ﷺ، والإكثار من التهليل والتسبيح، والتحميد والتكبير، وجميع أنواع ذكر الله تعالى بأسمائه وصفاته، ومحامده ودعائه.

ثالثاً - نوافل مالية: ومؤدُّوها هم المحسنون الذين ذكرهم الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤].

- فمساعدة الفقراء والمساكين والمحتاجين وخاصة الأقرباء وإعطاؤهم من مال غير الزكاة تطوعاً هو من أهم النوافل، وقد بين النبي ﷺ لمعاذ بن جبل ﷺ ودله على أبوب الخير فقال له: «أَلاَ أَدُلُّكَ عَلَى أَبْوَابِ الْخَيْرِ الصَّوْمُ جُنَّةٌ وَالصَّدَقَةُ تُطْفِئُ الْخَطِيئَةَ كَمَا يُطْفِئُ الْمَاءُ النَّارَ». (أخرجه الترمذي)

- وقال ﷺ: «صَنَائِعُ الْمَعْرُوفِ تَقِي مَصَارِعَ السُّوءِ، وَصَدَقَةُ السِّرِّ تُطْفِئُ غَضَبَ الرَّبِّ، وَصِلَةُ الرَّحِمِ تَزِيدُ فِي الْعُمُرِ». (أخرجه الطبراني في الكبير عن أبي أمامة ﷺ)

المطلب الرابع: الإكثار من ذكر الله في كل الأحوال والصلاة على النبي ﷺ.

- هذا ولابد لمن أراد سلوك طريق التصوف من الإكثار من ذكر الله ﷻ والصلاة على النبي ﷺ في كل أحواله.

أ - ذكر الله ﷻ: فذكر الله ﷻ يعمق معرفة العبد بربه والصلة به، ومحبته والشعور بمعيته ومناجاته ومراقبته، فيمنحه ذلك قوة الثبات، وقوة اليقين، وقوة الإيمان، وقوة الاستقامة.

- والمقصود بالذكر أن يتذكر المسلم ربه دائماً في كل أحواله وتصرفاته فيذكره بالرضا والطمأنينة والحمد والشكر والخشوع والإنابة والتوبة والتوجه والسؤال والمناجاة والدعاء.

- فلا يغيب قلبه وفكره في أوقاته وأعماله كلها عن الله ﷻ، وهذا الذكر هو المقصود في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ [آل عمران: ١٩٠- ١٩١]

- ويجب أن يذكر المسلم ربه كثيراً كما أمره في قوله: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٤١].

- وينبغي للمؤمن ألا يشغله شاغل عن ذكر الله وأن لا يلتهي بشيء عنه، عملاً بقول الله ﷻ: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ [المنافقون: ٩].

- وقوله تعالى: ﴿ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ ۙ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴾ [النور: ٣٧]

- ومن أهم ثمار الذكر الحقيقي طمأنينة القلب وخشوعه ووجله قال تعالى: ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ [الرعد: ٢٨]

- وقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [الأنفال: ٢].

- وللحفاظ على إيماننا بربنا وحبنا وطاعتنا له أمرنا سبحانه وتعالى بأن نبتعد عن طاعة الغافلين عن ذكره وعن مجالستهم، فقال سبحانه:

﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨].

- ولقد حذر الله سبحانه وتعالى من الإعراض عن ذكره مبيناً أن الإعراض عنه والغفلة عن ذكره يجعل حياة الإنسان صعبة ضيقة ممتلئة بالمتاعب والمكاره والأحزان، ويورث قسوة القلب، فقال سبحانه وتعالى مشيراً إلى ذلك: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾ [طه: ١٢٤].

- والله ﷻ ينبهنا إلى ضرورة ذكره الذكر الكثير لنكون من المؤمنين الصادقين، ونبتعد عن صفات المنافقين التي ذكرها الله سبحانه وتعالى في قوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢].

- ولئن تحدث القرآن كثيراً عن الذكر فإن رسول الله ﷺ لم يغفل الحديث عنه بل أشاد به، وأكثر من الحديث عنه، ومما قاله ﷺ: «مَثَلُ الَّذِي يَذْكُرُ رَبَّهُ وَالَّذِي لاَ يَذْكُرُ مَثَلُ الْحَيِّ وَالْمَيِّتِ». (أخرجه البخاري عن أبي موسى ﷺ)

- وقوله ﷺ: «إِذَا مَرَرْتُمْ بِرِيَاضِ الْجَنَّةِ فَارْتَعُوا». قَالَ وَمَا رِيَاضُ الْجَنَّةِ قَالَ: «حِلَقُ الذِّكْرِ». (أخرجه الترمذي عن أنس بن مالك ﷺ)

- وقال ﷺ: «أَلاَ أُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرِ أَعْمَالِكُمْ وَأَزْكَاهَا عِنْدَ مَلِيكِكُمْ وَأَرْفَعِهَا فِي دَرَجَاتِكُمْ وَخَيْرٌ لَكُمْ مِنْ إِنْفَاقِ الذَّهَبِ وَالْوَرِقِ وَخَيْرٌ لَكُمْ مِنْ أَنْ تَلْقَوْا عَدُوَّكُمْ فَتَضْرِبُوا أَعْنَاقَهُمْ وَيَضْرِبُوا أَعْنَاقَكُمْ». قَالُوا بَلَى. قَالَ «ذِكْرُ اللَّهِ تَعَالَى».

(أخرجه الترمذي عن أبي الدرداء ﷺ)

وقد يقول قائل كيف أذكر الله الذكر الكثير؟

- فأقول له: اذكر الله كما أمرك في قرآنه، واذكره كما علمك النبي ﷺ، فقد بين الله ﷻ في قرآنه، والنبي ﷺ في سنته أن الذكر له أنواع متعددة منها:

➢ أولاً - القرآن الكريم:

- قال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [سورة الحجر: ٩].

- وقال سبحانه: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ [ص: ٨٧].

- وقال ﷻ: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ [القمر: ١٧].

- فقارئ القرآن ذاكرٌ ومن يحفظ آية من آياته فيرددها فهو ذاكر، ومن يستمع إلى القرآن، ويفكر في معانيه فهو ذاكر، ومن يعمل بأوامر القرآن وينتهي عن نواهيه فهو ذاكر.

- بل إن القرآن الكريم هو أعظم الذكر، لأن قراءته تلاوة لكلام الله ﷻ الذي فيه الشفاء من كل داء، ففيه آيات بينات من لدن حكيم عليم، تدخل القلب، وتطمئن لها النفس، وتقشعر لها الأبدان، ويزداد بها القارئ إيماناً، ويسرع إلى تطبيقها، وتنفيذ أوامرها، والبعد عن نواهيها، فتتهذب بها نفسه، ويطمئن قلبه، وتسمو روحه، فيصبح وكأنه ملك يمشي على وجه الأرض.

➢ ثانياً - أداء الفرائض:

أداء الفرائض ذكر لله ﷻ، فالصلاة مثلاً فيها ركوع وسجود، وقراءة للقرآن وتسبيح وتهليل، وكل ذلك ذكر لله ﷻ، لأن الغاية من العبادات ذكر الله ﷻ، قال تعالى: ﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴾ [طه: ١٤].

- وكذلك الصوم والزكاة والحج كلها ذكر لله ﷻ.

➢ **ثالثاً - العلم:**

مجالسة العلماء، وطلب العلم، وقراءته ومدارسته وتدريسه، وحفظه وتحفيظه، والغدوّ والرّواح في طلبه، كل ذلك ذكر لله ﷻ، قال تعالى:

﴿ رِجَالًا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۚ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ [النحل: ٤٣].

وأهل الذكر هنا: أهل العلم.

➢ **رابعاً - ذكر الله ﷻ بجميع أشكاله:**

كذكر أسمائه وصفاته، أو تسبيحه وتحميده، وتمجيده وتكبيره، وتهليله واستغفاره ودعائه، كل ذلك ذكر لله ﷻ، وذكر الله هذا على نوعين:

١- **ذكر الله الخاص بالأعمال والأوقات والمناسبات:** وذلك بأذكار وأدعية وجهنا إليها رسول الله ﷺ في سيرته وأحاديثه كدعاء الاستيقاظ أو دعاء دخول بيت الخلاء، أو دعاء الطعام أو الشراب، أو غير ذلك.

٢- **ذكر الله العام وتسبيحه:** في كل الأوقات والأحوال، وخاصة عقب الصلاة، وفي الصباح والمساء، قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ [آل عمران: ١٩١].

وقال تعالى: ﴿ وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ﴾ [الأحزاب: ٤٢].

وهذا الذكر على ثلاثة أنواع:

ذكر اللسان: الذي كان يرشد إليه الرسول ﷺ في كثير من أحاديثه:

«لاَ يَزَالُ لِسَانُكَ رَطْباً بِذِكْرِ اللَّهِ». (أخرجه أحمد والبيهقي عن عبد الله بن بُسر ﷺ)

أ- ذكر القلب: الذي وجه الله إليه في قوله سبحانه: ﴿ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ فِي نَفۡسِكَ تَضَرُّعٗا وَخِيفَةٗ وَدُونَ ٱلۡجَهۡرِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ﴾.

[الأعراف: ٢٠٥]

وفيه قال ﷺ: «خَيْرُ الذِّكْرِ الْخَفِيُّ». (أخرجه أحمد عن سعد بن مالك ﷺ)

وقال ﷺ: «اذكروا اللهَ ذكراً خاملاً قيل وما الذكرُ الخاملُ قال الذكرُ الخَفيُّ».

(أخرجه ابن المبارك عن ضمرة بن حبيب مرسلاً)

وقال ﷺ: مشيراً لأهمية الذكر الخفي: «الذكر الذي لا تسمعه الحفظة يزيد على الذكر الذي تسمعه الحفظة سبعين ضعفاً». (أخرجه البيهقي عن عائشة رضي الله عنها)

ب- الذكر العملي: وهو أن يذكر المسلم ربه في جميع أحواله وأعماله، وأن يراقبه في كل حركاته وسكناته، ولا يغفل عنه أبداً، وقد عبر العارفون عن هذا الذكر بقولهم: نعيش مع الناس بأجسامنا في هذه الحياة في معاملتنا لهم واختلاطنا بهم وبيعنا وشرائنا، لكن قلوبنا في كل ذلك مع الله ﷻ لا نغفل عن ذكره وتذكره أبداً.

وللذكر فوائد كثيرة حاول الإمام ابن القيم في كتابه الوابل من الكلم الطيب استيفاءَها فتجاوزت عنده المئة أذكر منها:

(يرضي الرحمن، ويطرد الشيطان، ويزيل الهم، ويجلب السرور، ويقوي القلب والبدن، وينور القلب والوجه، ويجلب الرزق، ويكسب المهابة والحلاوة، ويورث محبة الله تعالى التي هي روح الإسلام، ويورث المعرفة والإنابة والقرب وحياة القلب، وذكر الله للعبد.

وهو قوت القلب وروحه ويجلو صدأه، ويحط الخطايا، ويرفع الدرجات، ويحدث الأنس، ويزيل الوحش، ويذكر بصاحبه، وينجي من عذاب الله، ويوجب تنزل السكينة، وغشيان الرحمة وحفوف الملائكة بالذاكر، ويشغل عن الكلام الضار، ويسعد الذاكر، ويسعد به جليسه، ويؤمن العبد من الحسرة يوم القيامة، وهو مع البكاء سبب إظلال الله للذاكر، وبه تحصل العطايا والثواب المتنوع من الله تعالى.

وهو يثمر المعارف والأحوال الجليلة، والذاكر قريب من مذكوره والله معه وأكرم الخلق على الله: من لا يزال لسانه رطباً من ذكر الله.

وهو يعين على طاعة الله ويسهل كل صعب، وييسر الأمور، ويعطي الـذاكر قوة في قلبه وبدنه، وهو سد بين العبد ونار جهنم، وتستغفر الملائكة للذاكر، وتتباهى الجبال وبقاع الأرض بمن يذكر الله عليها، وتشهد له، والذكر أمان من النفاق...).

ب - الصلاة على النبي ﷺ:

- ويرتبط بذكر الله ﷻ الصلاة على النبي ﷺ، حيث ينبغي للمسلم أن يعلم أن من أساليب كلام الله ﷻ في قرآنه، أنه إذا أراد أمراً أو نهياً أو تنبيهاً أو موعظة للمؤمنين يستعمل أسلوب النداء للمؤمنين مباشرة فيقول سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ ومن واجب المؤمن عند سماع مثل هذا النداء أن يقول مباشرة: لبيك اللهم لبيك، لبيك وسعديك، عبدك بين يديك مستعدٌ لتنفيذ أوامرك، واجتناب نواهيك، والعمل بما يرضيك.

- لكن في القرآن الكريم آية واحدة تأتي بتصدير مهم قبل النداء يوضح ويبين ويظهر أهمية ما سيأتي بعد النداء، ثم يأتي بعد ذلك نداء المؤمنين: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦].

- والصلاة في اللغة تعني الدعاء، وفي اصطلاح هذه الآية: الثناء على النبي ﷺ وتمجيده وتعظيمه.

- والمقصود من هذه الآية أن يخبر الله سبحانه وتعالى عباده بمنزلة ومكانة عبده ونبيه المصطفى ﷺ عنده وفي الملأ الأعلى، وأظهر ذلك بصلاته عليه، وصلاة الله تعني ثناءه عليه، وإظهار عظمته ومكانته عنده، يخبر بذلك عباده عن هذه المنزلة الرفيعة التي لم يبلغها أحد سواه.

- كذلك بين سبحانه أن الملائكة تصلي عليه أيضاً وذلك بدعائها للنبي ﷺ واستغفارها له، وأن يزيده الله رفعة ومكانة وشرفاً وقربة.

- ثم جاء الأمر لجميع المؤمنين أن يصلوا عليه ويسلموا تسليما، وصلاة المؤمنين على النبي ﷺ دعاء له بإعلاء ذكره وإظهار دينه، وإبقاء شريعته في الدنيا، وإجزال مثوبته، ورفع مقامه وتشفيعه بأمته في الآخرة.

- قال الشيخ عز الدين بن عبد السلام: (ليست الصلاة على رسول الله ﷺ شفاعة منا له، فإن مثلنا لا يشفع لمثله، ولكن الله سبحانه أمرنا بمكافئة من مكافآته أنعم علينا، وأحسن إلينا فإن عجزنا عن مكافأة دعونا له بأن يكافئه الله عنَّا، ولما عجزنا عن مكافئة سيد الأولين والآخرين أمرنا رب العالمين أن نرغب إليه، وأن نصلي عليه لتكون صلاتنا عليه مكافئة لإحسانه إلينا وإفضاله علينا).

(فتح الباري، ابن حجر جزء ١١، ص١٦٨)

- هذا وإن الله ﷻ لما أمرنا بالصلاة على النبي ﷺ ولم نبلغ قدر الواجب من ذلك أحلنا الأمر على الله تعالى وقلنا: اللهم صلِّ أنت على سيدنا محمد، لأنك أعلم بما يليق به فنحن عاجزون عن توفيته حقه وقاصرون عن معرفة الثناء الذي يليق بقدره.

- جاء في تفسير الآلوسي: إن هذه الآية، آية الصلاة على النبي ﷺ تفيد الدوام والاستمرار نظراً إلى صدرها من حيث إنها جملة اسمية، وتفيد التجدد نظراً إلى عجزها من حيث إنها جملة فعلية، فيكون مفادها استمرار صلاة الله وملائكته على النبي ﷺ وتجددها وقتاً فوقتاً دون نفادٍ ولا انقطاع.

- من تواضع النبي ﷺ أنه عندما علمنا كيفية الصلاة عليه بقوله: ((اللهم صلِّ على محمد)) لم يُسَوِّدْ نفسَهُ فإن من حقِّه علينا أن نقول احتراماً له وتقديراً لذكره ما علمنا إياه السادة العلماء الأفاضل مما استنبطوه من القرآن والسنة: اللهم صلِّ على سيدنا محمد، فهو ﷺ سيدنا في الدنيا، وسيدنا في الآخرة، ومن أهم تلك الأدلة في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾.

[النور: ٦٣]

- ومن الأدلة من السنة، قوله ﷺ وهو يتحدث عن جملة المراتب الخاصة به:
«أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَوَّلُ مَنْ يَنْشَقُّ عَنْهُ الْقَبْرُ وَأَوَّلُ شَافِعٍ وَأَوَّلُ مُشَفَّعٍ». (أخرجه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة ﷺ)

- فالصلاة على النبي ﷺ واجبة لا يجوز تركها، ولا يغفل عنها إلا من لا خير فيه من الناس.

قال القاضي عياض رحمه الله في كتابه الشفا بتعريف حقوق المصطفى: (اعلم أن الصلاة على النبي ﷺ فرض على الجملة غير محدد بوقت لأمر الله تعالى بالصلاة عليه، وحمل الأئمة والعلماء الأمر على الوجوب وأجمعوا عليه).

- وقال جمهور العلماء: إن الصلاة على النبي ﷺ قربة وعبادة كالذكر والتسبيح والتحميد، وهي مندوبة ومسنونة في كل وقت وحين، وإنه ينبغي الإكثار منها.

- فالصلاة على النبي ﷺ تفرض في آخر الصلاة في التشهد الأخير، قال ابن عمر ﷺ: (لا تكون صلاة إلا بقراءة تشهد وصلاة على النبي ﷺ).

- والصلاة على النبي ﷺ تجب عند ذكر النبي ﷺ على الذاكر والسامع، فقد روى أنس ﷺ قال، قال رسول الله ﷺ: «مَنْ ذُكِرْتُ عِنْدَهُ فَلْيُصَلِّ عَلَيَّ».
(أخرجه أبو يعلى في مسنده)

- وقد ورد الوعيد الشديد لمن لم يُصَلِّ عليه إذا ذكر ﷺ جاء ذلك في العديد من الأحاديث الصحيحة، من ذلك الوعيد الدعاء على تارك الصلاة عليه ﷺ بالإبعاد والذل ووصفه بالبخل والجفاء وأنه قد أخطأ طريق الجنة.

فقد قال رسول الله ﷺ: «أَتَانِي جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَقَالَ: مَنْ ذُكِرْتَ عِنْدَهُ، فَلَمْ يُصَلِّ عَلَيْكَ فَأَبْعَدَهُ اللَّهُ قُلْ: آمِينَ». (أخرجه الطبراني عن ابن عباس رضي الله عنهما)

وقال رسول الله ﷺ: «رَغِمَ أَنْفُ رَجُلٍ ذُكِرْتُ عِنْدَهُ فَلَمْ يُصَلِّ عَلَيَّ».
(أخرجه الترمذي في سننه عن أبي هريرة ﷺ)

أَيْ لَصِقَ أَنْفُهُ بِالتُّرَابِ كِنَايَةً عَنْ حُصُولِ الذُّلِّ.

- وقال ﷺ: «من ذُكِرتُ عنده فلم يصلِّ عليَّ فقد شَقِيَ».

(أخرجه الطبراني في الأوسط)

وقال رسول الله ﷺ: «البَخِيلُ مَنْ ذُكِرْتُ عِنْدَهُ، فَلَمْ يُصَلِّ عَلَيَّ».

(أخرجه الترمذي عن علي ﷺ.)

- قال العلامة الفاكهاني: (وهذا أقبح بخل وأشنع شح، لم يبقَ بعده إلا الشح بكلمة الشهادة).

(المناوي: فيض القدير، جزء٣، ص٢٨٣) أعاذنا الله تعالى وجميع المؤمنين من ذلك.

وقال رسول الله ﷺ: «مَنْ ذُكِرْتُ عِنْدَهُ فَخَطِئَ الصَّلاةَ عَلَيَّ، خَطِئَ طَرِيقَ الْجَنَّةِ». (أخرجه الطبراني عن الحسين بن علي رضي الله عنهما)

- فما أحرانا بعد كل ما سمعناه وعرفناه، أن نكثر من الصلاة عليه في كل وقت وحين.

- (رؤي الشافعي ﷺ في المنام بعد موته، فقيل له: ما فعل الله بك؟ قال: غفر لي، فقيل له بماذا؟ قال: بخمس كلمات كنت أصلي بها على رسول الله ﷺ، فقيل له: وما هي تلك الكلمات. قال: كنت أقول:

(اللهم صلِّ على سيدنا محمد عدد من صلى عليه، وصلِّ على سيدنا محمد عدد من لم يصلِّ عليه، وصلِّ على سيدنا محمد كما أمرت أن يصلى عليه، وصلِّ على سيدنا محمد كما تحب أن يصلى عليه، وصلِّ على سيدنا محمد كما ينبغي أن يصلى عليه). (انظر الدر المنضود وعند البيهقي)

- من أحب شيئاً أكثر من ذكره ومن أحب النبي ﷺ أكثر من ذكره ومن الصلاة عليه.

- ويجب على كل مسلم محب لرسول الله ﷺ أن يعلم أن الصلاة على النبي ﷺ مقبولة قطعاً.

يقول الشيخ الفاسي في شرحه على "دلائل الخيرات": (وكل الأعمال فيها المقبول والمردود إلا الصلاة على النبي ﷺ فإنها مقبولة غير مردودة).

ثم قال: (الصلاة على النبي ﷺ مجابة على القطع فإن اقترن بها السؤال شفعت بفضل الله تعالى فقبل السؤال، وهذا المعنى مذكور عن بعض السلف).

(مطالع المسرات بجلاء دلائل الخيرات، الفاسي)

- مع أن صلاتنا على النبي ﷺ تعني تعبيراً عن حبنا وتقديرنا له بأنه قد أدى الأمانة، وبلغ الرسالة التي بفضله وصلت إلينا فعرفنا بربنا ومنّ الله به علينا بالإيمان والإسلام والإحسان.

وأن صلاتنا على النبي ﷺ تحمل دعاءً وثناءً على النبي ﷺ بأن يؤتيه الله الوسيلة والدرجة العالية الرفيعة والمقام المحمود الذي وعده.

مع كل ذلك فإن صلاتنا عليه ﷺ ننال بها مكافأة عظيمة من الله عز وجل، فقد روى أبو طلحة الأنصاري فقال: «أَصْبَحَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْماً طَيِّبَ النَّفْسِ يُرَى فِي وَجْهِهِ الْبِشْرُ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَصْبَحْتَ الْيَوْمَ طَيِّبَ النَّفْسِ يُرَى فِي وَجْهِكَ الْبِشْرُ. قَالَ: أَجَلْ أَتَانِي آتٍ مِنْ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ فَقَالَ مَنْ صَلَّى عَلَيْكَ مِنْ أُمَّتِكَ صَلاَةً كَتَبَ اللَّهُ لَهُ بِهَا عَشْرَ حَسَنَاتٍ وَمَحَا عَنْهُ عَشْرَ سَيِّئَاتٍ وَرَفَعَ لَهُ عَشْرَ دَرَجَاتٍ وَرَدَّ عَلَيْهِ مِثْلَهَا». (أخرجه الإمام أحمد في مسنده)

- فأي شيء أعظم من أن يصلي الله على عبده فيخرجَهُ من الظلمات إلى النور، من ظلمات المعاصي وظلمات القسوة وظلمات الضيق والأمراض والأسقام، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣].

- وعن أنس بن مالك ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «من صلى علي صلاة واحدة بلغتني صلاته وصليت عليه وكتب له سوى ذلك عشر حسنات».

(أخرجه الطبراني في معجمه)

- فإذا صليت على النبي ﷺ بلغت صلاتك النبي ﷺ وقيل له فلان ابن فلان (باسمك الخاص) من أمتك يصلي عليك فيرد عليك النبي ﷺ ويقول: ((اللهم صلّ على فلان)).

فأي شرف وأي لذة، وأي عطاء في أن يصلي النبي ﷺ عليك باسمك في الحضرة الإلهية فتستفيد سكينة للقلب، ومغفرة للذنب، وارتقاء لمقام القرب، ألم تقرأ قول الله تعالى: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١٠٣].

- وللصلاة على النبي ﷺ فوائد كثيرة صرَّحت بها أحاديث النبي ﷺ المتعددة فمن أهم تلك الفوائد صلاة الله وسلامه مع ملائكته على من صلى عليه.

قال رسول الله ﷺ: «مَنْ صَلَّى عَلَيَّ وَاحِدَةً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ عَشْراً».

(أخرجه مسلم في صحيحه)

وفي رواية لأحمد: «صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَمَلاَئِكَتُهُ سَبْعِينَ صَلاَةً فَلْيُقِلَّ عَبْدٌ مِنْ ذَلِكَ أَوْ لِيُكْثِرْ».

- ويرحم الله تعالى القائل:

إذا أنت أكثرت الصلاة على الذي ... صلّى الله عليه في الآيات

وجعلتها ورداً عليك محتماً ... لاحت عليك دلائل الخيرات

- ومن تلك الفوائد التي ذكرها الأحاديث الشريفة تكفير الخطايا، وتزكية الأعمال، ورفع الدرجات، ومغفرة الذنوب، ومحو الخطايا، هذا وإنَّ بركة الصلاة على النبي ﷺ وخيراتها تدرك الرجل المصلي وولده، وولد ولده، ومنها أنها تزين المجالس وتنفي الفقر وضيق العيش، وتقرب إلى الله ورسوله، وهي سبب عظيم لقضاء الحاجات ونيل المرادات، تفتح أمام المصلي على النبي ﷺ أبواب الخير، فيلتمس ببركتها كل محبوب، وهي سبب عظيم في إجابة الدعاء، وهي نور لصاحبها في قبره، ويوم حشره، وعلى الصراط، ويكتب الله بين عينيه براءة من النار، وبراءة من النفاق، ويكون يوم القيامة مع الشهداء.

فهي من أكثر الأعمال بركةً وأفضلها نفعاً في الدنيا والآخرة، وكثرة صلاة المصلي على النبي ﷺ تدل على خالص حبه له ﷺ لأن الذي يحب شيئاً يكثر من ذكره.

- وإذا كان كل وقت يستحب فيه الصلاة على النبي ﷺ فإن هناك مواطن تشرع فيها الصلاة على النبي ﷺ فمنها:

- التشهد الأخير من كل صلاة فريضة أو نافلة فهي واجبة.

- عقب إجابة المؤذن. فقد قال النبي ﷺ: «إِذَا سَمِعْتُمُ الْمُؤَذِّنَ فَقُولُوا مِثْلَ مَا يَقُولُ ثُمَّ صَلُّوا عَلَيَّ فَإِنَّهُ مَنْ صَلَّى عَلَيَّ صَلاَةً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ بِهَا عَشْراً ثُمَّ سَلُوا اللَّهَ لِيَ الْوَسِيلَةَ فَإِنَّهَا مَنْزِلَةٌ فِي الْجَنَّةِ لاَ تَنْبَغِي إِلاَّ لِعَبْدٍ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَنَا هُوَ فَمَنْ سَأَلَ لِيَ الْوَسِيلَةَ حَلَّتْ لَهُ الشَّفَاعَةُ».

(أخرجه مسلم في صحيحه عن عمرو بن العاص ﷺ)

- ومن المواطن التي يسن فيها الصلاة عليه ﷺ: عند دخول المسجد وعند الخروج منه، عن فاطمة رضي الله عنها: «كَانَ رَسُولُ اللَّه ﷺ إِذَا دَخَلَ الْمَسْجِدَ صَلَّى عَلَى مُحَمَّدٍ وَسَلَّمَ وَقَالَ: رَبِّ اغْفِرْ لِي ذُنُوبِي وَافْتَحْ لِي أَبْوَابَ رَحْمَتِكَ. وَإِذَا خَرَجَ صَلَّى عَلَى مُحَمَّدٍ وَسَلَّمَ وَقَالَ: رَبِّ اغْفِرْ لِي ذُنُوبِي وَافْتَحْ لِي أَبْوَابَ فَضْلِكَ».

(أخرجه الترمذي)

- وفي صلاة الجنازة بعد التكبيرة الثانية.

- ومن المواطن أيضاً: الصلاة عليه ﷺ عند الصباح وعند المساء. فقد قال النبي ﷺ: «من صلى عليَّ حين يصبح عشراً وحين يمسي عشراً أدركته شفاعتي يوم القيامة». (أخرجه الطبراني عن أبي الدرداء ﷺ)

- ومنها عند الاجتماع والتفرق: قال رسول الله ﷺ: «مَا جَلَسَ قَوْمٌ مَجْلِساً لَمْ يَذْكُرُوا اللَّهَ فِيهِ وَلَمْ يُصَلُّوا عَلَى نَبِيِّهِمْ إِلاَّ كَانَ عَلَيْهِمْ تِرَةً (حسرة وندامة) فَإِنْ شَاءَ عَذَّبَهُمْ وَإِنْ شَاءَ غَفَرَ لَهُمْ». (أخرجه الترمذي عن أبي هريرة ﷺ)

- وتسن الصلاة على النبي ﷺ عند كل كلام خيّر ذي بال، وعند افتتاح الخطب والدروس، وقراءة الأحاديث، وعقب الصلاة، وختم القرآن الكريم، وفي دعاء الحاجة، ويوم عرفة، وعند زيارته ﷺ، وعند نسيان الشيء، فيذكره إن شاء الله.

- وقد ورد الأمر بالإكثار من الصلاة على النبي يوم الجمعة وليلتها، قال رسول الله ﷺ: «أَكْثِرُوا الصَّلاَةَ عَلَيَّ يَوْمَ الْجُمُعَةِ فَإِنَّهُ مَشْهُودٌ تَشْهَدُهُ الْمَلاَئِكَةُ وَإِنَّ أَحَداً لَنْ يُصَلِّيَ عَلَيَّ إِلاَّ عُرِضَتْ عَلَيَّ صَلاَتُهُ حَتَّى يَفْرُغَ مِنْهَا. قَالَ قُلْتُ وَبَعْدَ الْمَوْتِ قَالَ: وَبَعْدَ الْمَوْتِ إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ عَلَى الأَرْضِ أَنْ تَأْكُلَ أَجْسَادَ الأَنْبِيَاءِ. فَنَبِيُّ اللَّهِ حَيٌّ يُرْزَقُ». (أخرجه ابن ماجه عن أبي الدرداء ﷺ)

- كان الصحابة الكرام، والتابعون، وأولياء الله وأحبابه يكثرون من الصلاة على النبي محمد ﷺ بل كان بعضهم يقتصر في دعائه على الصلاة عليه ﷺ فلا يسأل الله شيئاً إلا الصلاة على النبي محمد ﷺ وما عليه إذا فعل ذلك وقد ضمن الله له بذلك أن يكفى هموم الدنيا والآخرة، وماذا يبتغي العبد من دعائه مهما كان جامعاً إلا هذا الطلب.

عن أبي بن كعب ﷺ قال: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي أُكْثِرُ الصَّلاَةَ عَلَيْكَ فَكَمْ أَجْعَلُ لَكَ مِنْ صَلاَتِي [أي: فكم أجعل من دعائي صلاة عليك] فَقَالَ: «مَا شِئْتَ». قَالَ قُلْتُ: الرُّبُعَ. قَالَ: «مَا شِئْتَ فَإِنْ زِدْتَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ». قُلْتُ: النِّصْفَ. قَالَ: «مَا شِئْتَ فَإِنْ زِدْتَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ». قَالَ قُلْتُ: فَالثُّلُثَيْنِ. قَالَ: «مَا شِئْتَ فَإِنْ زِدْتَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ». قُلْتُ: أَجْعَلُ لَكَ صَلاَتِي كُلَّهَا. قَالَ: «إِذاً تُكْفَى هَمَّكَ وَيُغْفَرُ لَكَ ذَنْبُكَ».

(أخرجه الترمذي)

- **أخيراً:** ينبغي للمسلم الذي سلك طريق التصوف، طريق التزكية والإحسان أن يجعل لنفسه ورداً خاصاً يومياً للصلاة على النبي ﷺ، وأن يكثر من هذه الصلاة، وأن يجلس في مجالسها، وأن يحب أهلها.

المطلب الخامس: السعي على سلامة القلب وصلاحه

- للقلب أهمية كبرى أظهرها القرآن الكريم في العديد من آياته، فقد ذكر القلب في القرآن الكريم عشرين مرة بالإفراد، واثنتي عشرة ومائة مرة بصيغة الجمع.

- والقلب لطيفة ربانية، لها بهذا القلب الجسماني الصنوبري الشكل المودع في الجانب الأيسر من الصدر تعلُّق، وقد جعل الله بصحته وبقائه وانتظام دورته حياة الجسد، وبسلامته وطهارته وصلاحه حياة الروح، قال رسول الله ﷺ: «أَلاَ وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ. أَلاَ وَهِيَ الْقَلْبُ». (أخرجه البخاري عن النعمان بن بشير ﷺ)

- والقلب موضع الإيمان والكفر، والإنابة والإصرار، والطمأنينة والاضطراب، وهو محل العلم والتقوى، والنية والإخلاص والذكرى، والحب والبغض، والوسواس والخطرات، فالقلب هو العالم بالله ﷻ، وهو المتقرب إلى الله ﷻ، وهو العامل لله ﷻ، وهو الساعي إلى الله ﷻ، وإنما الجوارح أتباع للقلب وخدم، كما قال أبو هريرة ﷺ: (القلب ملك وله جنود فإذا صلح الملك صلحت جنوده وإذا فسد الملك فسدت جنوده). (أخرجه البيهقي وعبد الرزاق)

وقد جعل القرآن القلوب على ثلاثة أحوال:

١- **القلب الميت وهو قلب الكافر:** (وهو الذي لا حياة فيه، فهو لا يعرف ربه، ولا يعبده بأمره، وبما يحبه ويرضاه، بل هو واقف مع شهواته ولذاته، ولو كان فيها سخط ربه وغضبه، فهو لا يبالي إذا فاز بشهوته وحظه، رضي ربه أم سخط). (طب القلوب، ابن قيم الجوزية ص٣٧)

فالهوى إمامه، والشهوة قائده، والجهل سايسه، والغفلة مركبه، وهذا قلب الكافر الذي ختم الله على قلبه وأصبح الران في أعماقه، ذكره الله في قرآنه بقوله: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: ٧].

وقوله ﷻ: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ (المطففين: ١٤)

٢- **القلب المريض وهذا قلب المنافق:** (وهو القلب الذي له حياة وبه علة، ففيه من محبة الله، والإيمان به، والإخلاص له، والتوكل عليه، ما هو مادة حياته، وفيه من محبة الشهوات وإيثارها والحرص على تحصيلها، والحسد والكبر والعجب، وحب العلو بالأرض بالرياسة ما هو مادة هلاكه وعطبه.

وهو ممتحن من داعيين: داعٍ يدعوه إلى الله ﷻ ورسوله ﷺ والدار الآخرة، وداعٍ يدعوه إلى العاجلة، وهو إنما يجيب أقربهما منه باباً، وأدناهما إليه جواراً).

(طب القلوب، ابن قيم الجوزية ص٣٨)

ويشير إلى ذلك قوله سبحانه: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ [البقرة: ٨-١٠].

٣- **القلب الصحيح وهو قلب المؤمن:** وهو القلب السليم الذي لا ينجو يوم القيامة إلا من أتى الله به، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨-٨٩]

قال سعيد بن المسيب (وهو سيد التابعين، وأحد الفقهاء السبعة بالمدينة) رحمه الله تعالى: (القلب السليم: هو القلب الصحيح وهو قلب المؤمن) (تفسير ابن كثير)

(والقلب السليم: وهو الذي سلم من أن يكون لغير الله فيه شرك بوجه ما، بل قد خلصت عبوديته لله، إرادة ومحبة، وتوكُّلاً وإنابة، وإخباتاً وخشية، وخلص عمله لله ﷻ، فإن أحب أحب في الله، وإن أبغض أبغض في الله، وإن أعطى أعطى لله، وإن منع منع لله). (طب القلوب، ابن قيم الجوزية ص٣٥)

والقلب السليم: هو الذي سلم من جميع العقائد الفاسدة، والأخلاق الرذيلة، والميل إلى المعاصي والشهوات.

والقلب السليم: هو الذي سلم من الكفر والشقاق، ومن الشك والتردد، وسلم من الرياء والفخر والكبر، والحقد والحسد والغش، وجميع أمراض القلب، وسلم من الأهواء والشهوات والمغريات والمعاصي والآثام.

- والسؤال هو كيف نصل إلى هذا القلب بهذه المعاني؟

كيف يجعل المسلم قلبه قلباً صحيحاً سليماً صالحاً منيباً؟

الجواب: باتباع الأمور الأساسية التي تساعد على امتلاك هذا القلب:

➢ **أولاً**: السعي الحثيث إلى تعميق الإيمان بالله في القلب، والوصول به إلى حد اليقين بشتى الوسائل حتى لا يكون إيماننا ادعاءً، كالأعراب الذي قال عنهم سبحانه: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحجرات: ١٤].

- قال تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [التغابن: ١١].

- ومن هداية الله لهذا القلب أن يحبب إليه الإيمان، ويزينه فيه، ويكره إليه الكفر والفسوق والعصيان كما قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾ [الحجرات: ٧]

➢ **ثانياً**: المحافظة على هداية الله لهذا القلب، وتمكن الإيمان فيه، ووصوله إلى معرفته معرفة حقيقية، وثباته على ذلك، حتى يصل إلى انشراح صدره الذي يستوطن القلب فيه، قال تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٥]

- عن أبي جعفر الهاشمي المدائني قال: (لما نزلت هذه الآية: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ قالوا: كيف يشرح الصدر؟ قال: إذا نزل النور في القلب انشرح له الصدر وانفسح. قالوا: فهل لذلك آية يعرف بها؟ قال: نعم، الإنابة إلى دار الخلود، والتجافي عن دار الغرور، والاستعداد للموت قبل الفوت). (تفسير الطبري)

- فإذا وصل المسلم إلى هداية الله له، وشرح صدره، قذف في قلبه نوراً، يصبح القلب بهذا النور ذاكراً لله ليناً سليماً، صحيحاً صالحاً منيباً، قال تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الزمر: ٢٢].

- وبذلك يصل ذلك المسلم إلى ما وصل إليه الصحابي الجليل حارثة من الإيمان الحق: فعَنِ الْحَارِث بن مَالك الأَنْصَارِيِّ، أَنَّهُ مَرَّ بِرَسُولِ اللَّه ﷺ، فَقَالَ لَهُ: «كَيْفَ أَصْبَحْتَ يَا حَارِثُ؟» قَالَ: أَصْبَحْتُ مُؤْمِناً حَقّاً، فَقَالَ: «انْظُرْ مَا تَقُولُ؟ فَإِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ حَقِيقَةً، فَمَا حَقِيقَةُ إِيمَانِكَ؟» فَقَالَ: قَدْ عَزَفَتْ نَفْسِي عَنِ الدُّنْيَا، وَأَسْهَرْتُ لِذَلِكَ لَيْلِي، وَأَظْمَأْتُ نَهَارِي، وَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى عَرْشِ رَبِّي بَارِزاً، وَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى أَهْلِ الْجَنَّة يَتَزَاوَرُونَ فِيهَا، وَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى أَهْلِ النَّارِ يَتَضَاغَوْنَ فِيهَا، فَقَالَ: «يَا حَارِثُ عَرَفْتَ فَالْزَمْ» ثَلاثاً. (أخرجه الطبراني في الكبير)

- كذلك فإن الله ﷻ يجعل لهذا العبد واعظاً من قلبه يأمره وينهاه كما بين ﷺ في قوله: «إذا أراد الله بعبده خيرا جعل له واعظاً من قلبه».

(أخرجه الديلمي عن أم سلمة رضي الله عنها)

➢ **ثالثاً**: الاستجابة لما يدعو إليه الله ورسوله، والتزام أوامر الله، والبعد عن نواهيه، والتقيد بأحكامه، والبعد عن معاصيه، وكل ذلك يؤدي إلى حياة قلب المسلم، واستمراريته على سلامته وصحته وصلاحه وإنابته، وكل ذلك أيضاً يساعد ألا يحول الله ﷻ بين المسلم وبين قلبه بتقلب أحوال القلب أو مرضه أو موته،

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ [الأنفال: ٢٤].

- هذا وقد تحدث النبي ﷺ عن تقلب هذا القلب، فقد روى أنس بن مالك ﷺ قال كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ: «يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ». فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ آمَنَّا بِكَ وَبِمَا جِئْتَ بِهِ فَهَلْ تَخَافُ عَلَيْنَا قَالَ «نَعَمْ إِنَّ الْقُلُوبَ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ اللَّهِ يُقَلِّبُهَا كَيْفَ يَشَاءُ». (أخرجه الترمذي)

- وقال ﷺ: «قلب المؤمن أشد تقلباً من القدر في غليانها».

(أخرجه أحمد والحاكم عن المقداد بن الأسود ﷺ)

- وقال ﷺ: «مثل القلب مثل العصفور فيقلب كل ساعة».

(أخرجه الحاكم والبيهقي عن أبي عبيدة بن الجراح ﷺ)

- وقال ﷺ: «إِنَّمَا سُمِّيَ الْقَلْبُ مِنْ تَقَلُّبِهِ إِنَّمَا مَثَلُ الْقَلْبِ كَمَثَلِ رِيشَةٍ مُعَلَّقَةٍ فِي أَصْلِ شَجَرَةٍ يُقَلِّبُهَا الرِّيحُ ظَهْراً لِبَطْنٍ». (أخرجه أحمد عن أبي موسى ﷺ)

- بالنظر إلى سرعة تغير القلب بهذا الشكل علينا الاستجابة لما يدعونا إليه الله ورسوله ففيه حياتنا، لنكون في حصن من ذلك التغير والتبدل السريع، ولنكون دائماً على حذر وانتباه، ولنكثر من قولنا: ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴾ [آل عمران: ٨].

➢ **رابعاً:** المحافظة على تلاوة القرآن الكريم، والتزام أحكامه والعمل بأوامره والابتعاد عن نواهيه.

والانتفاع بالقرآن وما فيه إنما يحصل لمن كان حيَّ القلب، قال تعالى:

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾[ق: ٣٧].

- كما أن الانتفاع بمواعظه شفاء لما في الصدور، فالقلب في الصدر كما نعلم، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧].

- أما الذي لا يقرأ القرآن ولا يتدبره ولا يعمل به، فإن قلبه مقفل مغلق، كما بين ذلك سبحانه في قوله: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤].

➢ **خامساً**: المحافظة على ذكر الله الذكر الكثير، كما أمر سبحانه:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤١].

- لأن ذكر الله هو الوسيلة التي تجعل القلب مطمئناً قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].

- ولأن الذكر سبب خشوع القلب، قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [الحديد: ١٦].

- ومن لا يذكر الله ﷻ، فإنه يصاب بقساوة في قلبه، تنتهي به إلى الخسران والضلال والضياع كما وضح ذلك سبحانه في قوله: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الزمر: ٢٢].

- فلابد للقلب من ذكر الله والمداومة عليه لأن الذكر يصقل القلب وينوره، ويمسح عنه الغفلة، والران والحجب الكثيفة التي تغشاه قال رسول الله ﷺ:

«إن لكل شيء صقالة، وإن صقالة القلوب ذكر الله».

(أخرجه البيهقي في شعبه عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما)

- وبما أن للذكر أنواعاً متعددة فعلينا أن نوليَ الذكرَ الخفي الذي يقوم به

القلب عناية خاصة، فهو خيرها، كما بين ذلك النبي ﷺ بقوله: «خَيْرُ الذِّكْرِ الْخَفِيُّ».

(أخرجه أحمد عن سعد بن مالك ﷺ)

➢ **سادساً:** صحبة المؤمنين الصادقين ومجالستهم، والبعد عن الغافلين، فإن في ذلك حياة القلب وسلامته، وقد أمر الله تعالى بهذه الصحبة فقال:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [التوبة: ١١٩].

- وأمر الله ﷻ نبيه أن يحبس نفسه على صحبة المؤمنين الصادقين، ونهاه عن طاعة من أغفل الله قلبه عن ذكره، فقال سبحانه: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴾ [الكهف: ٢٨].

- وملازمة المؤمنين الصادقين وصحبتهم، تدعو إلى محبتهم وتمني الخير لهم، والدعاء لهم، وعدم حسدهم أو بغضهم أو معاداتهم بين الله ﷻ كل ذلك في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الحشر: ١٠].

➢ **سابعاً:** البعد عن المعاصي والآثام والذنوب، والمغريات والشهوات والأهواء والمفسدات، فإنها تضعف الإيمان في القلب، وتكثر الحجب عليه، وتسوده، وتطفئ نوره، فيُختم ويُطبع، حتى يصل إلى الران الذي يميته والعياذ بالله، قال تعالى:

﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ [المطففين: ١٤]

- قال ابن عباس رضي الله عنهما: (إن للحسنة نوراً في القلب، وضياء في الوجه، وقوة في البدن،، وزيادة في الرزق، ومحبة في قلوب الخلق، وإن للسيئة سواداً في الوجه، وظلمة في القلب، ووهناً في البدن، ونقصاً في الرزق، وبغضة في قلوب الخلق).

(مدارج السالكين، ابن قيم الجوزية جزء ١، ص٤٢٤)

- قال الإمام مالك لما رأى من الشافعي النبوغ والإيمان، قال له: (إني أرى الله تعالى قد ألقى على قلبك نوراً، فلا تطفئه بظلمة المعصية).

(الجواب الكافي، ابن قيم الجوزية ص٥٢)

- وهناك آية تلخص كل ما جاء في هذه الفقرة من معانٍ في قوله ﷻ:

﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ٢٣].

- وفي الحديث الشريف يقول النبي ﷺ شارحاً هذا الموضوع: «إذا أذنب العبد نكت في قلبه نكتة سوداء، فإن تاب صقل منها، فإن عاد زادت حتى تعظم في قلبه، فذلك الران الذي ذكره الله ﷻ ﴿كَلَّا بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤]».

(أخرجه الحاكم في المستدرك عن أبي هريرة ﷺ)

- قال الإمام ابن المبارك (حلية الأولياء، أبو نعيم جزء ٨، ص٢٧٩):

رأيت الذنوب تميت القلوب ... وقد يورث الذل إدمانها

وترك الذنوب حياة القلوب ... وخير لنفسك عصيانها

- وهناك أسباب أخرى للختم على القلوب والطبع عليها بينها النبي ﷺ، منها إهمال أداء الفرائض.

- فقال ﷺ: «لَيَنْتَهِيَنَّ أَقْوَامٌ عَنْ وَدْعِهِمُ الْجُمُعَاتِ (أي عن تركها) أَوْ لَيَخْتِمَنَّ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ ثُمَّ لَيَكُونُنَّ مِنَ الْغَافِلِينَ».

(أخرجه مسلم عن أبي هريرة وعبد الله بن عمر ﷺ)

- وقال ﷺ في حديث آخر: «مَنْ تَرَكَ ثَلَاثَ جُمَعٍ تَهَاوُناً بِهَا طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قَلْبِهِ». (أخرجه أبو داود والنسائي عَنْ أَبِي الْجَعْدِ الضَّمْرِيِّ ﷺ)

- وبالقياس فإن إهمال أداء الصلوات الخمس، وباقي العبادات والقربات من قراءة للقرآن، وذكر الله ﷻ، وحضور مجالس العلم والعلماء، ومجالسة الصالحين والأتقياء يؤدي إلى الختم على القلب والطبع عليه والعياذ بالله تعالى.

- كذلك يجب الابتعاد عن مفسدات القلب وأسباب مرضه، وهي كثيرة أذكر منها تعداداً فقط: كثرة الخلطة للناس وخاصة الفاسدة، والتمني، والتعلق بغير الله ﷻ، والشبع الكثير، وكثرة النوم، وفضول النظر، وفضول الكلام.

➢ ثامناً: إنكار الفتن والابتعاد عنها، وعدم المشاركة فيها، وهي كثيرة وتكون في كل زمان ومكان، ويعرفها كل إنسان، فيقف أمام مفترقين، فأيهما يختار؟

روى حذيفة بن اليمان ﷺ قال، قال رسول الله ﷺ: «تُعْرَضُ الْفِتَنُ عَلَى الْقُلُوبِ كَالْحَصِيرِ عُوداً عُوداً فَأَيُّ قَلْبٍ أُشْرِبَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ وَأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ بَيْضَاءُ حَتَّى تَصِيرَ عَلَى قَلْبَيْنِ عَلَى أَبْيَضَ مِثْلِ الصَّفَا (الحجر الأملس الذي لا يعلق به شيء) فَلاَ تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ وَالآخَرُ أَسْوَدُ مُرْبَادّاً (أي ممزوج بياضه بسواد) كَالْكُوزِ مُجَخِّياً (أي منكوساً) لاَ يَعْرِفُ مَعْرُوفاً وَلاَ يُنْكِرُ مُنْكَراً إِلاَّ مَا أُشْرِبَ مِنْ هَوَاهُ». (أخرجه مسلم)

- فإذا انجرف الإنسان في الفتنة، وتدهورت أخلاقه، وغرته الدنيا بزخارفها، ونسي الآخرة وجحيمها، مات قلبه، بين ذلك النبي ﷺ بقوله: «إِنَّ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ فِتَناً كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ فِتَناً كَقِطَعِ الدُّخَانِ يَمُوتُ فِيهَا قَلْبُ الرَّجُلِ كَمَا يَمُوتُ بَدَنُهُ يُصْبِحُ الرَّجُلُ مُؤْمِناً وَيُمْسِي كَافِراً وَيُمْسِي مُؤْمِناً وَيُصْبِحُ كَافِراً يَبِيعُ أَقْوَامٌ خَلاَقَهُمْ وَدِينَهُمْ بِعَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا». (أخرجه أحمد عن أبي موسى ﷺ)

- لذلك كان النبي ﷺ يتعوذ من فتنة الصدر أي القلب، كما يتعوذ من عذاب القبر، وأرذل العمر، فعَنْ عُمَرَ ﷺ: (أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَتَعَوَّذُ مِنَ الْبُخْلِ وَالْجُبْنِ وَعَذَابِ الْقَبْرِ وَأَرْذَلِ الْعُمُرِ وَفِتْنَةِ الصَّدْرِ). (أخرجه أحمد في مسنده)

- قَالَ وَكِيعٌ: فِتْنَةُ الصَّدْرِ أَنْ يَمُوتَ الرَّجُلُ ولَمْ يَتُبْ مِنْهَا. (أحمد في مسنده)

- **أخيراً**: مما مر معنا نجد أن أهم ما ينبغي لمن أراد سلوك طريق التصوف طريق الذكر والإحسان والنجاح أن يسعى لامتلاك القلب السليم والمحافظة عليه.

المطلب السادس: السعي لتحقيق المقامات والأحوال التي تُبَلِّغهُ الطريق وتدلُّه عليه

- (قسم الصوفيون طريقهم إلى مراحل أو منازل أو مقامات فالمسمى واحد وإن اختلفت التسميات، وقد عمدوا إلى هذه التسمية تشبيهاً له بالطريق المادي حيث يجتازه المسافر مرحلة بعد مرحلة، فإذا تخطى مرحلة نزل ليستريح ويريح راحلته، ويتزود ليستأنف الرحلة من جديد). (التصوف والأخلاق، د. عبد الفتاح بركة ص ١٥٦)

- وقد اصطلح العلماء على تسميتها بالمقامات والأحوال وهو المشهور من أسمائها.

● **المقامات:** من الإقامة والثبات وعدم التغير أو التبدل، وقد عرف السراج الطوسي المقام بأنه: (مقام العبد بين يدي الله ﷻ فيما يقام فيه من العبادات والمجاهدات والرياضات والانقطاع إلى الله ﷻ). (اللُّمع ص٥٦)

- قال الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾ [إبراهيم: ١٤]

- وقال ﷻ: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ [الصافات: ١٦٤]

- والمقامات يكتسبها العبد بالتزام الشريعة، ومجاهدة النفس، ومواصلة التربية.

- قال محمد بن واسع (فقيه ورع، من الزهاد، من أهل البصرة) رحمه الله:

(كابدت الليل عشرين سنة، فتنعمت به عشرين سنة).

(إحياء علوم الدين، الغزالي جزء ٦، ص٤٠٦)

- وقال مالك بن دينار (من رواة الحديث) رحمه الله: (حفظت القرآن عشرين سنة ثم تنعمت بتلاوته عشرين سنة). (اللُّمع، السراج الطوسي ص ٦٦)

- ومثالها في عصر النبوة ما اتصف به الصحابة الكرام من مقامات استقاموا عليها طيلة حياتهم كالإخلاص والصدق والصبر والتوكل والزهد وغير ذلك.

- فكان أحدهم يقول: (مَا كَذَبْتُ مُنْذُ أَسْلَمْتُ).

(أخرجه الطبراني في الكبير عن عبد الله بن مسعود ﷺ)

● **الأحوال**: من التحول والتغير والتبدل وعدم الدوام.

- ومعنى الأحوال: هو ما يَحُلُّ بالقلوب، أو تحل به القلوب من صفاء الأذكار، وهو معنى يرد على القلب من غير تعمد ولا اجتذاب ولا اكتساب، وكان عارضاً سريع الزوال.

- وقد حكي عن الجنيد رحمه الله أنه قال: (الحال نازلة تنزل بالقلوب فلا تدوم). (اللُّمع، السراج الطوسي ص ٦٦)

- والحال يأتي من فضل الله ﷻ، وليس من طريق المجاهدات والعبادات، فالأحوال مواهب، والمقامات مكاسب.

- لذلك قال أهل التصوف: (الأحوال تأتي من عين الجود، والمقامات تحصل ببذل المجهود). (طلائع الصوفية، أبو العزائم جاد الكريم بكير ص٢٤)

- من هذا القبيل ما حدث من حال مع الصحابي الجليل حنظلة ﷺ: فقد روى حَنْظَلَةُ الأُسَيِّدِيُّ وَكَانَ مِنْ كُتَّابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: لَقِيَنِي أَبُو بَكْرٍ ﷺ فَقَالَ: كَيْفَ أَنْتَ يَا حَنْظَلَةُ قَالَ قُلْتُ: نَافَقَ حَنْظَلَةُ قَالَ: سُبْحَانَ اللَّهِ مَا تَقُولُ قَالَ قُلْتُ: نَكُونُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ حَتَّى كَأَنَّا رَأْيَ عَيْنٍ فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَافَسْنَا الأَزْوَاجَ وَالأَوْلاَدَ وَالضَّيْعَاتِ فَنَسِينَا كَثِيراً قَالَ أَبُو بَكْرٍ: فَوَ اللَّهِ إِنَّا لَنَلْقَى مِثْلَ هَذَا. فَانْطَلَقْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ حَتَّى دَخَلْنَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قُلْتُ نَافَقَ حَنْظَلَةُ يَا رَسُولَ اللَّهِ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَمَا ذَاكَ».

قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ نَكُونُ عِنْدَكَ تُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ حَتَّى كَأَنَّا رَأْيَ عَيْنٍ فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِكَ عَافَسْنَا الأَزْوَاجَ وَالأَوْلاَدَ وَالضَّيْعَاتِ نَسِينَا كَثِيراً. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ أَنْ لَوْ تَدُومُونَ عَلَى مَا تَكُونُونَ عِنْدِي وَفِي الذِّكْرِ لَصَافَحَتْكُمُ الْمَلاَئِكَةُ عَلَى فُرُشِكُمْ وَفِي طُرُقِكُمْ وَلَكِنْ يَا حَنْظَلَةُ سَاعَةً وَسَاعَةً». ثَلاَثَ مَرَّاتٍ. (أخرجه مسلم)

- (ويذهب الإمام الغزالي في تعريفه للمقام و الحال مذهب السراج الطوسي فالوصف إنما يسمى مقاماً إذا ثبت وأقام، و إنما يسمى حالاً إذا كان عارضاً سريع الزوال). (إحياء علوم الدين، الغزالي جزء ٤ ص ١٣٩)

- وبالرغم من تلك التعريفات إلا أن التداخل قائم بين المقام و الحال، و قد عدَّ السهروردي الضابط المفرق بينهما اللفظ والعبارة إذ (أن اللفظ والعبارة عنهما مشعر بالفرق فالحال سُمي حالاً لتحوله والمقام مقاماً لثبوته واستقراره).

(عوارف المعارف ص ٤٢٣)

- (ويرى أهل التصوف أن كل فضيلة لا تستغني مقاماً عن حال إذ أن الحال مقدمة المقام فلابد من أن يوجد فيها حال ومقام ففي الزهد حال ومقام وفي التوكل حال ومقام وفي الرضا حال ومقام إذاً فالشيء بعينه قد يكون حالاً ثم يصير مقاماً لأنه يتحول أما المقام فهو ثابت). (المرجع السابق ص ٤٢٥)

- ولأهمية هذه المقامات والأحوال، ولقيام الطريق عليها كان لكل إمام من أئمة التصوف فيها مذهب.

- هذا وقد تحدث علماء التصوف عن مقامات وأحوال كثيرة وفصلوا فيها الحديث أتناول أهمها بالشرح المبسط في الباب التالي.

الباب الرابع

أهم المقامات والأحوال

١- التوبة

٢- المحاسبة

٣- المحبة

٤- التقوى

٥- الإخلاص

أولاً- مقام التوبة

- قال أبو يعقوب يوسف بن حمدان السوسي رحمه الله وهو من أعلام التصوف: (أول مقام من مقامات المنقطعين إلى الله تعالى التوبة). (اللمع، السراج الطوسي ص٦٨)

- (التوبة أول منزل من منازل السالكين، وأول مقام من مقامات الطالبين، **وحقيقة التوبة في اللغة**: الرجوع، يقال: تاب أي رجع، **فالتوبة**: الرجوع عما كان مذموماً في الشرع إلى ما هو محمود فيه). (الرسالة القشيرية، القشيري ص٩١)

- **فالتوبة إذاً**: هي رجوع العبد إلى ربه من الأوصاف المذمومة في الشرع إلى الأوصاف المحمودة فيه، وهي مبدأ طريق السالكين، ومفتاح سعادة المريدين، وشرط في صحة السير إلى الله رب العالمين.

- ولقد زخر القرآن الكريم بالآيات الدالة على هذا المقام وساق أهل التصوف بعضاً منها للاستدلال على هذا المقام كما في قوله تعالى:

﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١].

- وقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [التحريم: ٨].

- قال أبو طالب المكي (واعظ زاهد، فقيه): (في الآية الأولى إنها خطاب للعموم وفي الثانية إنها خطاب للخصوص). (قوت القلوب جزء ١ ص ١٧٩)

- وكان الرسول المعصوم عليه الصلاة السلام كثيراً ما يجدد التوبة ويكرر الاستغفار تعليماً للأمة وتشريعاً فقد روى الأغرّ بن يسار المزني ﷺ عن النبي ﷺ قال: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ تُوبُوا إِلَى اللَّهِ فَإِنِّي أَتُوبُ فِي الْيَوْمِ إِلَيْهِ مِائَةَ مَرَّةٍ». (أخرجه مسلم)

- وكان أصحاب النبي ﷺ يعدون له في المجلس الواحد قبل أن يقوم: «رَبِّ اغْفِرْ لِي وَتُبْ عَلَيَّ إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ». (رياض الصالحين، الإمام النووي ص٢٢)

- قَالَ العلماءُ: التَّوْبَةُ وَاجبَةٌ مِنْ كُلِّ ذَنْب، فإنْ كَانتِ المَعْصِيَةُ بَيْنَ العَبْدِ وبَيْنَ اللهِ تَعَالَى لاَ تَتَعلَّقُ بحقّ آدَمِيٍّ فَلَهَا ثَلاثَةُ شُرُوط:

أحَدُها: أنْ يُقلِعَ عَنِ المعصيَةِ.

والثَّاني: أَنْ يَنْدَمَ عَلَى فِعْلِهَا.

والثَّالثُ: أنْ يَعْزِمَ أَنْ لا يعُودَ إِلَيْهَا أَبداً. فَإِنْ فُقِدَ أَحَدُ الثَّلاثَةِ لَمْ تَصِحَّ تَوبَتُهُ.

وإنْ كَانَتِ المَعْصِيةُ تَتَعَلَّقُ بآدَمِيٍّ فَشُرُوطُهَا أَرْبَعَةٌ: هذه الثَّلاثَةُ، وأنْ يَبْرَأَ مِنْ حَقّ صَاحِبِها، فَإِنْ كَانَتْ مالاً أَوْ نَحْوَهُ رَدَّهُ إِلَيْه، وإنْ كَانَت حَدَّ قَذْف ونَحْوَهُ مَكَّنَهُ مِنْهُ أَوْ طَلَبَ عَفْوَهُ، وإنْ كَانَت غِيبَةً استَحَلَّهُ مِنْهَا. ويجِبُ أنْ يَتُوبَ مِنْ جَميعِ الذُّنُوبِ).

(رياض الصالحين، الإمام النووي ص ٢٢)

- قال رسول الله ﷺ: «مَنْ كَانَتْ لَهُ مَظْلَمَةٌ لأَحَد مِنْ عِرْضِه أَوْ شَيْءٍ فَلْيَتَحَلَّلْهُ مِنْهُ الْيَوْمَ، قَبْلَ أَنْ لاَ يَكُونَ دِينَارٌ وَلاَ دِرْهَمٌ، إِنْ كَانَ لَهُ عَمَلٌ صَالِحٌ أُخِذَ مِنْهُ بِقَدْرِ مَظْلَمَتِهِ، وَإِنْ لَمْ تَكُنْ لَهُ حَسَنَاتٌ أُخِذَ مِنْ سَيِّئَاتِ صَاحِبِهِ فَحُمِلَ عَلَيْهِ».

(أخرجه البخاري في صحيحه عن أبي هريرة ﷺ)

- وقال ﷺ: «أَتَدْرُونَ مَنِ الْمُفْلِسُ؟ قَالُوا: الْمُفْلِسُ فِينَا يَا رَسُولَ اللهِ، مَنْ لاَ دِرْهَمَ لَهُ، وَلاَ مَتَاعَ، قَالَ: الْمُفْلِسُ مِنْ أُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْ يَأْتِي بِصَلاَةٍ، وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ عِرْضَ هَذَا، وَقَذَفَ هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا، فَيُقْعَدُ فَيَقْتَصُّ هَذَا مِنْ حَسَنَاتِه، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِه، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ، قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ، أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ، فَطُرِحَ عَلَيْهِ، ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ».

(أخرجه أحمد في مسنده عن أبي هريرة ﷺ)

- هذا وإن الله ﷻ يحب التوابين، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢].

- ويفرح الله ﷻ بتوبة عبده فرحاً شديداً بين ذلك حديث متواتر عن النبي ﷺ رواه ابن مسعود، والبراء بن عازب، والنعمان بن بشير، وأبو هريرة، وأنس بن مالك ﷺ قال رسول الله ﷺ: «لَلَّهُ أَشَدُّ فَرَحاً بِتَوبَةِ عَبْدِه حِينَ يتوبُ إِلَيْه مِنْ أَحَدِكُمْ كَانَ عَلَى رَاحلَته بأرض فَلاة، فَانْفَلَتَتْ منْهُ وَعَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابهُ فأيسَ منْهَا، فَأتى شَجَرَةً فاضطَجَعَ في ظلِّهَا وقد أيسَ منْ رَاحلَته، فَبَينَما هُوَ كَذَلكَ إِذْ هُوَ بها قائمَةً عندَهُ، فَأَخَذَ بخطامهَا، ثُمَّ قَالَ منْ شدَّة الفَرَحِ: اللَّهُمَّ أَنْتَ عَبدِي وأنا رَبُّكَ! أَخْطَأَ منْ شدَّة الفَرَحِ». (أخرجه مسلم في صحيحه)

- والله ﷻ يحب من عبده إذا أذنب أن يتوب، وقد جعل له باب التوبة مفتوحاً ليل نهار، فعن أبي موسى الأشعري ﷺ عن النبي ﷺ قال: «إِنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ، وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا». (أخرجه مسلم في صحيحه)

- وعندما يتوب المسلم فالله ﷻ قد يقبل توبته ويمحو سيئاته ويعفو عنه، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾. [الشورى: ٢٥]

- وقال رسول الله ﷺ: «التَّائِبُ مِنَ الذَّنْبِ كَمَنْ لاَ ذَنْبَ لَهُ».

(أخرجه ابن ماجه في سننه عَنْ أَبِي عُبَيْدَةَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ عَنْ أَبِيهِ)

- ولابد لمن سلك طريق التصوف وابتدأ بمقام التوبة أن يكثر من الاستغفار لأنه من أسباب قبول التوبة، والاستغفار - مصدر فعله استغفر- أي طلب الغفران، والغفران من الله للعبد أن يصونه عن العذاب فيقبل توبته، ويبعده عن المهالك، ولقد جاءت في القرآن الكريم آيات كثيرة تحث على الاستغفار منها قوله تعالى حكاية عن سيدنا نوح ﷺ: ﴿ثُمَّ إِنِّىٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾ [نوح: ٩-١١].

- وقال سبحانه: ﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ ۖ وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ [هود: ٣].

- ويقول عزَّ من قائل: ﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ﴾ [هود: ٥٢].

- وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١١٠]

- وقال جل وعلا: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾.

[النصر: ٣]

- وقال ﷻ: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٣].

- يقول الإمام علي كرم الله وجهه: (ثنتان تُؤمنان من العذاب، وقد رفعت إحداهما وبقيت الثانية، وتلا هذه الآية، ثم قال: العجب ممن يهلك، ومعه النجاة، قيل وما هي؟ قال: الاستغفار، وقال: ما ألهم الله سبحانه عبداً الاستغفار، وهو يريد أن يعذبه). (إحياء علوم الدين، الغزالي جزء١ ص٣٢٠)

- وقد تحدث النبي ﷺ عن أهمية الاستغفار في أحاديث كثيرة منها: «ألا أدلكم على دائكم ودوائكم ألا إن داءكم الذنوب ودواءكم الاستغفار».

(أخرجه البيهقي والديلمي عن أنس ﷺ)

- وقال ﷺ: «مَنْ لَزِمَ الاِسْتِغْفَارَ جَعَلَ اللَّهُ لَهُ مِنْ كُلِّ ضِيقٍ مَخْرَجاً وَمِنْ كُلِّ هَمٍّ فَرَجاً وَرَزَقَهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ».

(أخرجه أبو داود وابن ماجه عن ابن عباس رضي الله عنهما)

- وقال ﷺ: «إن للقلوب صدأ كصدأ النحاس وجلاؤُها الاستغفار».

(أخرجه البيهقي في شعبه عن أنس ﷺ)

- وتحدث النبي ﷺ عن نفسه فقال: «إِنَّهُ لَيُغَانُ (وغين على الرجل ركب قلبه السهو والغفلة) عَلَى قَلْبِي وَإِنِّي لأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ فِي الْيَوْمِ مِائَةَ مَرَّةٍ».

(أخرجه مسلم في صحيحه عن الأغر بن المزني ﷺ)

- وينبغي للسالك طريق التصوف وهو طريق الله ﷻ في أول مقاماته التوبة، وأن تكون توبته توبة نصوحاً، والنصح في التوبة هو تخليصها من كل غش وفساد، وأن يكون عهد بينه وبين الله ألا يعود إلى ما كان عليه من الذنوب.

- قال سعيد بن المسيب: (توبة نصوح: تنصحون بها أنفسكم). (تفسير القرطبي)

- وقال الحسن البصري: (هي أن يكون العبد نادماً على ما مضى مجمعاً على ألا يعود إليه). (تزكية النّفُوسِ، د.أحمد فريد ص٧٩)

- وقال الواسطي أبو الحسن علي بن الحين بن أحمد الشافعي الزاهد:

(التوبة النصوح لا تبقي على صاحبها أثراً من المعصية سراً ولا جهراً).

(الرسالة القشيرية، القشيري)

- وينبغي لهذا السالك أن يبدأ طريقه إلى الله بهذه التوبة النصوح من كل ما مضى من الذنوب المتعلقة بحق الله ﷻ قبل سلوكه، وينبغي له أن يرد للآخرين جميع حقوقهم عليه، ثم ينبغي له بعد ذلك أن يبتعد عن الذنوب صغيرها وكبيرها فإن غفل وارتكب ذنباً فعليه أن يستغفر الله ﷻ من ذلك الذنب ويتوب إليه مباشرة، وأن يكون ذلك ديدنه طيلة حياته.

- وينبغي لهذا السالك إذا غفل عن التوبة، واستغرق في ذنوبه مدة من الزمان أن يعاود الرجوع إلى الله ويتوب إليه لأن الله تواب رحيم ويقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات.

وقال أَبو هُرَيْرَةَ ﷺ سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يقول: «إِنَّ عَبْداً أَصَابَ ذَنْباً - وَرُبَّمَا قَالَ: أَذْنَبَ ذَنْباً - فَقَالَ: رَبِّ أَذْنَبْتُ - وَرُبَّمَا قَالَ: أَصَبْتُ - فَاغْفِرْ لِي فَقَالَ رَبُّهُ: أَعَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبّاً يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ به غَفَرْتُ لعَبْدِي. ثُمَّ مَكَثَ مَا شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ أَصَابَ ذَنْباً أَوْ أَذْنَبَ ذَنْباً، فَقَالَ: رَبِّ أَذْنَبْتُ - أَوْ أَصَبْتُ - آخَرَ فَاغْفِرْهُ. فَقَالَ: أَعَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبّاً يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ به غَفَرْتُ لعَبْدِي، ثُمَّ مَكَثَ مَا شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ أَذْنَبَ ذَنْباً - وَرُبَّمَا قَالَ: أَصَابَ ذَنْباً — قَالَ، قَالَ: رَبِّ أَصَبْتُ - أَوْ أَذْنَبْتُ - آخَرَ فَاغْفِرْهُ لِي. فَقَالَ: أَعَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبّاً يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ غَفَرْتُ لِعَبْدِي - ثَلاَثاً - فَلْيَعْمَلْ مَا شَاءَ». (أخرجه البخاري)

- حكي أن شاباً عبد الله ﷻ عشرين سنة، ثم عصاه عشرين سنة، ثم نظر في المرآة فرأى الشيب في لحيته فساءه ذلك، فقال: إلهي أطعتك عشرين سنة، ثم عصيتك عشرين سنة، فإذا رجعت إليك فهل تقبلني؟ فسمع نداءً يقول: أحببتنا فأحببناك، وتركتنا فما تركناك، ورزقناك وأعطيناك، وعصيتنا فأمهلناك، وإن رجعت إلينا قَبِلْنَاك.

- قال أحد المربين العارفين: إن الشاب إذا بكى من ذنوبه، واعترف بعيوبه إلى سيده ومحبوبه، وقال: إلهي أنا أسأت، فيقول الله تعالى: وأنا سترت، فيقول: إلهي أنا ندمت، فيقول الله تعالى: وأنا علمت، فيقول إلهي رجعت، فيقول الله تعالى: وأنا قبلت، وعفوت، وغفرت.

- أخيراً ينبغي على السالك مقام التوبة أن يراقب نفسه فلا يرتكب ذنباً بحق الله فهو في صحوة دائمة ومراقبة مستمرة، ومع ذلك قد يغفو أحياناً أو يسهو فيقع في الذنب فيشعر به مباشرة، وكأنه وقع عليه جبل، كما ورد في الحديث فيسرع في الإقلاع عنه والندم عليه ثم يستغفر الله كثيراً، ويبكي ويعاهد الله ألا يعود لمثله مبتعداً عن أصدقاء السوء ومجالسهم، وعما سبب له تلك الغفلة، ثم يكثر من الحسنات والصدقات إلى أن يشعر أن الله ﷻ قد غفر له ذنبه، ومحا عنه أخطاءه، وقبله وسامحه، يدعو دائماً بدعاء النبي: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ

وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ وَمَا أَسْرَفْتُ وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي أَنْتَ الْمُقَدِّمُ وَالْمُؤَخِّرُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ». (أخرجه أبو داود في سننه عن علي ﷺ)

وكان رسول الله ﷺ يقول: «ربِّ اغْفِر وارْحَم وتجاوَزْ عما تعلم، إِنَّك أنت العليُّ الأعظم». (جامع الأصول من أحاديث الرسول عن أنس بن مالك ﷺ)

ثانياً: مقام المحاسبة

- **المحاسبة:** (هي تهيئة الوازع الديني في النفس، وتربيتها على تنمية اللوم الباطني الذي يجردها من كل ما يقف أمامها عقبة في طريق الصفاء والمحبة والإيثار والإخلاص).

(حقائق عن التصوف، عبد القادر عيسى ص٢٣٥)

- وقد أشار الله ﷻ في قرآنه إلى محاسبة النفس فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ [الحشر: ١٨].

- قال الإمام ابن القيم: (هذه الآية تدل على وجوب محاسبة النفس).

(إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان جزء١ ص٨٤)

- وقال الإمام ابن كثير في تفسيره لهذه الآية أي: (حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وانظروا ماذا ادخرتم لأنفسكم من الأعمال الصالحة ليوم معادكم وعرضكم على ربكم، واعلموا أنه عالِمٌ بجميع أعمالكم وأحوالكم لا تخفى عليه منكم خافية).

(تفسير ابن كثير جزء رابع ص٣٦٥)

- وأشار النبي ﷺ إليها أيضاً فقال: «الْكَيِّسُ (أي العاقل) مَنْ دَانَ نَفْسَهُ (أي حاسبها) وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ وَالْعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَنَّى عَلَى اللَّهِ».

(أخرجه الترمذي وابن ماجه عن شداد بن أوس ﷺ)

- **ولمحاسبة النفس خطوات متعددة:**

أولاً: مشارطتها، وذلك بركون المسلم إلى نفسه، والحديث معها مبيناً لها حقيقتها، وما يجب عليها أن تسير عليه من اتباع الشرع، وأوامر الله، وسنة رسوله، والبعد عن الهوى والشهوات والمعاصي والمحرمات، موضحاً لها نتائج كل طريق منهما في الدنيا والآخرة، فيشترط عليها اتباع طريق الحق والبعد عن طريق الباطل.

ثانياً: إرشادها إلى الحق والخير والنجاح والفلاح، والسير على منهجه وسلوك طرقه وأساليبه.

ثالثاً: مراقبتها في حركاتها وسكناتها، وفي أقوالها وأعمالها، وفي نياتها وظاهرها، وفي كل أمورها.

رابعاً: محاسبتها على كل أعمالها وما يصدر عنها.

ومحاسبة النفس نوعان: نوع قبل العمل، ونوع بعده.

فأما النوع الأول: فهو أن يقف عند أول همه وإرادته، ولا يبادر إلى العمل حتى يتبين له رجحانه على تركه.

قال الحسن رحمه الله: (رحم الله عبدا وقف عند همه، فإن أحدا لا يعمل حتى يهم، فإن كان لله ﷻ مضى، وإن كان لغير الله أمسك). (أخرجه البيهقي في شعبه)

أما النوع الثاني: فهو محاسبة النفس بعد العمل، وهو أربعة أنواع:

أحدها: محاسبتها على طاعة قصرت فيها من حق الله فلم تؤدها على الوجه الذي ينبغي، فيحاسب نفسه عن تقصيرها، ويلزمها أداءها بأفضل ما يجب أن تكون.

الثاني: أن يحاسب نفسه على كل عمل كان تركه خيراً له من فعله، فيحاسبها لماذا عملت به؟ أليس من الأولى تركه، وأنَّ عليها ألا تقوم به مرة ثانية.

الثالث: أن يحاسب نفسه على أمرٍ مباح أو معتاد، لِمَ فعله؟ وهل أراد به الله والدار الآخرة؟ فيكون رابحاً، أو أراد به الدنيا وعاجلها، فيخسر ذلك الربح، ويفوته الظفر به.

الرابع: أن يحاسب نفسه على أمرٍ فعْلُهُ فيه معصية لله ﷻ، وهنا يكون حسابه لنفسه شديداً، وعتابه لها كبيراً، كيف ارتكبت الحرام؟ كيف فعلت الذنب؟ كيف فعلت المنكرات؟ كيف عصت ربها؟ كيف وكيف وكيف...

ثم يبكي على ما أحدث ويندم، ويستغفر ويتوب ويتصدق، ويعاهد الله ألا يعود إلى مثل ذلك أبداً.

- وجماع ذلك أن يحاسب نفسه أولاً على الفرائض، فإن تذكر منها نقصاً تداركه إما بقضاء أو إصلاح، ثم يحاسبها على المناهي، فإن عرف أنه ارتكب منها شيئاً، تداركه بالتوبة والاستغفار، والصدقات والحسنات الماحية، قال تعالى:

﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود: ١١٤].

- ثم يحاسب نفسه على الغفلة، فإن كان قد غفل عما خُلق له، تداركه بالذكر والإقبال على الله تعالى، ثم يحاسبها بما تكلم به، أو مشت رجلاه، أو بطشت يداه، أو سمعته أذناه.

- ماذا أردتُ بهذا؟ ولِمَ فعلت؟ ولمن فعلته؟ وعلى أي وجهٍ فعلته؟

- ويعلم أنه لابد أن يُنشر لكل حركة وكلمة ديوانان: لِمَ فعلته؟ وكيف فعلته؟

- فالأول سؤال عن الإخلاص، والثاني سؤال عن المتابعة، قال تعالى:

﴿لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ۚ وَأَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٨].

- فإذا سئل الصادقين عن صدقهم، وحوسبوا على صدقهم، فما الظنّ بالكاذبين!

- وقد درج السلف الصالح على محاسبة أنفسهم محاسبة شديدة، ولم يغفلوا عنها أبداً، وقد أعطونا دروساً نافعة بذلك أذكر منها:

- قول سيدنا عمر بن الخطاب ﷺ: «حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوا أنفسكم قبل أن توزنوا، فإنه أهون عليكم في الحساب غداً أن تحاسبوا أنفسكم اليوم وتزيّنوا للعرض الأكبر يوم تعرضون لا تخفى منكم خافية».

(أخرجه أحمد بن حنبل في الزهد)

- وكتب عمر بن الخطاب ﷺ إلى أبي موسى الأشعري ﷺ وكان من عماله: «أن حاسب نفسك في الرخاء قبل حساب الشدة، فإنه من حاسب نفسه في الرخاء

قبل حساب الشدة عاد مرجعه إلى الرضا والغبطة ومن ألهته حياته وشغله بهواه عاد مرجعه إلى الندامة والحسرة، فتذكر ما توعظ به لكي تنتهي عما ينتهى عنه».

(أخرجه البيهقي في شعبه)

- عن أنس بن مالك ﷺ قال: سمعت عمر بن الخطاب ﷺ يوما وخرجت معه حتى دخل حائطا فسمعته يقول وبيني وبينه جدار وهو في جوف الحائط: «عمر بن الخطاب أمير المؤمنين بخ والله لتتقين الله، ابن الخطاب أو ليعذبنك».

(محاسبة النفس، ابن أبي الدنيا ص٤)

- وقال الحسن: (المؤمن قوام على نفسه يحاسب نفسه لله ﷻ، وإنما خف الحساب يوم القيامة على قوم حاسبوا أنفسهم في الدنيا، وإنما شق الحساب يوم القيامة على قوم أخذوا هذا الأمر من غير محاسبة، إن المؤمن يفجؤه الشيء ويعجبه، فيقول والله إني لأشتهيك وإنك لمن حاجتي، ولكن والله، ما صلة إليك هيهات، حيل بيني وبينك ويفرط منه الشيء فيرجع إلى نفسه فيقول: هيهات ما أردت إلى هذا وما لي ولهذا والله ما أعذر بهذا والله لا أعود إلى هذا أبدا إن شاء الله، إن المؤمنين قوم أوقفهم القرآن وحال بينهم وبين هلكتهم إن المؤمن أسير في الدنيا يسعى في فكاك رقبته لا يأمن شيئاً حتى يلقى الله يعلم أنه مأخوذ عليه في سمعه، وفي بصره، وفي لسانه، وفي جوارحه، مأخوذ عليه في ذلك كله). (محاسبة النفس، ابن أبي الدنيا ص١٨)

- وقال الحسن أيضاً: (أيسر الناس حساباً يوم القيامة الذين يحاسبون أنفسهم في الدنيا فوقفوا عند همومهم وأعمالهم فإن كان الذي هموا به لهم مضوا وإن كان عليهم أمسكوا قال: وإنما يثقل الأمر يوم القيامة على الذين جازفوا الأمور في الدنيا أخذوها من غير محاسبة فوجدوا الله عز وجل قد أحصى عليهم مثاقيل الذر وقرأ: ﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ (الكهف: ٤٩)). (محاسبة النفس، ابن أبي الدنيا ص١٥٦)

- قال وهب بن منبه مكتوب في حكمة آل داود: (حق على العاقل أن لا يشغل عن أربع ساعات، ساعة يناجي فيها ربه، وساعة يحاسب فيها نفسه، وساعة يُفْضِي فيها إلى إخوانه الذين يخبرونه بعيوبه ويصدقونه عن نفسه، وساعة يخلي فيها بين نفسه وبين لذاتها فيما يحل ويجمل، فإن هذه الساعة عون على هذه الساعات، وإجمام للقلوب). (أخرجه البيهقي في شعبه)

- وعن ميمون بن مهران (فقيه من القضاة، وكان ثقة في الحديث) قال: (لا يكون العبد من المتقين حتى يحاسب نفسه أشد من محاسبة شريكه والشريكان يتحاسبان بعد العمل). (إحياء علوم الدين، الغزالي جزء٧ ص٥١)

- ومن أهم فوائد محاسبة النفس الاطلاع على عيوبها، ومن لن يطلع على عيب نفسه لم يمكنه إزالته، فإذا اطلع على عيبها، مقتها في ذات الله تعالى.

- عن أبي الدرداء ﷺ قال: (لا يفقه الرجل كل الفقه حتى يمقت الناس في جنب الله ثم يرجع إلى نفسه فيكون لها أشد مقتاً). (أخرجه ابن عساكر في جامع الأحاديث)

- وينبغي للمؤمن ألا يكتفي بالمقت فقط، وإنما يسعى إلى معالجة أمراضه، ويسعى إلى دواء شفائه.

- ويذكر الإمام ابن قيم الجوزية ما يعين على محاسبة النفس فيقول: (ويعينه على هذه المراقبة والمحاسبة: معرفته أنه كلما اجتهد فيها اليوم استراح منها غدا إذا صار الحساب إلى غيره وكلما أهملها اليوم اشتد عليه الحساب غداً).

(إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان، ابن قيم الجوزية جزء١ ص٨٠)

- ويعينه عليها أيضاً: (معرفته أن ربح هذه التجارة سكنى الفردوس والنظر إلى وجه الرب سبحانه وخسارتها دخول النار والحجاب عن الرب تعالى فإذا تيقن هذا هان عليه الحساب اليوم فحق على الحازم المؤمن بالله واليوم الآخر أن لا يغفل عن محاسبة نفسه والتضييق عليها في حركاتها وسكناتها وخطراتها وخطواتها فكل

نفس من أنفاس العمر جوهرة نفيسة لا حظ لها يمكن أن يشتري بها كنـــزاً من الكنوز لا يتناهى نعيمه أبد الآباد فإضاعة هذه الأنفاس أو اشتراء صاحبها بها ما يجلب هلاكه: خسران عظيم لا يسمح بمثله إلا أجهل الناس وأحمقهم وأقلهم عقلاً وإنما يظهر له حقيقة هذا الخسران يوم التغابن: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾ (آل عمران: ٣٠).

(إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان، ابن قيم الجوزية جزء ١ ص٨٠).

- ويرتبط بمحاسبة النفس مجاهدتها إن وجدها نزاعة للشر، محبة للمعاصي، مسرعة إلى الهوى، تواقة للشهوات، مهملة للفرائض، تاركة للنوافل، مبتعدة عن الطاعات، فوجب عليه أن يجاهدها فيما تريده، ويخالفها فيما تحب

- ومعنى يجاهد نفسه أي: يمنع نفسه أن ترتكب المحرمات، ويخالفها في حبها للمعاصي والأهواء والشهوات، وينهاها عن كل ما يبعدها عن الله ﷻ.

- ومجاهدة النفس تحتاج إلى إرادة قوية، وعزيمة صادقة، تنبع من إيمان هذا المسلم العميق، ومحبة الله سبحانه وتأييد الله له ومعونته، فهي تشبه مجاهدة العدو وقتاله، فلذلك سميت بالمجاهدة، بل جعلها النبي ﷺ الجهاد الأكبر فقال: (رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر، جهاد النفس). (أخرجه البيهقي في شعبه عن جابر ﷺ)

- وقال ﷺ: (الْمُجَاهِدُ مَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ فِي اللَّهِ ﷻ).

(أخرجه الطبراني في الكبير عن فضالة بن عبيد)

- وقد يُسائلُ المسلمُ نفسه كيف تكون المجاهدة؟

- أجاب القشيري عن هذا السؤال بقوله: (واعلم أن أصل المجاهدة وملاكها: فطم النفس عن المألوفات، وحملها على خلاف هواها في عموم الأوقات.

وللنفس صفتان مانعتان لها من الخير: انهماك في الشهوات، وامتناع عن الطاعات

فإذا جمحت عند ركوب الهوى وحب كبحها بلجام التقوى، وإذا حرنت عند القيام بالموافقات يجب سوقها على خلاف الهوى). (الرسالة القشيرية، القشيري ص٣٥)

- وأنواع المجاهدة كثيرة، وكل مسلم يليق به نوع منها ربما لا يليق بغيره، وذلك على قدر قوة المسلم وضعفه، وعلى قدر إرادته وقدرته، وبحسب زمانه ومكانه.

- فمن المجاهدة: الإكثار من الصلاة والصيام، والصدقة والنوافل، والذكر وقراءة القرآن، وغير ذلك مما فيه تقربٌ إلى الله، وبعدٌ عن هوى النفس.

- ومن المجاهدة مجالسة الصالحين، والعلماء العاملين، والإخوة المتقين، ففي ذلك عون على إبعاد النفس عن مُشتهياتها، وعن غيها ومعصيتها.

- ومن المجاهدة حرمان النفس من مشتهياتها ورغباتها وشهواتها، وذلك عن طريق الإقلال من الطعام والنوم، ومع الصيام والقيام، فإن ذلك يساعد على إضعافها، وإضعاف طلباتها.

ويتصل أيضاً بمحاسبة النفس معاتبة النفس ومعاقبتها وذلك إذا ارتكبت المعاصي أو قصرت في حق الله ﷻ، وتمادت في غيها وتقصيرها، حتى ترتدع ولا تعود إلى مثل ذلك.

فهو يعاتبها على ذلك، ويذكرها بالله ﷻ الذي لا تخفى عليه خافية، ويذكرها بالموت والحساب، والجزاء والنار والعقاب.

فإن لم تقنع بالمعاتبة عاقبها على تقصيرها، وإهمالها لحق ربها، وارتكابها للذنوب والمعاصي.

- والمقصود من معاقبتها، حرمانها من بعض حقوقها والمباحات لها من طعام أو شراب أو نوم أو راحة أو رحلة أو نزهة أو غير ذلك مما تشتهيه وتحبه وترغب فيه، مع الإكثار من تلاوة القرآن والذكر والصلاة والصوم والقيام والصدقات، وغير ذلك من أعمال الخير والطاعات، كي ترتدع عن غيها، وتقصيرها وإهمالها، وترجع إلى بارئها.

- وقد أورد المحاسبي جواباً عن سؤاله: كيف أعاتب نفسي على ما جنت؟ فقال:

(تفرق بينها وبين محابها، وتأخذ سوط الخشية لها بدوام الرعاية لها في سعيها، وتضاعف عليها أورادها، وتزيد في كدها، وتنقص من غذائها، وتقطعها عن ملاذها، وتجرعها غيظ التهديد زجراً لها، حتى يغلب سلطان رعايتك سلطان كبرها، فعند ذلك تذل في نفسها، وتخضع بعد كبرها، وتسقط من كَلَبها (شراهتها) وشرها، وتمر على الاستقامة إلى خالقها، ومن الله التوفيق). (الوصايا: ص٢٣١)

- **وأخيراً:** فنعلم أن معاتبة النفس سنة من سنن الصالحين دأبوا عليها كلما وجدوا من أنفسهم غفلة أو حباً لمعصية، وقد ذكر الغزالي في إحيائه كثيراً من هذه المعاتبة أنقل منها نموذجاً لمعاتبة الصالحين لأنفسهم أوردها المقدسي: (واعلم: أن أعدى عدوٍ لك نفسك التي بين جنبيك، وقد خلقت أمارة بالسوء، ميالة إلى الشر، وقد أمرت بتقويمها وتزكيتها وفطامها عن مواردها، وأن تقودها بسلاسل القهر إلى عبادة ربها، فإن أهملتها جمحت وشردت، و لم تظفر بها بعد ذلك، وإن لزمتها بالتوبيخ رجونا أن تصير مطمئنة، فلا تغفلن عن تذكيرها. وسبيلك أن تقبل عليها، فتقرر عندها جهلها وغباوتها وتقول: يا نفس، ما أعظم جهلك، تدعين الذكاء والفطنة وأنت أشد الناس غباوة وحمقاً، أما تعلمين أنك صائرة إلى الجنة أو النار؟ فكيف يلهو من لا يدري إلى أيتهما يصير؟! وربما اختطف في يومه أو في غده! أما تعلمين أن كل ما هو آت قريب، وأن الموت يأتي بغتة من غير موعد، ولا يتوقف على سن دون سن، بل كل نفس من الأنفاس يمكن أن يكون فيه الموت فجأة، وإن لم يكن الموت فجأة كان المرض فجأة، ثم يفضي إلى الموت. فمالك لا تستعدين للموت وهو قريب منك؟! يا نفس، إن كانت جرأتك على معصية الله تعالى لاعتقادك أن الله لا يراك فما أعظم كفرك، وإن كانت مع علمك باطلاعه عليك، فما أشد وقاحتك، وأقل حياءك! ألك طاقة على عذابه؟ جربي ذلك بالقعود ساعة في الحمام، أو قرِّبي أصبعك من النار، يا نفس إن كان

المانع لك من الاستقامة حب الشهوات، فاطلبي الشهوات الباقية الصافية عن الكدر، ورب أكلة منعت أكلات. وما قولك في عقل مريض أشار عليه الطبيب بترك الماء البارد ثلاثة أيام ليصح ويتهيأ لشربه طول العمر؟ فما مقتضى العقل في قضاء حق الشهوة؟ أيصبر ثلاثة أيام ليتنعم إلى الأبد أم يقضي شهوته في الحال ثم يلزمه الألم أبداً، فجميع عمرك بالإضافة إلى الأبد، الذي هو مدة نعيم أهل الجنة وعذاب أهل النار أقل من ثلاثة أيام بالإضافة إلى جميع العمر، بل أقل من لحظة بالإضافة إلى عمر الدنيا. وليت شعري! ألم الصبر عن الشهوات أشد وأطول، أم ألم النار في الدركات؟ فمن لا يطيق الصبر على ألم المجاهدة، كيف يطيق ألم العذاب في الآخرة؟ أشغلك حب الجاه؟ أَمَا بعد ستين سنة أو نحوها، لا تبقين أنت ولا من كان لك عنده جاه. هلا تركت الدنيا لخسة شركائها، وكثرة عنائها وخوفاً من سرعة فنائها؟ أتستبدلين بجوار رب العالمين صف النعال في صحبة الحمقى؟ قد ضاع أكثر البضاعة، وقد بقيت من العمر صبابة، ولو استدركت ندمت على ما ضاع، فكيف إذا أضفت الأخير إلى الأول؟ اعملي في أيام قصار لأيام طول، وأعدي الجواب للسؤل. اخرجي من الدنيا خروج الأحرار قبل أن تكون خروج اضطرار إنه من كانت مطيته الليل والنهار سير به وإن لم يسر. تفكري في هذه الموعظة، فإن عدمت تأثيرها، فابكِ على ما أصبت به فمستقى الدمع من بحر الرحمة). (مختصر منهاج القاصدين، المقدسي ص٣٧٧).

ثالثاً: مقام المحبة

- المحبة هي الغاية القصوى من المقامات، والذروة العليا من الدرجات، فما بعد إدراك المحبة مقام إلا وهو ثمرة من ثمارها، وتابع من توابعها، ولا قبل المحبة مقام إلا وهو مقدم من مقدماتها.

الحُبُّ من العواطفِ الإنسانيةِ البشريةِ، التي تَكمُنُ في أعماقِ النفسِ، وتَظْهَرُ على الإنسانِ بِشْراً وسعادةً وسروراً.

- وأفضلُ تعريف للحب هو: (الميلُ الدائم في أعماق القلبِ الهائم)، وإيثار المحبوب على جميع المصحوب، وموافقة الحبيب في الشهد والمغيب. والمحبة عروس ومهرها النفوس ولها تخضع الرقابُ والرؤوسُ وهي للعارف نور، وللجاهل نارٌ.

- والحب مأخوذة من الحُبِّ الذي هو إناء واسع يوضع فيه الشيء فيمتلئ به بحيث لا يسع غيره، لذلك قلب المحب ليس فيه سعة لغير محبوبه.

- وللإنسانِ محبوباتٌ كثيرةٌ، منها محبة الله ﷻ ومحبة الرسول ﷺ ومحبة الصالحين ومحبة الوالدين، ومحبة الزوجة، ومحبة الأولاد، ومحبة الأرحام والأقارب، ومحبة المؤمنين إلى غير ذلك ولكلِّ محبوب نوعٌ من الحب يختلفُ عن المحبوبات الأخرى ويرتبطُ بهذا الحبِ مُتعلّقات تختلف من حبٍّ إلى آخر، فحبُّ الله يختلفُ عن حبِّ الوالدين وحبُّ الوالدينِ يختلفُ عن حبِّ الزوجةِ ويختلف عن حبِّ الأولادِ.

- وهكذا يمكنُ للقلبِ أن يُحبَّ الجميعَ بآنٍ واحدٍ ولكن لكلِّ محبوبٍ تَوَجُّهٌ خاصٌ من القلبِ نَحوَهُ.

- وفي مقام المحبة سنتناول الحديث عن محبة الله ﷻ ومحبة رسوله ﷺ ومحبة الصالحين.

➢ أولاً - محبة الله ﷻ:

- أهم محبوب عند المسلمِ اللهُ ﷻ، بل محبةُ اللهِ لا يماثلُها شيءٌ كما قالَ تعالى مبيناً الفرق في المحبةِ بين الكافرِ والمؤمن: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ [البقرة: ١٦٥].

- ومحبةُ اللهِ هي الإيمانُ اليقينيُّ الحقُّ به، والأنسُ به والتقربُ إليه.

- وحبُّ اللهِ فرضٌ على كلِّ مسلمٍ.

- بل ويجب على المسلمِ ألا يسيطرَ عليه شيءٌ من محبوباتِ الدنيا، فيتقدَمَ حبُّه على حبِّ الله ﷻ قال سبحانه مبيناً ذلك: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [التوبة: ٢٤].

- وأكَّدَ الرسولُ ﷺ هذا المعنى، فقال ﷺ: «لا يؤمنُ أحدُكم حتى يكونَ اللهُ ورسولُهُ أحبَّ إليه مما سواهما». (أخرجه البخاري في صحيحه عن أنس ﷺ)

- ومن علاماتِ محبةِ اللهِ تعالى اتباعُ رسولِه ﷺ، قال تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [آل عمران: ٣١].

- أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام: (إني إنما خلقت الشهوات لضعفاء خلقي فإياك أن تعلق قلبك منها بشيء فأيسر ما أعاقبك به أن أنسخ حلاوة حبي من قلبك).

(حلية الأولياء، أبو نعيم الأصبهاني جزء١٠ ص٢٠)

- وكيف لا يُحبُّ المسلمُ ربَّهُ حباً عظيماً يَفُوقُ كلَّ حُبٍّ! وقد أَنْعَمَ اللهُ عليه بنعمٍ كثيرةٍ منها خَلْقُ الله له، وتعريفُهُ به وأخذُهُ بيده إليه، وتسخيرُ ما في الدنيا

جميعاً له قال ﷻ مذكّراً عبادَهُ بهذه النعمِ: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾.

[إبراهيم: ٣٤]

- وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ﴾ [النحل: ٥٣].

- ويقول الرسول ﷺ: «أَحِبُّوا الله لما يَغْذُوكُمْ من نعمه».

(أخرجه الترمذي في سننه عن ابن عباس رضي الله عنهما)

- كيف لا يحب القلب من لا يأتي بالحسنات إلا هو، ولا يجيبُ الدعواتِ ويُقيلُ العثراتِ، ويغفرُ الخطيئاتِ، ويَسْتِرُ العوراتِ، ويكْشِفُ الكُرُبات، ويُغيْثُ المستغيثينَ، ويقبلُ طلباتِ الداعينَ إلا هو؟

- فهو سبحانَه أحقُّ من ذُكِرَ، وَأَوْلَى من شُكِرَ، وأحقُّ من عُبِدَ، وأَجْدَرُ من حُمِدَ، وأَنْصَرُ من اسْتُنْصِرَ، وأرأفُ مَنْ مَلَكَ، وأجودُ من سُئِلَ، وَأَوْسَعُ من أعطى، وَأَرْحَمُ مَن استُرحِمَ، وأَكْرَمُ من نَصَرَ، وأَعَزُّ من التُجئَ إليه، وأكفى مَنْ تُوُكِّلَ عليه، وأرحمُ بعبدِه من الوالدةِ بوَلَدِها، وأشدُّ فرحاً بتوبةِ التائبِ من الفاقدِ لراحلتِه التي عليها طعامُهُ وشرابُه في الأرض المهْلَكَة، إذا يئسَ من الحياةِ ثم وجَدها، وهو المَلِكُ لا شريكَ له، والفردُ لا ندَّ لَهُ، كلُّ شيءٍ هالكٌ إلا وجْهَهُ.

- إن محبة الله ﷻ هي حياةُ القلوب، وغذاءُ الأرواحِ، وليس للقلبِ لذةٌ ولا فلاحٌ ولا حياةٌ إلا بها، وإذا فقَدها القلبُ كانَ أَلَمُهُ أعظمَ من ألمِ العينِ إذا فَقَدَتْ نورَها، والأُذنِ إذا فَقَدت سمعَها، بل إنَّ فسادَ القلبِ إذا خلا من محبةِ فاطرِه وبارئِه وإلهِه الحقِّ أعظمُ من فسادِ البدنِ إذا خلا من الرُوح وهذا الأمرُ لا يُصَدِّقُ به إلا من فيه حياةٌ، وما بجُرْحٍ بميتٍ إيلامُ، وأهمُّ علامةٍ على صِدْقِ المسلمِ في محبةِ اللهِ ﷻ طاعةُ اللهِ والتزامُ أوامرِه والبعدُ عن معصيتِه.

- قال الحسن بن محمد ابن الحنفية (ابن منظور: مختصر تاريخ دمشق جزء٢ ص٤١٧): من أحب حبيباً لم يعصه. ثم قال:

تعصي الإله وأنت تظهر حبـــه عار عليك إذا فعلـــت شـــنيع
لو كان حبك صادقاً لأطعتـــه إن المحب لمـــن أحـــب مطيـــع

- وهناك علامَاتٌ كثيرةٌ للمحبِّ الصادقِ ودلائلُ واضحةٌ، منها زُهْدُهُ في الدنيا وبكاؤُهُ على أخطائِهِ، وتسليمُهُ لأمرِ اللهِ ورضاؤُهُ بحكمِهِ سبحانَه قال يحيى بن معاذ: (قوت القلوب، أبو طالب المكي ص٤٦٤).

ومن الدلائِلِ زُهْدُهُ فيما يَـــرَى مـــن دارِ ذُلٍّ والنَعـــيم الزَّائـــل
ومن الدلائِلِ أن تَـــراهُ باكيـــاً أن قد رآه على قبـــيحِ فعائـــلِ
ومن الدلائِلِ أن تـــراهُ مُـــسَلِّماً كلَّ الأمورِ إلى المليكِ العـــادلِ
ومن الدلائِلِ أن تـــراهُ راضـــياً بمليكِهِ في كـــلِّ حُكْـــمٍ نـــازلِ

- وإذا أحبَّ العبد ربه وسكنت محبته في قلبه أنارت بأنوار المحبوب فأثرت وأثمرت في القلب سبعة أشياء وهي: إخلاص النية لله، والخوف من الله، ورجاء ثواب الله، والصدق مع الله، والتوكل على الله، وحسن الظن بالله، والشوق إلى الله.

- من أحبَّ اللهَ حقَّ المحبةِ هانَ عليه أن يَمْتَثِلَ أوامِرَه كامِلَةً، باذلاً في سبيلِهِ كلَّ ما يستطيع، مسروراً بما يُقَدِّمُهُ إرضاءً لمحبوبِهِ.

- لذلكَ فإنَّ هذه المحَبَة تدعو المسلم أن يتخلّى عن المفاسد بشتى أنواعِها وأشكالِها، وأن يبادر إلى الأمور الصالحة التي يحبُها الله ﷻ.

- وينبغي للمسلم أن يفتِّشَ قلبه ويتَعرَّفَ مقدارَ حُبِّه لله ويعلم أن كمالَ الإيمانِ باللهِ بكمال محبتِهِ ويعلم أيضاً أن الأسبابَ الجالبة لمحبة اللهِ كثيرةٌ أهمها عشرة ذكرها أحد العلماء الكبار الأوائل فقال:

(أولاً: الإكثارُ من قراءةِ القرآنِ بالتدبُّرِ والتَفَهُّمِ لمعانيه وتطبيقُ أوامِرِه والابتعادُ عن نواهِيهِ.

ثانياً: التقرب إلى الله ﷻ بالنوافل بعد الفرائض فإنها توصل إلى درجة المحبوبية بعد المحبة.

ثالثاً: دوامُ ذكرِهِ على كلِ حالٍ باللسانِ والقلبِ والعملِ والحالِ، فمن أحب شيئاً أكثرَ من ذِكرِه والله ﷻ يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾. [الأحزاب: ٤١]

رابعاً: إيثارُ محابِّهِ على محابِّكَ عند غَلَبَاتِ الهوى والسَّعيُ إلى محابِّهِ وإنْ صَعُبَ المُرْتَقَى.

خامساً: مطالعةُ القلبِ لأسماءِ اللهِ الحُسنى وصفاتِهِ العُلْيا ومُشاهَدَتُها ومَعرفتُها وتقلُّبُهُ في رياضها.

سادساً: مشاهَدَةُ برّه وإحسانِهِ وآلائِهِ ونعمِهِ الباطنة والظاهرةِ فإنها طريقٌ إلى محبته.

سابعاً: انكسار القلب بكليته بين يدي الله تعالى تَذَلُّلاً وتواضعاً.

ثامناً: الخلوةُ به وقت النزولِ الإلهي في الثلثِ الأخيرِ من الليلِ لمناجاتِهِ وتلاوةِ كلامِهِ والوقوفِ بالقلبِ بحضرتِهِ والتأدبِ بأدبِ العبوديةِ بينَ يديه ثم خَتْم ذلكَ بالاستغفارِ والتوبةِ.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِى وَلْيُؤْمِنُواْ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦].

وورد عن النبي ﷺ: «يَنزِلُ ربُنا تباركَ وتعالَى كلَّ ليلةٍ إلى السماءِ الدُّنيا حينَ يَبْقَى الثلثُ الأخيرُ من الليلِ الآخرِ يقولُ: منْ يدعوني فأستجيبَ له؟ من يَسْألني فأُعطيه؟ ومن يَستَغْفرني فأَغْفرَ له». (أخرجه البخاري)

تاسعاً: مجالسةُ المحبينَ الصادقين، والتقاطُ أطايبِ ثمراتِ كلامِهم كما يُنتقى أطايبُ الثَمَر.

عاشراً: مباعدة كل سبب يحول بين القلب وبين الله ﷻ).

(مدارج السالكين، ابن قيم الجوزية ص١١و١٢)

- جاء في كتاب إحياء علوم الدين، ورَد أنَّ اللهَ أوحى إلى بعضِ الصديقين:

(إنَّ لي عباداً يحُبوني وأُحبهُم، ويشتاقونَ إليَّ وأشتاقُ إليهم، ويذكروني وأذكرُهم، وينظرون إليَّ وأنظرُ إليهم، فإن سلكتَ طريقَهم أحببتُك، وإن عَدَلْتَ عن ذلك مقتُّك، قال: يا رب وما علامتُهم؟ قال: يُراعونَ الظِلالَ بالنهارِ كما يُراعي الراعي غَنَمه، ويَحنُّون إلى غروب الشمس كما تحنُّ الطيرُ إلى أوكارِها، فإذا جنَّهم الليلُ واختَلَطَ الظلامُ وخلا كلُّ حبيبٍ بحبيبه، نَصبوا إليَّ أقدامَهم، وافترشوا لي وجوهَهم، وناجَوْني بكلامي وتملقُوا إليَّ بأنعامي فهم بين صارخٍ وباكٍ، وبين متأوهٍ وشاكٍ، بعيني ما يتحملونَ من أجلي، وَبسَمْعي ما يَشْكُون من حُبي.

أولُ ما أُعطيهم: أنْ أَقذفَ من نُوري في قلوبِهم فَيخبِرُون عني كما أُخبِرُ عنهم، والثاني: لو كانَت السماواتُ السبعُ والأرضونَ وما فيها في موازينِهم لاستقلَلْتُها لهم، والثالث: أُقْبِلُ بوجهي عليهم، أيعلم أحدُهُم ما أريدُ أن أُعطيه).

(الغزالي: جزء٢ ص٢٠٣)

وينبغي للمحب أن يعلَمَ أنَّ من أحبَّ الله، أحبَّهُ الله سبحانه، ومن ارتدَّ عن دينه وابتعدَ عن محبةِ رَبه، فسوفَ يأتي اللهُ بقومٍ يحُبهم ويحبونَه كما قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾ [المائدة: ٥٤].

- ومن أحبَّهُ اللهُ أحبَّهُ جبريلُ والملائكةُ ونالَ القَبولَ والسَعادةَ في الدنيا والآخرة، روى أبو هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: (إذا أحبَّ اللهُ العبدَ نادى جبريلُ: إن اللهَ يُحبُّ فلاناً فأحبَّهُ، فيحبُّهُ جبريلُ، فينادي جبريلُ في أهل السماء إنَّ اللهَ يُحبُّ فلاناً فأحبُّوهُ فَيحبُّه أهلُ السماءِ ثم يُوضَعُ له القَبولُ في الأرض). (أخرجه البخاري)

- محبة الحق سبحانه وتعالى للعبد هي مدحه له وثناؤه عليه بالجميل مع إحسان مخصوص يلقى اللهُ العبدَ به، وحالة مخصوصة يرقيه إليها.

- أما محبة العبد لله تعالى فحالة يجدها من قلبه تلطف عن العبارة مع تعظيمه، وإيثار رضاه، وقلة الصبر عنه، والاهتياج إليه، وعدم القرار من دونه، ووجود الاستئناس بدوام ذكره له بقلبه.

كما قال أحد المحبين (بستان الواعظين ورياض السامعين، ابن الجوزي ص٢٦٨):

لله قـــوم أخلـــصوا في حبـــه ... فاختارهم ورضي بهم خـــداما

قوم إذا جـــن الظـــلام علـــيهم ... أبصرت قوماً ســـجداً وقيامـــا

يتلـــذذون بـــذكره في ليلـــهم ... ويكابدون به النـــهار صـــياما

- كذلك ينبغي للمحب أن يعلم أن من أرادَ أن يحبَّهُ اللهُ سعى للاتصافِ بالصفاتِ التي يحبُّها اللهُ والتي ذكرَها في القرآن الكريم، قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢].

- وقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا﴾. [الصف: ٤]

- وقال عز من قائل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥].

- وقال ﷻ: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ٧٦].

- وقال ﷻ: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦].

- وقال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

- وقال ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [المائدة: ٤٢].

- ويقولُ اللهُ تعالى في الحديث القدسي: «وما تَقرَّبَ إليَّ عبدي بشيءٍ أحبَّ إليَّ مما افترَضْتُ عليه وما يزالُ عبدي يتقرَّبُ إليَّ بالنوافل حتى أحبَّه فإذا أحببتُهُ

كُنْتُ سَمعُه الذي يسمَعُ به وبَصَرهُ الذي يُبصرُ به ويَدَهُ التي يَبْطِشُ بها ورِجْلَهُ التي يمشي بها ولئِنْ سألَني لأُعطينَّهُ ولئِنْ استعاذني لأُعيذَنَّهُ وما ترددْتُ عن شيء أنا فاعلُهُ تَرَدُّدِي عن نفسِ المؤمن يكرهَ الموت وأنا أكرَهُ مُسَاءَتَهُ».

(أخرجه البخاري عن أبي هريرة ﷺ)

- يا رب ليس العجبُ من حبي لك وأنا عبد فقير، ولكن العجب من حبك لي يا رب وأنت ملك قدير.

- ويجب على المحب لله ﷻ أن يبتعد عما لا يحبه الله ﷻ من صفات ذكرها في قرآنه مثل: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾ [البقرة: ٢٠٥].

- وقوله ﷻ: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [الحديد: ٢٣].

- وقوله ﷻ: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [آل عمران: ٥٧].

- وعن داود وغيره من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أن الله ﷻ أوحى لهم: «أحبّني وأحبّ من يحبني وحَبِّبْني إلى خلقي، قال: يا ربّ أحبّك وأحبّ من يحبّك، فكيف أحبِّبُك إلى خلقك؟ فقال ﷻ: اذكرني لحسن الجميل واذكر آلائي وإحساني وذكرهم ذلك فإنهم لا يعرفون مني إلا الجميل). (قوت القلوب، أبو طالب المكي ص٣١١)

- فالموَفَّقُ كلَّ التوفيقِ مَنْ يسعى لكسبِ محبّة الله له، فهي أعظمُ منزلة ينالها المسلمُ، لأنَّ منها هدايةَ الله وتأييدَه ونصرَه ومعونتَه.

- يا رب ارزقنا حبك وحب من يحبك وحب عمل صالح يقربنا إلى حبك.

- كيف لا أُحِبُّكَ يا ربِّ يا من أذاقَ أحباءَهُ حلاوة مؤانستِه فقاموا بين يديه مُتهجدين، ويا مَنْ ألبسَ أولياءَهُ ملابسَ هيبتِه فقاموا بحضرتِه مستغفرين.

- كيف لا أُحِبُّكَ يا ربِّ، فماذا وَجَدَ من فَقَدك؟ وماذا فَقَدَ مَنْ وجدَك؟، لقد خابَ من رَضِيَ بسواكَ بديلاً، وخَسِرَ من بقي عنك مُتَحَوِّلاً.

- إلهي كيفَ لا أُحِبُّكَ، وكيف أرجو سواكَ وأنتَ ما قطعتَ إحسانَك عني؟ وما بَدَّلت عادَةَ الامتنانِ عليَّ بنعمك.

- يا رب كيف لا أُحِبُّكَ وأنت الذاكرُ قبل الذاكرينَ، وأنت البادئُ بالإحسانِ من قَبْلِ تَوجُّهِ العابدين وأنتَ الجوادُ بالعطاء من قبل طَلَبِ الطالبين، وأنت الوهابُ ثم أنتَ لما وهبتَنا من المستقرضين.

- إلهي كيفَ لا أُحِبُّكَ وأنتَ الحبيبُ؟ وكيف أُخيْبُ وأنتَ أملي؟ أم كيف أهانُ، وعليكَ متَّكَلِي، أم كيف أضَلُّ وأنت دَليلي وكيفَ أمْرَضُ وأنت طبيبي؟

- إلهي كيف لا أُحِبُّكَ وأنتَ الذي نَعَّمْتَني، فلم تجدني شاكراً وابتلَيتني فلم تجدْني صابراً، فلا أنت سَلَبْتَ النعمة بتركِ الشُكْرِ ولا أَدَمْتَ الشِّدَةَ بتركِ الصبرِ.

- إلهي أنت الكريمُ وما يكونُ من الكريمِ إلا الكرمُ كما قال الشاعر:

يا جَميل الصُّنْعِ يا مَـنْ كلَّمـا ... دَهَمَ الأمرُ جَـلا مـا دَهَمَـا
يا غيـاثَ المـستغيثينَ، ويـا ... ماضيَ الحُكْمِ إذا مـا حَكَمـا
نَفِّـس الأمـر علينـا سُـرعةً ... إنَّ ذا الأَمْـرَ علينـا عَظُمـا
واستجب منـا دُعانـا كرمـاً ... يا كريمـا أنـت رَبُّ الكرَمـا

يا هنيئاً لكم أيها المحبون لله.

هنيئاً لكَ يا رَسول الله محبتُكَ الله ومحبةُ الله لكَ.

هنيئاً لكم يا صحابةَ رسول الله محبتُكُمُ الله ومحبةُ الله لكم.

هنيئاً لكم يا أحبابَ الله محبَّتُكُم الله ومحبةُ الله لكم.

هنيئاً لك يا رابعةُ محبتك الله ومحبةُ الله لك.

كنت عندما تنتهين من عمل الدُّنيا تتفرغين لعبادةِ الله، كُنْتِ إذا جنَّ الليلُ تقولين: لقد انْشَغَل كلُّ حبيبٍ بحبيبه وأنت حبيبي يا الله.

وحقك ما عبدتُكَ خوفاً من نارك ولا طَمَعاً في جنتِكَ ولكن عَبدتُكَ لأنَّك تستحقُّ العِبَادَةَ.

- (دخل على رابعَة لصٌّ ليسرقَها فجمَع الأمتعةَ وأراد أن يخرجَ من الباب فلم يجد الباب فوضعَ المتاعَ فوجدَ البابَ فحملَ المتاعَ فلم يجدِ البابِ فسمع صوتاً يقول: أَحبَّتْنَا فأحببناها، وانشغلَتْ بنا فلم نَنْشَغِل عنها، أُتركِ المتاعَ ترَ البابَ فترك المتاعَ وخرج وتابَ إلى الله ﷻ). (انظر: محمد عطية خميس المحامي: رابعة العدوية)

فلنستمع إلى مناجاتها لربها لحبيبها في الليل (حلية الأولياء، أبو نعيم):

أُحِبُّكَ حبين، حُبَّ الهوى ... وحباً لأنَّكَ أهلٌ لذاكا
فأما الذي هو حُبُّ الهوى ... فَشُغْلي بذكرِك عَمَّنْ سِواكا
وأما الذي أنت أهلٌ له ... فَكَشْفُكَ لي الحُجْبَ حتى أراكا
فلا الحمد في ذا ولا ذاك لي ... ولكن لك الحمد في ذا وذاكا

اللهم ارزُقنا هذا الحبَّ، ودُلَّنا عليه، وفرغ قلوبَنا له، ولا تَشْغَلنا عنه، يا كريم.

قال أحمد بن أبي الحواري (صحب الداراني وغيره): (دخلت على أبي سليمان (وهو من الزهاد) وهو يبكي فقلت له: مِمَّ تبكي؟ فقال لي: ويحك يا أحمد، كيف لا أبكي وقد بلغني أنه إذا جن الليل وهدأت العيون، وخلا كل خليل بخليله، وافترش أهل المحبة أقدامهم بين يدي مليكهم في مناجاته ورددوا كلامه بأصوات محزونة جرت دموعهم على خدودهم وتقطرت في محاريبهم خوفاً واشتياقاً، فأشرف عليهم الجليل جل جلاله فنظر إليهم فأمدهم محبة وسرورا، فقال لهم: أحبابي والعارفين بي، اشتغلوا بي وألقوا عن قلوبكم ذكر غيري، أبشروا فإن لكم عندي الكرامة والقربة يوم تلقوني، فينادي الله جبريل: يا جبريل، بعيني من تلذذ بكلامي واستراح إلي وأناخ بفنائي، وإني لمطلع عليهم في خلواتهم أسمع أنينهم وبكاءهم، وأرى تقلبهم واجتهادهم، فناد فيهم يا جبريل: ما هذا البكاء الذي أسمع، وما هذا التضرع الذي أرى منكم؟ هل سمعتم أو

أخبركم عني أحد أن حبيباً يعذب أحباءه؟ أو ما علمتم أني كريم فكيف لا أرضى؟ أيشبه كرمي أن أرد قوماً قصدوني؟ أم كيف أذل قوماً تعززوا بي؟ أم كيف أحجب غداً أقواماً آثروني على جميع خلقي وعلى أنفسهم وتنعموا بذكري؟ أم كيف يشبه رحمتي أو كيف يمكن أن أبيت قوماً تملقوا لي وقوفاً على أقدامهم، وعند البيات أخزوهم؟ أم كيف يجمل بي أن أعذب قوماً إذا جنهم الليل تملقوني، وكيفما كانوا انقطعوا إلي واستراحوا إلى ذكري وخافوا عذابي وطلبوا القربة عندي، فبي حلفت لأرفعن الوحشة عن قلوبهم، ولأكونن أنيسهم حتى يلقوني، فإذا قدموا إلي أنظر إليهم، ثم لهم عندي ما لا يعلمه غيري. يا أحمد، إن فاتني ما ذكرت لك فيحق لي أن أبكي دماً بعد الدموع. قال أحمد: فأخذت معه بالبكاء، ثم خرجت من عنده وتركته بالباب، فكنت أرى أثر ذلك عليه حتى الممات). (حلية الأولياء، أبو نعيم)

➢ ثانياً - محبة النبي ﷺ:

- هذا النبيُّ ﷺ الذي اختارَه الله سبحانَه وتعالى ليكونَ خاتَمَ الأنبياءِ والرسلِ ولتكونَ رسالتُهُ خاتَمَةَ الرسالاتِ السماويةِ.

- إنَّهُ الرسولُ الكريمُ الرؤوفُ الرحيمُ الذي أخرجَنا اللهُ به من الظلماتِ إلى النورِ ومن الضلالَة إلى الهُدى ومن الجَهْلِ إلى العلمِ ومن الضَّعْفِ إلى القوةِ ومن الذُّلِ إلى الرفعةِ ومن الفُرقَةِ إلى الوَحدَةِ ومن النزاعِ والخصامِ إلى المحبةِ والوئامِ، حتى كُنا بهديه وتوجيهِهِ خيرَ أُمةٍ أُخرِجَت للناس.

- فليسَ بعدَ اللهِ تعالى أحدٌ أَمَنَّ علينا من رسولِنا ومحبتُهُ في الحقيقةِ شُعْبَةٌ من محبَّةِ اللهِ ﷻ. لا يمكنُ الفصلُ بينَهما فمن أَحَبَّ اللهَ فلا بد له من محبةِ رسولِهِ ومن أحبَّ الرسولَ فلا بدَّ لهُ من محبةِ اللهِ، قال تعالى:

﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ [آل عمران: ٣١].

- والآياتُ التي تَتَحَدَّثُ عن محبةِ اللهِ التي تَستَلزِمُ طاعَتَهُ تُؤكِّدُ على محبةِ رسولِهِ وكذلك أحاديثُ النبي ﷺ في هذا الأمرِ.

- عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: (من أطاعني فقد أطاعَ الله ومن يَعْصِني فقد عصى الله). (أخرجه مسلم في صحيحه)

- وقال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ [النساء: ٨٠].

- وقد قال النبي ﷺ: «أحبُّوا الله لما يَغْذُوكُم به من نِعمِه، وأحبُّوني لِحُبِّ اللهِ إيَّايَ، وأحبوا أهلَ بيتي لحبِّي». (أخرجه الترمذي في سننه عن ابن عباس رضي الله عنهما)

- لذا فإن الإنسانَ لا يكونُ مُؤمناً حتى يُحِبَّ رسولَ اللهِ ﷺ بل حتى يكون حُبُّهُ أحبَّ إليه من كلِّ شيء.

- عن أنسِ بنِ مالكٍ ﷺ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «لا يُؤْمِنُ أحدُكُمْ حتى أكونَ أَحَبَّ إليه من ولدِهِ ووالدِهِ والناسِ أجمعين». (أخرجه مسلم)

- ويروى أن النبيَّ ﷺ كانَ آخذاً بيدِ عُمَرَ بنِ الخطابِ فقالَ له عمرُ يا رسولَ الله: (لأنتَ أحَبُّ إليَّ من كلِّ شيء إلا من نفسي)، فقال النبي ﷺ: «لا والذي نَفْسي بيدِهِ حتى أكونَ أَحَبَّ إليكَ من نَفْسِكَ»، فقال له عمرُ: (فإنه الآنَ والله لأنت أحبُّ إلي من نفسي) فقال النبيُّ ﷺ: «الآن يا عمرُ» (أخرجه البخاري). يعني: الآن كَمُلَ إيمانُك يا عمر.

- هذه المحبةُ لرسولِ اللهِ ﷺ تَظْهَرُ في كلِّ مؤمنٍ آمنَ بالله ورسولِهِ تظهر في أعمالِهِ وأقوالِهِ وأفعالِهِ، تظهرُ في دفاعِهِ عن دينِهِ ومعتقدِهِ، تَظهَرُ في العملِ بأحاديثِ النبي ﷺ والسيرِ على سنته، تظهر في تربيته لأولاده وأهله عملاً بقول النبي ﷺ: «أَدِّبُوا أولادَكُمْ على ثلاثِ خصالٍ: حُبِّ نبيِّكُمْ وحُبِّ آلِ بيتِهِ وقراءة القُرآنِ».

(أخرجه الديلمي وابن نجار في جامع الأحاديث)

- وَتَظْهَرُ في الشوقِ إلى زيارتِه والوقوفِ أمامَ حُجرتِه والسلامِ عليه وتظهرُ في حبِّ رؤيتِه في الدنيا وشفاعتِه في الآخرةِ، وقد ظَهَرَتْ هذه المحبةُ واضحةً عندما قامَ أحدُ الشياطينِ من الإنْسِ بتشويهِ صورةِ النبي ﷺ فهبَّ جميعُ المسلمين وفي جميع بقاعِ الأرض، هَبَّ مليارٌ ونصفٌ باستنكارِ هذا الفعلِ الشنيعِ وإظهارِ حُبِّهم لنبيِّهم ودفاعِهم عنه ﷺ فقامَتْ الدنيا و لم تَقْعُدْ.

ولنْ تَقْعُدَ حتى يعلَم العالَمُ كلُّهُ أجمَع مقدارَ حُبِّنا لنبيِّنا وفدائنا له بكلِّ ما نملكُ.

- كيف لا نكونُ ممَّن أَحَبَّ النبيَّ ﷺ والنبيُّ ﷺ يشهَدُ بمحبتِنا له ويُخْبِرُ ﷺ عن ذَلك بأنَّ أحَدنا يتمنى رؤيَتُه بكلِّ ما يملكُ.

- عن أبي هريرةَ ﷺ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: «من أشد أمتي لي حُبّاً ناسٌ يكونون بَعْدِيَ يودُّ أحدُهُم لو رآني بأهلِه وماله». (أخرجه مسلم)

- وعن أبي هريرةَ ﷺ أن رسولَ الله ﷺ أتى المقبَرة فقال: «السلامُ عليكم دار قوم مؤمنين وإنا إن شاء الله بكم لاحقونَ وَدِدْتُ أنَّا قد رأينا إخوانَنَا»، قالوا: (أَوَ لسنا إخوانَكَ يا رسولَ الله)، قال: «أنتم أصحابي وإخوانُنا الذين لم يأتوا بَعْدُ»، فقالوا: (كيف تَعْرِفُ مَن لم يأتِ بَعْدُ مِنْ أُمَتِكَ يا رسول الله)، فقال: «أرأيْتَ لو أنَّ رجلاً له خيلٌ غرٌّ مُحَجَّلةٌ بين ظَهْرَيْ خيلٍ دهمٍ بهمٍ (السواد الكامل) ألا يعرِفُ خيلَه» قالوا: (بلى يا رسول الله)، قال: «فإنهم يأتونَ غُرّاً محجَّلين (بياضٌ في جبهة الفرس فوقَ الدرهم) من الوضوءِ». (أخرجه مسلم)

- ولو سألَنا سائلٌ لماذا تحبون رسول الله هذه المحبةَ الشَديدة فإننا نقولُ له بلسانٍ واحد: إن محبتنا لرسول الله ﷺ لها كثير من الدواعي والموجبات نذكر منها:

أولاً: اللهُ ﷻ أوجبَ محبتَهُ وطاعتَهُ وقرنها بمحبتِه سبحانَهُ وطاعتِه وقد ذكرت من قبلُ من الآياتِ والأحاديثِ ما يَدلُّ على ذلك.

ثانياً: لأن الله تعالى أحبَّه واختارَهُ من بين خلقِهِ واصطفاهُ لرسالتِهِ الخاتمة وفضَّلَهُ على جميع مخلوقاتِه.

وأفضلُ الخَلْقِ على الإطلاقِ ... نبيُّنا فَحُلْ عن الشقَاقِ
محمدٌ بشرٌ وليسَ كالبشر ... بل هو ياقوتَةٌ والناسُ كالحَجَرِ
وليسِ في الخلقِ من نِدٌّ يماثِلُهُ ... فالأنبياءُ نجومٌ وهو كالقمرِ

ثالثاً: لرأفتِهِ ورحمتِهِ بأمتِهِ وحرصِهِ على هدايتِها وإنقاذِها من النارِ.

- قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

- عن عبدِ الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن النبيَّ ﷺ تلا قولَ الله ﷻ في إبراهيمَ عليه السلام ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٣٦] وقولَ عيسى عليه السلام: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨]، فرفَع يديه وقال: «اللَّهم أمتي، أمتي وبكَى»، فقال اللهُ ﷻ: (يا جبريلُ اذهبْ إلى محمد وربُّكَ أعلَمُ فَسَلْهُ ما يُبكيك؟)، فأتاه جبريل عليه السلام فسألَهُ: (فأخبَرهُ رسول الله ﷺ بما قال وهو أعلمُ)، فقال الله ﷻ: (يا جبريل اذهب إلى محمد فقل إنا سنُرضيك في أمتِك ولا نسوءُكَ).

(أخرجه مسلم)

وأخباره ﷺ في رحمته بأمته ورأفته أكثر من أن تحصى.

رابعاً: لأنَّ دينَهُ خيُر دينٍ وشريعتُهُ وتعاليمُهُ وتوجيهاته أحسنُ الشرائعِ.

خامساً: لعطْفِه وشَفَقَتِه على أمتِه فمن عطفِه ﷺ أنَّهُ ادَّخَرَ دعوتَهُ إلى يومِ القيامةِ لتكونَ شفاعَةً لأمته في أهم الأوقات وأحرَجِها.

- فعن أبي هريرة رضي الله عنه قالَ، قالَ رسولُ الله ﷺ: «لكلِّ نبيٍّ دعوةٌ مستجابةٌ

فَتَعَجَّلَ كلُّ نبيٍّ دَعوَتَهُ وإني اختبأتُ دعوتي شفاعةً لأمتي يومَ القيامةِ فهي نائلةٌ إن شاءَ اللهُ مَنْ ماتَ من أمتي لا يُشرِكُ باللهِ شيئاً». (أخرجه مسلم)

- عن عائشةَ رضي الله عنها قالت: (لما رأيتُ منَ النبيِّ ﷺ طيبَ نفسٍ قُلْتُ يا رسولَ اللهِ ادعُ اللهَ لي قال: اللهمَّ اغفرْ لعائشةَ ما تقدَّمَ من ذنبها وما تأخَّرَ وما أسرَّتْ وما أعلَنَتْ، فضَحِكَتْ عائشةُ رضي الله عنها حتى سَقَطَ رأسُها في حُجرِها من الضَّحك فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ أيَسُرُّكِ دعائي فقالَتْ: ومالي لا يَسُرُّني دعاؤُك فقالَ ﷺ: واللهِ إنها لدعوتي لأمتي في كلِّ صلاتي). (أخرجه البزار في مسنده)

- ينبغي للمسلم أن يتعلَّمَ الحبَّ لرسولِ الله ﷺ من الصحابةِ الكرامِ، هذا الحبُّ الذي عبَّرَ عنه سيدُنا عليٌّ كَرَّمَ اللهُ وجهَهُ عندما سُئِلَ كيفَ كان حبُّكم لرسولِ الله ﷺ فقال: كان واللهِ أحبَّ إلينا من أموالِنا وأولادِنا وآبائِنا وأمهاتِنا ومن الماء البارد على الظَّمَأ). (ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، الثعالبي ص١٨٨)

- تحدَّثَ رجالٌ على عَهْدِ عُمَر ﷺ، فكأنَّهُم فضَّلوهُ على أبي بكر ﷺ، قال فبلغَ ذلك عُمرَ ﷺ، فقال: (واللهِ لليلةٌ من أبي بكرٍ خيرٌ من آلِ عمرَ، وليومٌ من أبي بكرٍ خيرٌ من آلِ عُمَر، لَقَد خرجَ رسولُ الله ﷺ لينطلقَ إلى الغارِ ومعَهُ أبو بكر ﷺ فجَعَلَ يمشي ساعةً بين يديه وساعةً خَلْفَهُ حتَّى فَطِنَ له رسولُ الله ﷺ فقال: يا أبا بكر: مالكَ تمشي ساعةً بين يديَّ وساعةً خلفي؟ فقالَ: يا رسولَ الله، أذكُرُ الطَّلَبَ فأمشي خلفَكَ ثم أذكُرُ الرَّصْدَ فأمشي بين يديك فقال: يا أبا بكر، لو كانَ شيءٌ أحبَبْتَ أن يكونَ بكَ دوني؟ قال: نعم، والذي بعثَكَ بالحقِّ ما كانَتْ لتكونَ من مُلِمَّةٍ إلاَّ أن تكونَ بي دونَك فلما انتهيا إلى الغارِ، قالَ أبو بكر: مكانَكَ يا رسولَ الله حتى أستبرئَ لكَ الغارَ فدخلَ واستَبْرَأَهُ، حتى إذا كان في أعلاه ذَكَرَ أنه لم يستبرئ الجحرة (جمع جُحر وهو الحفرة التي تأوي إليها الهوامُّ وصغار الحيوان)، فقال: مكانكَ يا رسولَ الله حتى استبرئَ الجحرة فدخل واستبرأ ثم قال: انزلْ يا رسولَ الله، فنزل، فقال عمر: والذي نفسي بيده لتلك الليلة خيرٌ من آلِ عمر). (أخرجه الحاكم في المستدرك)

- هذا حُبُّ الرجال فكيفَ كان حُبُّ النساءِ للرسول ﷺ؟

- خرجَتِ امرأةٌ من الأنصارِ عندَ عودةِ المسلمينَ من معركَةِ أُحُدٍ وقد قُتِلَ أبوها وأخوها وزوجُها في تلك المعركة وكانوا ممن شهدوا القتالَ مع رسولِ الله ﷺ، فقالت: ما فعل رسول الله ﷺ، قالوا: خيراً هو بحمد كما تحبين، قالت: (أَرُونيهِ حتى أنظرَ إليه)، فلما رَأَتْهُ قالَتْ: (كلُّ مصيبةٍ بَعدَكَ جَلَلٌ يا رسولَ اللهِ).

(أخرجه البيهقي في دلائل النبوة)

- وينبغي للمحب أن يعلم أن الحُبَّ هو بدايةُ الإيمانِ وهو تمامُهُ وغايتُهُ لأنه انعطافُ النفسِ إلى المحبوبِ وما تزالُ النفسُ تنعطِفُ حتى لا تكادُ تَهفو إلا إلى ما يُشير بهِ المحبوبُ، قال ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به».

(أخرجه البخاري في رفع اليدين عن عبد الله بن عمرو)

- ومن أحبَّ رسولَ اللهِ ﷺ فعليه أن يُقيمَ على حُبِّهِ هذا دليلاً ودليلُهُ العملُ والاتِّباعُ لهديهِ، قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١].

لأن حبَّكَ للنبي ﷺ يقتضي اتباعَك له في أقوالِهِ وأفعالِهِ وفي حركاتِهِ وسكناتِهِ وفي كل أحوالِهِ.

- عن أنس ﷺ عن النبي ﷺ أنه قالَ: «ومن أحيا سُنَّتي فقد أحبَّني».

(أخرجه الترمذي في سننه)

- وإذا أردْتَ أن تُحْشَرَ معه ﷺ فعليكَ أن تحبَّه محبةً صادقةً، فقد روى أنسٌ ابن مالك ﷺ قالَ جاءَ رجلٌ إلى رسولِ اللهِ ﷺ فقالَ يا رسولَ اللهِ متى الساعةُ؟ قالَ: وما أعدَدْتَ للساعةِ قال: حبَّ اللهِ ورسولِهِ قال: فإنَّكَ مع من أحبَبْتَ قال: أنسٌ فما فَرِحْنَا بعدَ الإسلامِ فرحاً أشدَّ من قولِ النبيِّ ﷺ فإنكَ مع من أحبَبْتَ قال أنسٌ فأنا

أُحِبُّ اللهَ ورسولَهُ وأبا بكرٍ وعُمَرَ فأرجو أن أكونَ معَهم وإن لم أَعْمَلْ بأعمالِهم).

(أخرجه مسلم)

- وعن عبد الله ﷺ قال جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله كيف ترى في رجل أحب قوماً ولما يلحق بهم قال رسول الله ﷺ: «المرء مع من أحب». (أخرجه مسلم)

أي في الآخرةِ بل قبلَ الموتِ وعندَ الموتِ وبعد الموتِ، معهم حباً وأنساً ونعيماً فهنيئاً لكم يا أحبابَ رسولِ الله ﷺ.

- وعن عبدِ اللهِ بن زيدٍ أنه قال: (يا رسولَ اللهِ إذا مُتَّ ومُتنا كنْتَ في عليينَ لا نراك ولا نجتَمِعُ بكَ، وَذَكَر حُزنَه، فنزل قوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا﴾ [النساء:٦٩]). (رواه القرطبي في تفسيره)

➢ ثالثاً - محبة الصالحين:

- ينبغي لِمن أحب الله ﷻ وأحب رسوله ﷺ أن يحب الصالحين.

- قال رسول الله ﷺ: «أوثقُ عرى الإيمان أَنْ تُحِبَّ فِي اللهِ، وَتُبْغِضَ فِي اللَّهِ».

(أخرجه أحمد عن عبد الله بن مسعود ﷺ)

- الصالحونَ الذين أُمِرنَا بحبِّهِمْ، ومجاورتِهم، أصحابُ المكانةِ العظيمةِ التي أعطاهم الله إياها.

يقرأُ المسلمُ في كلِّ ركعةٍ من رَكَعَاتِ الصلاةِ بسورةِ الفاتحةِ ويقولُ فيها:

﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ [الفاتحة ٦- ٧].

- فالمؤمنُ يطلُبُ من اللهِ، أن يهديَهُ الصراطَ المستقيمَ، الصراطَ الذي اتَّبَعَهُ مَنْ أَنْعَمَ اللهُ عليهم وذكرَهم في قوله: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾.

[النساء: ٦٩]

- فالدرجةُ الأولى لهؤلاء الذين أنعم الله عليهم، درجةُ الأنبياءِ ثم الصِّدِّيقينَ ثم الشهداءِ ثم الصالحينَ.

- فالصالحون هم مِنَ الذينَ أنعمَ اللهُ عليهم، وممن قالَ اللهُ عنهم: ﴿وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾.

- والصالحون هم الذين ذكرَهم اللهُ ﷻ في كثيرٍ من آياتِهِ وهو يتحدَّثُ عن المؤمنينَ الصادقين كما في قوله سبحانَهُ: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ [العصر: ١-٣].

- ومن أعمال هؤلاء الصالحين التي مدحهم سبحانه بها ما ذكره في قولِهِ:

﴿لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ۝١١٣ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [آل عمران: ١١٣- ١١٤].

- وقد وصفَ المحاسبيُّ (من أكابر الصوفية، كان عالماً بالأصول والمعاملات) هؤلاءِ الصالحينَ فقالَ: (كانوا للمَسْكَنةِ مُحبِّينَ، ومن خَوفِ الفَقْرِ آمنينَ، وباللهِ تعالى في أرزاقِهم واثقينَ، وبمقاديرِ اللهِ عزَّ وجلَّ مسرورينَ، وفي البلاءِ راضينَ، وفي الرخاءِ شاكرينَ، وفي الضَّراءِ صابرينَ، وفي السَّراءِ حامدينَ، وكانوا للهِ متواضعينَ، وعلى أنفسِهم مُؤْثِرِيْنَ، وعن حبِّ العُلُوِّ والتكابُرِ ورعينَ، وكانوا إذا أقبلَتْ عليهم الدنيا حَزِنوا، وإذا أقبلَ عليهم الفقرُ قالوا: مرحباً بشعارِ الصالحينَ). (انظر الوصايا، المحاسبي)

- إذاً هؤلاءِ الصالحونَ هم الذين آمنوا بربِّهم إيماناً يقينياً وأحبُّوهُ محبةً لا تَبْلُغُها محبةٌ، وأحبُّوا نبيَّهُ المصطفى ﷺ وتمسَّكوا بتعاليمِ القرآنِ الكريمِ وطبَّقوا سُنَّةَ نَبيه، وعملُوا الأعمالَ الصالحةَ التي أمرَ اللهُ ﷻ بها، وأرشد إليها النبيُّ ﷺ وانْتَهَوا عما نهى عنه اللهُ ورسولُهُ عملاً بقولِ النبيِّ ﷺ: «تركْتُ فيكم أمرينِ لن تَضِلُّوا ما تمسَّكتُمْ بهما كتابَ اللهِ وسُنَّةَ نَبيِّه». (أخرجه الإمام مالك في الموطأ)

- ثم تَتَبَّعُوا سِيَرَ الصالحينَ وعملُوا بأعمالِهم فسارُوا سَيْرَهُمْ، ونَهَجُوا نهجَهم، تطبيقاً وسلوكاً.

هؤلاءِ الصالحونَ لهم المكانةُ العاليةُ عندَ اللهِ عزَّ وجلَّ وعندَ الناسِ، ولقد ذَكَرَ اللهُ عزَّ وجلَّ هذه المكانةَ العاليةَ لهم في قرآنِهِ الكريمِ، في آياتٍ تجاوزتِ السبعين، نذكُرُ منها قولَهُ ﷻ: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُوا۟ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٥].

- وقالَ ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٨].

- وقال أيضاً سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٧].

- ويكفيهم فخراً أنهم الوارثون الحقيقيون لهذه الأرض، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥].

- ويكفيهم فخراً أنَّ مِنْ فرائضِ الصلاةِ أن يقرأَ المصلِّي التشهُّدَ في كل صلاةٍ ويقولَ فيه بعدَ أن يُثنيَ على اللهِ سبحانَهُ وتعالى، ويصلِّي على نبيِّهﷺ: السلامُ علينا وعلى عبادِ اللهِ الصالحينَ.

- ما أعظمَ أن نتحدَّثَ عن هؤلاءِ الصالحينَ، وما أَجَلَّ أن نُحِبَّهُم، وأن نسعى إلى أن نكونَ منهم أو معَهم، قالَ سفيانُ بنُ عُيَيْنَةَ (محدث الحرم المكي من شيوخ البخاري):

(عندَ ذكرِ الصالحينَ تَنْزِلُ الرحمة) (صفوة الصفوة، ابن الجوزي).

- وقال محمدُ بنُ يونسَ (إمام وقته في فقه الشافعية، من أئمة الحديث):

(ما رأيْتُ للقلبِ أنفعَ من ذِكْرِ الصالحينَ). (صفوة الصفوة، ابن الجوزي)

- وقد كانَ الأئمةُ الكبارُ من السلفِ إذا ذُكِرَ الصالحون في مجلسٍ جلسوا مُتأدِّبينَ رعايةً لمقَامِهم، ولو كانوا غائبينَ فلا أقلَّ مِنْ أنْ نترحَّمَ عليهم -نحن الخَلَفَ- إن فاتَنا التأدُّبُ عندَ ذكرِهِمْ.

- قال الإمامُ المحدِّثُ الفاضلُ أبو زرعةَ (من أئمة زمانه في الحديث ورجاله، من أهل دمشق): (كنْتُ عندَ أحمدَ بنِ حنبل فَذُكِرَ إبراهيمُ بنُ طهمانَ- وهو من العلماءِ الفضلاءِ- وكان مُتَّكِئا من عِلَّةٍ فجلَسَ وقالَ لا ينبغي أنْ يُذْكَرَ الصالحون فَيُتَّكَأ). (تذكرة الحفاظ)

- هذا وإنَّ مجالسةَ الصالحينَ، أو سماعَ حديثِهم، أو تلقيَ الحديثِ عنهم، أو قراءةَ مناقبِهم وفضائلِهم، لهو مما تطمئنُّ به القلوبُ، وتنشرحُ لهُ الصدورُ، وتَصْلُحُ به الأخلاقُ والأعمالُ.

- وينبغي لكلِّ مسلمٍ أن يعلمَ أن أولَ الصالحينَ هم الأنبياءُ والمرسلون، وقد بيَّنَ اللهُ سبحانَهُ وتعالى ذلك في كثيرٍ من الآيات، وخاصةً في سورة الأنبياءِ، ثم أَجْمَلَ الحديثَ عنهم فقالَ سبحانَهُ: ﴿وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾. [الأنبياء: ٨٦]

- لذلك وَجَبَ علينا محبةُ جميعِ الأنبياءِ والمرسلينَ دون تفريقٍ بينَ أحدٍ منهم.

- ولقد أجمعَ العلماءُ أنَّ إمامَ الأنبياءِ الصالحينَ هو نبيُّنا المصطفى ﷺ لذلك كانت محبتُنا له هي تأتي وتَلِي محبةَ اللهِ سبحانَه وتعالى.

- ويأتي بعدَها محبةُ جميعِ الصحابةِ الكرامِ فهم أفضلُ الصالحين لأنهم رَأَوْا النبيَّ ﷺ وصاحبوه، واتبعوه أحسنَ اتِّباعٍ، واكتسبوا منه العلمَ الوفيرَ، وطبَّقُوه خيرَ تطبيقٍ وشَهِدوا نزولَ الوحيِ، بالقرآن الكريم، والتشريع، فكانوا كما قالَ اللهُ تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

- وقال الله تعالى فيهم: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

- هؤلاءِ الصحابةُ الذين ذكرَ ابنُ عباسٍ أنهم المقصودون بقوله تعالى:

﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ﴾ [النمل: ٥٩].

فقال هم: أصحابُ محمدٍ اصطفاهم اللهُ لنبيِّه ﷺ.

- عن عبدِ اللهِ بنِ مُغَفَّلٍ المزنيِّ ﷺ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «اللهَ اللهَ في أصحابي لا تتخذوهم غَرَضا من بعدي فمنْ أَحَبَّهُمْ فبِحُبِّي أحبَّهُمْ ومن أبغضَهُم فبِبُغْضِي أبغضَهُمْ ومن آذاهُم فقد آذاني ومن آذاني فقد آذى اللهَ ومن آذى اللهَ يُوشِكُ أن يأخذَهُ». (أخرجه البيهقي في شعبه)

- قال أبو زرعةَ الرازيُّ (من حفاظ الحديث، وجالس أحمد بن حنبل) رحمَهُ الله: تُوفِّيَ النبيُّ ﷺ ومن رآه وسمعَ منه زيادةٌ على مئة ألفِ إنسانٍ من رجلٍ وامرأةٍ، كلُّهم قد روى عنه سماعاً أو رؤية، ومن المعروف أنَّ بعضَ هؤلاء من السابقينَ إلى الإسلامِ، وبعضَهُمْ من المهاجرينَ، وهناكَ الأنصارُ، وهناكَ الأطفالُ الذين وُلِدُوا في عهدِهِ ورَأَوْهُ ﷺ، وهناكَ الأعرابُ وأهلُ الباديةِ الذينَ حضروا حِجَّةَ الوداعِ وهم كثيرون جداً.

- قالَ المحدِّثُ ابنُ حَجَرٍ رحمَهُ اللهُ: ومعَ ذلك فلم يَحْصُلْ لنا من ذلكَ جميعاً الوقوفُ على العُشْرِ من أسامي الصحابةِ حيثُ لم تُضبَطْ أسماؤُهم لكثرةِ من ماتَ في خلافةِ أبي بكرٍ في حروبِ الردةِ، والفتوحاتِ، ثم من ماتَ في خلافةِ عمرَ في الفتوحاتِ والطاعونِ.

- وذهبَ جمهورُ المسلمينَ إلى أنَّ أفضلَ الصحابةِ على الإطلاقِ: أبو بكرٍ، ثم عمرُ، ثم عثمانُ، ثم عليٌّ، ثم تمامُ العشرةِ المبشرينِ بالجنةِ، وهم: أبو عبيدةَ بنُ الجراحِ، وعبدُ الرحمنِ بنُ عوفٍ، وطلحةُ بنُ عبيدِ اللهِ، والزبيرُ بنُ العوامِ، وسعيدُ بنُ زيدٍ، وسَعْدُ بنُ أبي وقَّاصٍ. وهؤلاءِ جميعاً من الذينَ سَبَقُوا في الإيمانِ وتحمَّلُوا المشاقَّ في الدفاعِ عن الإسلامِ، وصَدَقُوا اللهَ ورسولَهُ، ثم أهلُ بدرٍ، ثم أهلُ أُحُدٍ، ثم أهلُ بيعةِ الرضوانِ، ثم بقيةُ الصحابةِ الكرامِ.

- ولقد أرشدَنا النبيُّ ﷺ إلى مكانةِ هؤلاءِ الصحابةِ بقولِه: «فعليكم بسُنتي وسنةِ الخلفاءِ الراشدينَ المهديينَ عَضُّوْا عليها بالنواجذِ». (أخرجه الترمذي)

- عن عبدِ اللهِ بنِ عمرَ ﷺ قال: (من كانَ مُسْتَنًّا فلْيَسْتَنَّ بِمَنْ قدْ ماتَ أولئكَ أصحابُ محمَّدٍ ﷺ كانوا خيرَ هذه الأمةِ أَبَرَّها قلوبا وأعمقَها علْمَاً وأقلَّها تكلُّفا قومٌ اختارَهم اللهُ لصُحبةِ نبيِّه ﷺ ونَقْلِ دينِه فتشبَّهوا بأخلاقِهم وطرائقِهم فهم أصحابُ محمدٍ ﷺ كانوا على الهدى المستقيم). (أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء)

- قال عبدُ اللهِ بنُ مسعودٍ ﷺ: (أنتم أكثرُ صلاةً وأكثرُ صياماً من أصحابِ محمدٍ ﷺ وهم كانوا خيراً منكم قالوا: وبِمَ؟ قال: كانوا أزهدَ منكم في الدنيا وأرغَبَ منكم في الآخرةِ). (أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء)

- ويأتي بعدَ الصحابةِ في الفضلِ والصلاحِ، التابعونَ لهم، ثُمَّ مَنْ تَبِعَهُمْ كما قالَ ﷺ: «خير أمتي القرن الذين يلوني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم».

(أخرجه مسلم)

- ثم يأتي من بعدِهِمْ في الصلاحِ والخيريةِ من تَبِعَهُمْ إلى يوم الدينِ من أهلِ العلمِ والذكرِ والتقوى والصلاحِ.

- لذلك ينبغي لكلِّ مسلمٍ أن يُحِبَّ كلَّ أولئك الصالحينَ فمحبتُهُمْ واجبةٌ. وفي هذا يقولُ سيدنا عمرُ بنُ الخطاب ﷺ: (لولا ثلاثٌ في الدنيا لما أحْبَبْتُ البقاءَ فيها، لولا أنْ أَحْمِلَ أو أُجَهِّزَ جيشاً في سبيلِ اللهِ، وثانيها، لولا مكابدةُ هذا الليلِ - قيامُ الليلِ والعبادةُ فيهِ لتحصيلِ مافيه من جزيلِ الثوابِ-، وثالثها، لولا مجالسةُ أقوامٍ يَنْتَقُوْنَ أطايب الكلامِ كما يُنتقى أطايبُ التمرِ).

(مفتاح السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة، ابن قيم الجوزية ص١٢٠)

- ولقد كان كبار الصالحين يَسْعَوْنَ للاجتماعِ بالصالحينَ ورؤيتِهِمْ، والاستماعِ إليهِم ليزدادُوا صلاحاً وحباً لله ورسولِهِ وأهلِ الصلاحِ، وكانَ لذلك تأثيرٌ كبيرٌ في تعميق إيمانِهِمْ وحبِّهم وفي صلاحِ أعمالِهِم، وفي ذلك يقولُ الشافعيُّ (مجمع الحكم والأمثال، باب التقوى، أحمد قبش):

أُحِبُّ الصالحينَ وَلَستُ مِنهُم ... لَعَلِّي أن أنالَ بِهِم شَفاعَهْ

وَأَكرَهُ مَن تِجارَتُهُ المَعاصي ... وَلَو كُنّا سَواءً في البِضاعَهْ

- قالَ أشعثُ بنُ عبدِ اللهِ (من رواة الحديث روى عن أنس بن مالك ﷺ): (كنا إذا دخلْنا على الحسنِ البصريِّ -وهو من التابعين- خرجْنَا ولا نَعُدُّ الدنيا شيئاً). (حلية الأولياء، أبو نعيم)

- وقالَ يونسُ بنُ عبيدٍ (من حفاظ الحديث الثقات، من أصحاب الحسن البصري): (كانَ الرجلُ إذا نظرَ إلى الحسنِ البصريِّ انتفعَ به وإن لم يرَ عَمَلَهُ ولم يَسْمَعْ كلامَهُ). (البداية والنهاية، ابن كثير)

ودليل ذلك جوابُ النبيِّ ﷺ وقد سُئِلَ أيُّ جلسائنا خيرٌ، فقالَ: مَنْ ذَكَّرَكُمْ اللهَ رؤيتُهُ، وزادَ في علمِكُمْ مَنْطِقُهُ، وذكَّرَكُمْ الآخرةَ عملُهُ.

(أخرجه أبو يعلى من حديث ابن عباس)

- وعن أنسٍ ﷺ قالَ: قالَ ﷺ: «إنَّ من الناسِ مفاتيحَ لذكْرِ اللهِ، إذا رُؤُوْا ذُكِرَ اللهُ». (أخرجه ابن حبان)

فمن الواجبِ على كلِّ مؤمنٍ أنْ يُحِبَّ هؤلاءِ الصالحينَ، فمحبتُهُمْ سعادةٌ في الدنيا والآخرةِ.

- عن معاذِ بنِ جبلٍ ﷺ قالَ: سمعْتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ: «قالَ اللهُ ﷻ: المتحابُّون في جَلالي لهم منابرُ مِنْ نورٍ يَغْبِطُهُمُ النبيونَ والشهداءُ».

(أخرجه الترمذي وقال حديث صحيح)

- يقولُ اللهُ تباركَ وتعالى: (وجبَتْ محبَّتي للمتحابِّينَ فِيَّ والمتجالسين فِيَّ والمتزاورِيْنَ فِيَّ، والمتباذلِيْنَ فِيَّ). (أخرجه مالك في الموطأ بإسناد صحيح)

اللهم اجعلْنا منهم ومِنَ الصالحين الذين تحبُّهم، واجعلْنا من أحبابِهِمْ.

- **أخيراً**: ينبغي لكل منّا أن يحبّ الصالحينَ، وأن يسعى لأَنْ يكونَ معَهُمْ ومنهم، والطريق للوصولِ إلى ذلك، هو الإيمانُ الحقُّ باللهِ تعالى، والأعمالُ الصالحةُ التي يكون فيها القربى منه جلَّ وعلا، فينطبق علينا قولُ ربِّنا: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدۡخِلَنَّهُمۡ فِي ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [العنكبوت: ٩].

ونردِّدُ قولَ نبيِّ اللهِ سليمانَ الذي وردَ في القرآن الكريم: ﴿رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ وَأَدۡخِلۡنِي بِرَحۡمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [النمل: ١٩].

- وعندَ ذلك ينطبقُ علينا قولُ ربِّنا تبارك وتعالى: ﴿وَأَدۡخَلۡنَٰهُمۡ فِي رَحۡمَتِنَآۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٦].

- ومعَ سعْينا لذلك تعالَوْا نردِّد الدعاءَ وهو مما عَلَّمَنا اللهُ في قرآنِه:

﴿أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾[يوسف: ١٠١].

- وينبغي للمحب للصالحين أن يردد قولَهُ سبحانَهُ:

﴿ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ [الشعراء: ٨٣].

- وما أجمل أن نردد دعاء داود عليه السلام: (اللَّهُمَّ إني أسألك حبَّكَ وحبَّ من يُحِبُكَ والعملَ الذي يبلغني حبك، اللهم اجعل حُبَّك أحبَّ إلي من نفسي وأهلي من الماء البارد). (أخرجه الترمذي والحاكم)

اللهم اجعلنا من الصالحين، واجمعنا معهم، وارزقنا محبتهم.

رابعاً- مقام التقوى

- مقام التقوى مقام عظيم فقد ذكر الله التقوى في قرآنه مع اشتقاقاتها (٢٦٩ مرة) وإذا اجتمعت التقوى مع الإيمان تحققت الولاية لله ﷻ، قال تعالى:

﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦٢-٦٣].

- والتقوى كلمة جامعة شاملة وهي - وإن قل لفظها - كثيرة المعنى شاملة لخيري الدارين.

- **والتقوى لغة:** من الاتقاء، وهو طلب السلامة بما يحجز عن المخافة.

- **والتقوى معناها في الأصل:** جعل النفس في وقاية مما تخاف.

- **واتقى الله:** خاف عقابه فتجنب ما يكره.

- **وتقوى الله:** خشيته وامتثال أوامره واجتناب نواهيه.

- **والتقوى في اصطلاح الشرع والعقل:** حفظ النفس عما يشينها ويعرضها للملامة أو العذاب، وذلك بترك أسباب السخط والعقوبة، وفعل الفرائض المنجية المؤدية إلى النعيم والثواب.

- **وأصل التقوى:** اتقاء الشرك، ثم بعد ذلك اتقاء المعاصي والسيئات، ثم بعد ذلك اتقاء الشبهات، ثم بعد ذلك ترك الفضلات، ومع كل ذلك الالتزام بالفرائض والواجبات، والأوامر والطاعات.

- وقد عرف الصحابة والتابعون، والعلماء التقوى بتعاريف كثيرة منها:

- قال رجل لأبي هريرة ﷺ: ما التقوى؟ قال: «أخذت طريقاً ذا شوك؟ قال: نعم، قال: فكيف صنعت؟ قال: إذا رأيت الشوك عدلت عنه أو جاوزته أو قصرت عنه، قال: ذاك التقوى». (البيهقي في الزهد الكبير)

أيْ أنَّ التقوى تشميرٌ لأداءِ الطاعاتِ وحَذَرٌ من المعاصي والسيئاتِ.

نعم التقوى: إحساسٌ في الضميرِ، وخشيةٌ مستمرةٌ، وتشميرٌ واجتهادٌ، واستعدادٌ ليوم المعادِ.

- التقيُّ يعملُ بقولِ سيدِنا عليٍّ ﷺ: (التقوى هي: الخوفُ من الجليلِ، والعملُ بالتنزيلِ، والقناعة بالقليلِ، والاستعدادُ ليومِ الرحيلِ). (الأربعين النووية، النووي)

- حقيقةُ المتقي ليسَتْ بالمظاهرِ وإنما هيَ بالحقائقِ كما قالَ عمرُ بنُ عبدِ العزيز ﷺ: (ليس تقوى اللهِ بصيامِ النهارِ ولا بقيامِ الليلِ والتخليطِ فيما بين ذلك، ولكنَّ تقوى اللهِ تركُ ما حرَّمَ اللهُ، وأداءُ ما افترضَ اللهُ، فَمَنْ رُزِقَ بعدَ ذلك خيراً فهو خيرٌ إلى خيرٍ). (البيهقي في الزهد الكبير)

- حقيقةُ المتقي أن يكون ظاهرُهُ وباطنُهُ سواءً كما قيلَ: لا يَبْلُغُ الرجلُ سَنَامَ التقوى إلا أن يكونَ بحيث لو جُعِلَ ما في قلبِهِ في طَبَقٍ، فَطِيْفَ به في السوقِ لم يَسْتَحِ منه.

- وهذا يتفقُ معَ ما قالَهُ أهلُ التقوى: (أنْ لا يراكَ اللهُ حيثُ نهاك، وأن لا يَفْقِدَكَ حيثُ أمرَكَ). (تفسير الآلوسي وفي البداية والنهاية، ابن كثير)

- ومعَ قولِهِمْ: التقوى اتقاءُ عذابِ اللهِ بصالحِ العملِ، والخشيةُ منه في السرِّ والعَلَنِ.

- وفي هذا يقولُ ابن المعتزِ (محاضرات الأدباء، الراغب الأصفهاني جزء١ ص٤٨٩):

خَلِّ الذنوبَ صغيرَها ... وكبيرَها ذاك التُّقَى

واصنعْ كماشٍ فوقَ أر ... ضِ الشَّوْكِ يَحْذَرُ ما يرى

لا تَحقِرَنَّ صغيرةً ... إن الجبالَ من الحَصَى

- التقيُّ فرِحٌ بأنه أصبح من أولياءِ اللهِ الذينَ يتولاهم اللهُ بفضلِهِ وعنايتِهِ لقولِهِ سبحانَهُ: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦٢-٦٣].

- التقيُّ فرِحٌ بما سينالُهُ من العِلْمِ اللدنيِّ والتوفيقِ الإلهيِّ لقولِهِ سبحانَهُ:

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

- التقيُّ في حالةِ سرورٍ دائمٍ لأنه يَشْعُرُ بأنَّ اللهَ معَهُ بالعَوْنِ والتأييدِ والنصرِ يردِّدُ دائماً قولَهُ سبحانَهُ: ﴿ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١٩٤].

- فَمَنْ كانَ اللهُ معَهُ، كان معَهُ كلُّ شيءٍ، ومنْ لم يكنِ اللهُ معَهُ فَقَدَ كلَّ شيءٍ، المتقي يُخاطِبُ اللهَ بقولِهِ: إلهي ماذا فَقَدَ من وجدَكَ! إلهي ماذا وجَدَ من فَقَدَكَ!، المتقي يفرحُ بحبِّ اللهِ له لقولِهِ سبحانَهُ: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ٧٦].

- المتقي واثقٌ بقبولِ اللهِ أعمالَهُ لقولِهِ سبحانَهُ:

﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧].

- المتقي مطمئنٌ بتكفيرِ اللهِ لسيئاتِهِ وتعظيمِ أجرِهِ لأنه يقرأُ دائما قولَهُ سبحانه:

﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا﴾ [الطلاق: ٥].

- المتقي يسيرُ واثقَ الخُطا في هذه الحياةِ، لأنه يعرِفُ أنَّ اللهَ سيرشِدُهُ إلى الطريقِ الصحيحِ المستقيمِ لقوله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الأنفال: ٢٩].

- المتقي لا يخافُ من الأزماتِ والعقباتِ التي تواجهُهُ ولا من أن تُغْلَقَ أبوابُ الأرزاقِ في وجهِهِ لأنه على ثقةٍ بقولِهِ سبحانَهُ: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق: ٢-٣].

- المتقي فرحٌ بكلِّ ما ينالُهُ في الدنيا وهو على يقينٍ بتكريمِ اللهِ له وتفضُّلِهِ عليه

في الآخرةِ لأن تقواه في الدنيا سببٌ لنجاتِه من النارِ في الآخرةِ، قال تعالى:

﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ [مريم: ٧١- ٧٢].

- والتقي يَأْمُلُ أن يصيرَ إلى المكانةِ العاليةِ والمنزلةِ الرفيعةِ في الجنة التي وعَدَهُ الله إياها بقوله سبحانه: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر: ٥٤- ٥٥].

- وقوله سبحانه: ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ [ق: ٣١].

- وقوله ﷻ: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٢].

- وقوله سبحانه: ﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا﴾ [مريم: ٦٣].

- هذه نتائجُ التقوى التي وصّانا بها الله ﷻ وأمرنا بملازمتها فقال:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾.

[آل عمران: ١٠٢]

- وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ﴾ [النساء: ١٣١].

- وقال جل جلاله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الحشر: ١٨].

- كذلك النبي ﷺ كان يكثر من الوصية بالتقوى، عن أبي سعيدٍ الخدريِّ ﷺ قالَ: جاءَ رجلٌ إلى النبيِّ ﷺ فقالَ يا نبيَّ اللهِ أوصني فقال: «عليكَ بتقوى اللهِ فإنها جِماعُ كلِّ خيرٍ». (أخرجه أبو يعلى في مسنده والطبراني في الصغير)

- وعن أبي ذرٍ ومعاذِ بنِ جبلٍ رضي الله عنهما أن رسولِ اللهِ ﷺ قالَ:
«اتقِ اللهَ حيثما كنْتَ وأتْبِعِ السيئةَ الحسنةَ تَمْحُهَا، وخالِقِ الناسَ بخُلُقٍ حسنٍ».
(أخرجه الترمذي وقال حديث حسن صحيح)

- ولقد كانَ كثيرٌ من الصحابةِ رضيَ اللهُ عنهم يسألون رسولَ الله ﷺ الوصيةَ فكانَ جلُّ وصاياه لهم تقوى الله ﷻ. قالَ أبو ذر: قلْتُ يا رسول الله أَوْصِنِي قالَ رسولُ الله ﷺ: «أوصيْكَ بتقوى اللهِ فإنها رأسُ الأَمْرِ كلِّه». (أخرجه ابن حبان)

- ولقد بَيَّنَ النبيُّ ﷺ مكانةَ المتقين فقال: «إنَّ أولى الناسِ بي المتقونَ مَنْ كانوا وحيْثُ كانوا». (أخرجه أحمد وهو حديث صحيح)

- وعلَّمَنا النبيُّ ﷺ أن نطلُبَ التقوى في دعائنا فقالَ: «اللهمَّ إني أسألُكَ الهُدَى والتُّقَى والعفافَ والغنى». (أخرجه مسلم عن عبد الله بن مسعود ﷺ)

- ولم يَزَل الصحابةُ والتابعونَ والسلفُ الصالحُ جميعاً يتواصَوْن بالتقوى في كلِّ أعمالِهِمْ وأحوالهم وأمورِهِمْ، فهذا سيدنا أبو بكر الصديق ﷺ كان يقول في أكثر خطبه: (أما بعد فإني أوصيكم بتقوى الله....). (أخرجه ابن أبي شيبة والحاكم)

- ولما حضرته الوفاة وعهد إلى عمر ﷺ دعاه ووصاه بوصية، وأول ما قال له: (اتقِ الله يا عمر). (أخرجه ابن أبي شيبة وابن المبارك وأبو نعيم)

- وكتب سيدنا عمر إلى ابنه عبد الله رضي الله عنهما: (أما بعد فإني أوصيك بتقوى الله، فإنه من اتقى الله وقاه، ومن توكل عليه كفاه، ومن أقرضه جزاه، ومن شكر زاده، ولتكن التقوى نصب عينيك وعماد عملك وجلاء قلبك، فإنه لا عمل لمن لا نية له، ولا أجر لمن لا حسبة له، (يعني لا أجر لمن لم يحتسب ثواب عمله عند الله ﷻ) ولا مال لمن لا رفق له، ولا جديد لمن لا خَلَقَ (الثوب البالي) له).

(أخرجه ابن أبي الدنيا في التقوى في جامع الأحاديث)

- قال كتب عمر بن عبد العزيز إلى رجل: (أوصيك بتقوى الله الذي لا يقبل غيرها ولا يرحم إلا أهلها ولا يثيب إلا عليها فإن الواعظين بها كثير والعاملين بها قليل). (أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء)

- قد يقولُ قائلٌ إذا كانت التقوى بهذه المنزلة في الإسلامِ فهي صفةٌ لابدَّ منها للمؤمنِ لينالَ رضاءَ اللهِ ورضوانَهُ ويُحقِّقَ السعادةَ في الدارين.فكيفَ نكونُ من المؤمنينَ الحقيقيين؟ ألا تَصِفُ لنا أعمالَ التقي، أقول: المتقي من يحافظُ على جميعِ الطاعاتِ على أحسنِ وجهٍ ويعملُ بأوامرِ اللهِ على أفضلِ صورةٍ ويبتعدُ عن المعاصي ولو صَغُرَتْ وعمَّا نهى اللهُ عنه في السرِّ والعَلَنِ.

□ فما هي أهم أعمال المتقي؟

١) المتقي مخلصٌ في أقوالِهِ وأعمالِهِ ونيَّاتِهِ مُبتعدٌ عن الرياءِ في جميعِ أشكالِهِ.

٢) المتقي يُداوم على قراءةِ القرآنِ وحفظِهِ، وعلى ذكْرِ اللهِ في كلِّ أحوالِهِ مُبتعداً عن الغَفَلات والمُلْهِيات، المتقي يسعى إلى عالمٍ مُرَبٍّ يجلِسُ بين يديه ليتربَّى على يديه ويرشدَهُ إلى الطريقِ المستقيمِ ويُعَرِّفَهُ بالمنهجِ السليمِ.

٣) المتقي بارٌّ بوالديه واصلٌ لأرحامِهِ مُبتعدٌ عن العقوق والقطيعة.

٤) المتقي عارفٌ لواجباتِهِ مُؤَدٍّ حقوقَ الآخرينَ يتعاونُ معَهم على البرِّ والتقوى مبتعدٌ عن النفاقِ والفسوقِ لا يَحْسُدُ ولا يَحْقِدُ ولا يخونُ ولا يكْذِبُ ولا يستغيبُ ولا يهزأُ ولا يَسْخَرُ من الآخَرِينَ أبداً.

٥) المتقي يَغُضُّ بصرَهُ عن الحرامِ ويحفَظُ القلبَ واللسانَ ويبتعدُ عن أهلِ الخَنَى والعصيانِ.

٦) المتقي مُتَمَسِّكٌ بالحَلَالِ مهما كانَ صعْبَ المنالِ شعاره: مهما قَلَّ الحلالُ فالبركةُ فيه، مبتعدٌ عن الحرامِ مهما كانَ سهلَ المنالِ شعاره: أما الحرامُ فالممات دونَهُ.

٧) المتقي هو الذي يطلُبُ الحلالَ ويبتعدُ عن الحرام واضعاً نُصْبَ عينيه قولَ النبيِّ ﷺ: «طلبُ الحَلالِ واجبٌ على كلِّ مسلمٍ». (أخرجه الطبراني بإسناد حسن)

- لا يَغيبُ عنه قولُ النبيِّ ﷺ: «من اشترى ثوباً بعشَرَةِ دراهمَ وفيها درهمٌ واحدٌ من حَرامٍ لم يقبلِ الله له من صلاةٍ ما دامَ عليه». (أخرجه أحمد في مسنده)

- تراه خائفاً من أنْ ينطبقَ عليه قولُ النبيِّ ﷺ: «يأتي على الناسِ زمانٌ لا يبالي المرءُ ما أخَذَ أمِنَ الحلالِ أم مِنَ الحرامِ، فإذْ ذاكَ لا تُجَابُ لهم دعوةٌ».

(أخرجه البخاري)

- سألَ سعدٌ ﷺ رسولَ اللهِ ﷺ أن يكونَ مُجابَ الدعوةِ فقالَ لهُ ﷺ: «يا سعدُ أَطِبْ مَطْعَمَكَ (أي اجعل طعامَكَ حَلالاً) تكنْ مُستجابَ الدعوةِ والذي نفسي بيدِهِ إنَّ العبدَ ليقذفُ اللقمةَ الحرامَ في جوفِهِ ما يُتَقَبَّلُ منه عملُ أربعينَ يوما وأيُّمَا عبدٍ نبتَ لحمُهُ من سحْتٍ فالنارُ أولى به». (أخرجه الطبراني الأوسط)

٨) المتقي يسعى إلى أن يصلَ إلى أعلى مستوى من التقوى وهو ما يُسمَّى بالورعِ، والورعُ هو أن يجتنبَ المسلمُ الشبهاتِ خوفاً من الوقوع في الحرمات، وأن لا يُسْرِفَ في المباحاتِ تطبيقاً لقولِ النبيِّ ﷺ: «إن الرجل لا يكون من المتقين حتى يَدَعَ ما لا بأسَ به، حَذَرَاً مما بهِ بأسٌ». (أخرجه الحاكم في المستدرك)

- قال رسول الله ﷺ لأبي هريرةَ ﷺ: «كنْ وَرِعَاً تكنْ أَعْبَدَ الناسِ».

(أخرجه ابن ماجه والبيهقي)

ويُعَبِّرُ عن ذلك أحد الصحابة ﷺ فيقولُ: (كنا نَدَعُ سبعينَ باباً من الحلالِ مخافةَ أن نقعَ في باب من الحرامِ). (مدارج السالكين، ابن قيم الجوزية جزء ص٢٢)

- وعبَّرَ سيدُنا عمرُ ﷺ عن ذلك فقالَ: (كنا نَدَعُ تسعَةَ أعشارِ الحلالِ مخافةَ أن نقعَ في الحرام). (أخرجه عبد الرزاق في مصنفه)

- وقالَ رسول الله ﷺ: «لو صليتم حتى تكونوا كالحنايا وصمتم حتى تكونوا كالأوتار ثم كان الاثنان أحب إليكم من الواحد لم تَبْلُغوا الاستقامة».

(أخرجه ابن عساكر والديلمي في جامع الأحاديث عن عمر ﷺ)

- (وهذا حسانُ بنُ أبي سنانٍ (ورأى أنس بن مالك ﷺ، وأدرك الدولتين الأموية والعباسية) كان لا ينامُ مضطجعا حتى لا يفوتَه التهجدُ، رُئي في المنامِ بعدَ موتِه، فقيلَ له: ما فَعَلَ اللهُ بكَ ؟ فقالَ: خيراً إلا أني محبوسٌ عن الجنة بإبرةٍ استعرتُهَا فلم أردَّها.

ورُئِيَ عُتبةُ الغلامُ (الزاهد الخاشع الخائف) وهو من كبارِ الصالحينَ في مكانٍ يتصبَّبُ عرَقاً في الشتاءِ فقيل له في ذلك، فقالَ: (إنه مكان عصيْتُ اللهَ فيه فَسُئِلَ عنه فقالَ: كَشَطْتُ من هذا الجدارِ قطعةَ طينٍ غَسَلَ بها ضيفٌ لي يدَهُ ولم أستَحِلَّ من صاحبِه.

- ورَجَعَ ابنُ المباركِ من مَرْوَ إلى الشامِ ليردَّ قلماً استعارَهُ من صاحبِه).

(الرسالة القشيرية: ص١١٣- ١١٤)

- وحُكِيَ عن بعضِهم أنه كانَ حينما يريدُ الخروجَ صباحا لطلبِ الرزقِ يتعلَّقُ به أهلُهُ وبنوه يقولون: (نَنْشُدُكَ اللهَ لا تُدْخِلْ علينا شيئاً من الحرامِ، فإنا نصبرُ على الفقرِ ولا نصبرُ على النارِ).

- هذه هي التقوى في أعلى مراتبها، فما أحلى أن نتزودَ بها قال تعالى:

﴿وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [البقرة: ١٩٧].

هذه التقوى التي عَدَّها الله ﷻ خيرَ لباسٍ يرتديه الإنسانُ، قال تعالى:

﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٦].

- لقد وصفَ اللهُ عبادهُ عبادَ الرحمن وهم يدعونه بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: ٧٤].

- قالَ نافعٌ: (خرجْتُ معَ ابنِ عمَر رضي الله عنهما إلى بعضِ نواحي المدينة، فوضعنا سُفرةً فمر بنا راعٍ، فقالَ له عبدُ اللهِ هَلُمَّ يا راعي فقالَ إني صائمٌ، فقالَ: في مثلِ هذا اليومِ الشديدِ حَرُّهُ في هذا الشِّعْبِ؟ قالَ: أُبَادِرُ أيامي أصومُ في حَرِّ هذا اليومِ مخافَةَ حَرِّ يومِ القيامة، فقالَ له عبدُ اللهِ ﷺ هل لك أن تبيعَنا شاةً ونُعْطِيَكَ من لحمِها ما تُفْطِرُ عليه ؟ قالَ الراعي: إنها لمولاي فقالَ عبدُ الله ممتحناً له فما عسى أن يصنعَ مولاك إن قلْت أكلَها الذئبُ؟ فمضى الراعي وهو يرفع إِصْبَعَهُ إلى السماءِ ويقولُ بصوتٍ ملأَ أركانَ الصحراءِ: فأينَ اللهُ؟ فأينَ اللهُ؟ فأينَ اللهُ؟ فلم يَزَلْ ابنُ عمرَ يقولُ وهو يبكي فأينَ الله فأين الله ثُمَّ بعثَ إلى سيِّدِ العبدِ فاشتراهُ منه واشترى الغنمَ فأعتقَ الراعيَ ووهبَهُ الغنمَ). (أحسن المحاسن، الطبراني ص١٨٦)

وقال إبراهيم بن أدهم: (بت ليلة تحت الصخرة ببيت المقدس؛ فلما كان بعض الليل نزل ملكان، فقال أحدهما لصاحبه: من هاهنا؟ فقال الآخر: إبراهيم بن أدهم.

فقال: ذاك الذي حط اللهُ سبحانه درجة من درجاته.

فقال: لم؟ قال: لأنه اشترى بالبصرة تمراً، فوقعت تمرةٌ على تَمْرِهِ من تَمْرِ البقالِ، فلم يردها على صاحبها.

قال إبراهيم: فمضيت إلى البصرة، واشتريت التمر من ذلك الرجل، وأوقعتُ تمرةً على تَمْرِهِ، ورجعت إلى بيت المقدس، وبت تحت الصخرة.

فلما كان بعض الليل، إذ أنا بملكين نزلا من السماء.

فقال أحدهما لصاحبه: من هاهنا؟ فقال الآخر: إبراهيم بن أدهم: فقال: ذلك الذي رد الله مكانه، ورُفعت درجته). (الرسالة القشيرية: ص١٠٨)

خامساً- مقام الإخلاص

- قال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ (الزمر: ١١)

- افتتحَ أصحابُ الصِّحاحِ كتبَهُمْ بالحديثِ المشهورِ الذي رواه سيِّدُنا عمرُ بنُ الخطابِ ﷺ عن رسولِ اللهِ ﷺ أنه قال: «إنما الأعمالُ بالنيات، وإنما لكلِّ امرئٍ ما نوى»... إلى آخر الحديث. (أخرجَه الشيخانِ، وأبو داودَ، والنَّسائيُّ)

(قالَ العلماءُ في هذا الحديثِ: ليسَ في أخبارِ النبيِّ ﷺ شيءٌ أجْمَعَ، وأغنى وأكثرَ فائدةً، من هذا الحديثِ.

- ورُوِيَ عن الشافعيِّ وأحمد بن حنبل وغيرهم من العلماء رحمَهم اللهُ تعالى، أنهم قالوا: هذا الحديثُ ثُلُثُ الإسلام). (فتح الباري، ابن حجر جزء١ ص٢)

- في هذا الحديثِ تنبيهٌ هامٌّ للمسلمينَ لأهمية النية، وأنَّ أيَّ عملٍ تَلْزَمُهُ النيةُ، وبالنيةِ ينال الإنسانُ الحسناتِ أو السيئاتِ، ولا يُقْبَلُ عملٌ بغيرِ نية، والعملُ المقبولُ، هو ما أخْلَصَ المؤمنُ فيه نِيَّتَهُ، وجعلَهُ خالصاً لوجه الله، لا يُشْرِكُ به أحداً، ولا يُريدُ به وجهَ أحدٍ إلا اللهُ سبحانَهُ وتعالى، وهذا العملُ يُسمى إخلاصاً، أي جعلَهُ المرءُ خالصاً للهِ تعالى، وبذلكَ ينالُ العبدُ ثوابَ العملِ من اللهِ سبحانَهُ وتعالى.

- قال الإمام ابن القيم رحمه الله عن النية: (هي رأس الأمر وعموده، وأساسه وأصله الذي يبنى عليه، فإنها روح العمل وقائده وسائقه، والعمل تابعٌ لها يبنى عليها، يصح بصحتها ويفسد بفسادها، وهي يستجلب التوفيق، وبعدمها يحصل الخذلان، وبحسبها تتفاوت الدرجات في الدنيا والآخرة). (إعلام الموقعين جزء٤ ص٩٩)

- وسُئِلَ النبيُّ ﷺ عن الإخلاصِ ما هو؟ فقالَ: «سألْتُ جبريلَ عليه السلامُ عن الإخلاصِ ما هو؟ قالَ: سألْتُ ربَّ العزةِ عن الإخلاصِ ما هو؟ قال: سِرٌّ من سِرِّي استودعْتُهُ قلْبَ من أحببْتُهُ من عبادي». (أخرجه القزويني في مسلسلاته عن حذيفة)

- ومن هذا القبيل، قول أبي القاسم القشيري رحمه الله معرفاً الإخلاص: (الإخلاص إفراد الحق سبحانه في الطاعة بالقصد، وهو أن يريد بطاعته التقرب إلى الله سبحانه دون شيء آخر من تصنع لمخلوق، أو اكتساب صفة حميدة عند الناس، أو محبة مدح من الخلق، أو معنى من المعاني سوى التقرب إلى الله تعالى، ويصح أن يقال: الإخلاص تصفية العمل عن ملاحظة المخلوقين، ويصح أن يقال: الإخلاص التوقي عن ملاحظة الأشخاص). (الرسالة القشيرية: ص٢٠٧)

- وقال الجنيدُ: (الإخلاصُ سرٌّ بينَ اللهِ والعبدِ، لا يعلمُهُ مَلَكٌ، فيكتبَهُ، ولا شيطانٌ، فيفسدَهُ، ولا هوى، فَيُميلَهُ). (المصدر نفسه: ص٢٠٨)

- وقالَ ذو النونِ المصريُّ: (ثلاثٌ من علاماتِ الإخلاصِ: استواءُ المدْحِ والذمِّ من العامَّةِ، ونِسيانُ رؤيةِ الأعمالِ، ونسيانُ اقتضاءِ ثوابِ العملِ في الآخرةِ).

(المصدر نفسه: ص٢٠٨)

- فالإخلاصُ ألا تطلبَ على عملكَ شاهداً غيرَ اللهِ، ولا مجازياً سواهُ. حيث رُويَ عن ابنِ مسعودٍ ﷺ أنَّهُ سمعَ رجلاً يقولُ: (قَرأتُ البارحةَ البقرةَ، فقالَ: ذلكَ حظُّكَ منها، أيْ هذا الإعلانُ هو ثوابُكَ منها). (إحياء علوم الدين، الغزالي جزء٥ ص٦٣)

- وسُئلَ سَهْلُ بنُ عبدِ اللهِ: (أيُّ شيءٍ أشدُّ على النفسِ؟ فقالَ: الإخلاصُ لأنَّهُ ليسَ لها فيه نصيبٌ). (الرسالة القشيرية: ص٢٠٩)

- والإخلاص مصدر وفعله أخلص، ومجرد الفعل خلص، ومعناه: صفا وزال عنه ما يَشُوبُهُ من الشوائب، فذهب خالص: ذهب صافٍ لا شائبة فيه.

- وأخلص الشيء: صفاه ونقاه مما يشوبه.

- وكلمة الإخلاص كلمة التوحيد، وهي لا إله إلا الله.

- وسورة الإخلاص هي سورة: قل هو الله أحد، وهي سورة التوحيد.

- والإخلاص شرعاً: هو صفاء النية، ونقاء السريرة من الشرك والرياء، وإرادة وجه الله تعالى، وحيازة رضاه في كل اعتقاد أو قول أو عمل.

- وللإخلاصِ أهميةٌ كبرى فهو طريق رضا الرحمن، وقبول الأعمال، ورفع الدرجات، والوصول إلى الجنات، وله أهمية في دفعِ الفتنِ عن الأمةِ، قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «طوبى للمخلصينَ أولئكَ مصابيحُ الدُّجى تنجلي عنهم كلُّ فتنةٍ ظلماء».

(أخرجه البيهقي في شعبه)

- وللإخلاصِ أيضاً أهميةٌ كُبرى في تكوينِ شخصيةِ المسلمِ، لأنَّهُ يحتاجُ إلى إيمانٍ يقينيٍّ، وصِدْقٍ ربانيٍّ، وإرادةٍ فُولاذية، وهمةٍ عاليةٍ، وصبرٍ شديد.

- والإخلاصُ يُضادُّهُ الشرك الخفيُّ أي الرياءُ، فمنْ لم يكنْ مُخلصاً، فهو مُشْرِكٌ، إلا أنَّ الشِّرْكَ درجاتٌ، فالإخلاصُ وضِدُّهُ، يتواردانِ على القلْبِ، لأنَّ الإخلاصَ محلُّهُ القلبُ، وإنما يكونُ ذلكَ في المقاصدِ والنيات، ومنْ هنا جاءتْ أهميةُ الإخلاصِ، لأنَّهُ سرٌّ ولا يَطَّلِعُ عليه إلا اللهُ سبحانَهُ فيكونُ الإخلاصُ، بالتوجُّهِ إلى اللهِ وحدَهُ، وإفرادِهِ بالتوحيدِ والعبادةِ، والطاعةِ، والحبِّ، والتذلُّلِ، والتخشُّعِ، قاصداً من كلِّ ذلكَ، إرضاءَهُ سبحانَهُ دونَ سواهُ، في كلِّ عملٍ من أعمالِهِ، وحركةٍ من حركاتِهِ، وسَكَنَةٍ من سَكَنَاتِهِ، وخَطْرَةٍ، من خَطَرَاتِ قلبِهِ، وحديثِ نفسِهِ.

- يقول الله ﷻ: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠].

- وقد وردَ في سببِ نزولِ هذه الآية، عدَّةُ أقوالٍ منها:

- قولُ ابنِ عباسٍ ﷺ: (نَزَلَتْ في جُنْدُبِ بنِ زهيرٍ العامريِّ، قالَ: قالَ يا رسولَ اللهِ، إني أعملُ العملَ للهِ تعالى، وأُريدُ وجهَ اللهِ تعالى، إلا أنَّهُ إذا اطُّلِعَ عليهِ سَرَّني، فقالَ النبيُّ ﷺ: «إنَّ اللهَ طيِّبٌ، ولا يَقْبَلُ إلا الطيبَ، ولا يقبلُ ما شُوْرِكَ فيه» فنزلت الآية. (أخرجه الحاكم في المستدرك)

- وقالَ طاووسٌ (اليماني التابعي الكبير المشهور، أخذ القرآن عن ابن عباس ومُعْظمُ روايته عنه): (قالَ رجلٌ يا رسولَ الله، إني أحبُّ الجهادَ في سبيلِ اللهِ وأحبُّ أنْ يُرَى مكاني، فنزلَتِ الآيةُ). (الجامع لأحكام القرآن)

- وقالَ مجاهدٌ: (جاءَ رجلٌ إلى النبيِّ ﷺ، فقالَ: يا رسولَ الله، إني أتَصَدَّقُ، وأَصِلُ الرَّحِمَ، ولا أَصْنَعُ ذلكَ إلا لله تعالى، فَيُذْكَرُ ذلكَ مني، وأُحْمَدُ عليه، فَيَسُرُّني ذلكَ، وأُعْجَبُ به، فَسَكَتَ رسولُ اللهِ ﷺ، ولَمْ يَقُلْ شَيئاً، فنزلت الآيةُ).

(الجامع لأحكام القرآن)

- ومهما كانَ سببُ نُزولِ الآيةِ، فالعبرةُ في عمومِها، لأنَّ الإخلاصَ مطلوبٌ في كلِّ شيءٍ.

- لذلكَ، فإنَّ سيِّدَنا عمرَ ﷺ عندَما كان يقرأُ، أو يسمعُ هذه الآيةَ، كان يقولُ: (اللَّهمَّ اجعلْ عملي كلَّهُ صالحاً، واجعلْهُ لكَ خالصاً، ولا تجعلْ لغيرك منه شيئاً). (طبقات المحدثين بأصبهان، أبو الشيخ الأصبهاني)

- وعن أبي سعيدٍ الخُدْرِيِّ ﷺ، أنه قالَ: (خرجَ علينا رسولُ اللهِ ﷺ ونحنُ نتذاكَرُ المسيحَ الدجالَ، فقالَ: «ألا أُخبِرُكُم بما هو أخوفُ عليكم عندي منَ المسيحِ الدَّجالِ؟، قال: قلنا بلى، فقالَ: الشركُ الخَفِيُّ، أن يقومَ الرجلُ فيصلي فَيُزَيِّنُ صلاتَهُ، لما يَرَى من نَظَرِ رجلٍ». (أخرجه ابن ماجه، والبيهقي، والحاكم)

- وفي الأَثَرِ: (منْ صَلَّى يُرائي فقدْ أَشْرَكَ). (أخرجه الحاكم في المستدرك)

- وجاءَ أيضاً: (ومنْ تَصَدَّقَ يُرائي فقدْ أَشْرَكَ). (أخرجه الحاكم في المستدرك)

- وقياساً على ذلك، من صامَ يُرائي فقد أَشْرَكَ، ومن حَجَّ يُرائي فقد أَشْرَكَ، وكذلكَ جميعُ الأعمالِ التي يُراءَى بها، فصاحبها قد أَشْرَكَ، وفي الحديث القُدْسيِّ يقولُ اللهُ تعالى: «أنا أَغْنَى الشركاءِ عن الشِّركِ، فمنْ عملَ لي عملاً أَشركَ فيه غيري فأنا منهُ بريءٌ، وهو للذي أشركَ». (أخرجه ابن ماجه)

- مما سبقَ نجدُ أنَّ الرياءَ وهو الشِّركُ الخفيُّ، هو نَقيضُ الإخلاصِ، والرياءُ إذا داخَلَ الأعمالَ الصالحةَ، وإن كانت في أتمِّ صُورِها، يَقلِبُهَا إلى أعمالٍ تُوجِبُ اللَّومَ والعُقُوبَةَ، قالَ تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ۝٦ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾ [الماعون: ٤- ٧].

- وقالَ تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا﴾.

[الفرقان: ٢٣]

- لذلك قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «أَخلِصْ دِينَكَ يَكْفِكَ العملُ القليلُ».

(أخرجه الحاكم في مستدركه عن معاذ ﷺ)

- والمؤمنُ الحقُّ يَرتَقِي بإخلاصِهِ إلى أرفعِ الدرجاتِ، وهي عبادةُ اللهِ وحدَهُ، يَبْتَغِي وجهَهُ، دُونَ أنْ يَقْصِدَ ثَواباً.

- وكما قالَ الشاعرُ:

فما مَقْصُودُهُمْ جنـاتُ عـدنٍ ... ولا الحورُ الحِسانُ ولا الخِيامُ

سِوى نَظَرِ الجَلِيلِ وذا مُنـاهُمْ ... وهذا مقـصِدُ القـومِ الكـرام

- وكما قالتْ رابعةُ: (يا ربِّ، ما عَبدتُكَ خَوفاً منْ نَارِكَ، ولا طَمعاً في جنتِكَ، وإنما عَبَدْتُكَ لذاتِكَ، لأنَّكَ تَستَحِقُّ ذلكَ).

- لأنهُ لو لَمْ يكنْ ثَمَّةَ ثَوابٌ، ولا عِقَابٌ، ولا جَنَّةٌ ولا نَارٌ، لَمَا تَأَخَّرَ الصَّادِقُونَ عن عبادةِ ربِّهم، لأنَّهم يعبدونَ اللهَ، حُبّاً له، وطَلَباً لِقُرْبِه، ورضوانِه، بَعدَ أنْ أدركوا نِعَمَهُ وآلاءَهُ، وذاقوا بِرَّهُ وإحسانَهُ. وليس معنى هذا أنَّهم لا يُحبون دخولَ الجنة، ولا يَرْغَبُون في البُعْدِ عن النارِ، فهم يُحبون الجنةَ ويطلبونها، لأنها مَظْهَرُ حُبِّ اللهِ، ورضائِهِ وقربِه، ويكرهون النارَ، ويخافونها، لأنها مظهرُ سخطِ اللهِ وغضبِهِ ونِقْمَتِه، ولعظيمِ شأنِ النيةِ، تحدَّثَ عنها العلماءُ كثيراً، ونَبَّهُوا إلى أهميَّتِها.

- قالَ يحيى بنُ كثيرٍ (البصري الحافظ): (تعلَّموا النيةَ، فإنها أَبْلَغُ من العملِ).

(حلية الأولياء، أبو نعيم)

- وقالَ ابن المبارك: (رُبَّ عملٍ صغيرٍ تُعَظِّمُهُ النيةُ، ورُبَّ عملٍ كبيرٍ تُصَغِّرُهُ النيةُ).

(الإخلاص والنية، ابن أبي الدنيا ص٧٣)

- وقالَ آخرون: (تجارةُ النياتِ، تجارةُ العلماءِ، وذلك لأنَّ العلماءَ يعرفون كيفَ يُدخلونَ النيةَ في جميعِ أعمالِهم، مهما تنوَّعَتْ، فيحصلونَ على ما يريدون، مع حصولِ الثوابِ على تلكَ الأعمال وإن كانت ممَّا يدخلُ في مجالِ العاداتِ، فباستحضارِهم للنيةِ الصالحة معَ هذه الأعمالِ تصبحُ أعمالاً صالحةً).

- فالتطيُّبُ مثلاً، إذا قُصِدَ به التَّلذُّذُ والتَّنعُّمُ، فهو مُباحٌ، وإنْ نُوِيَ به اتباعُ سُنَّةِ الرسولِ ﷺ فهو قُربى، وفيهِ ثوابٌ، وإن نُوِيَ به التَّودُّدُ إلى قلوبِ النساءِ الأجنبيات، أو التفاخرُ والتكاثرُ، فهذا يجعلُ التطيُّبَ معصيةً، ويوجِبُ العقوبةَ، وكذلكَ سائرُ الأعمالِ.

- فإذاً، المباحُ بالنيَّةِ الصَّالحة، يرتفعُ إلى درجةِ الطَّاعةِ ورضاءِ اللهِ، وبالنيَّةِ الفاسدةِ يتحولُ إلى معصيةٍ، أكلُ الطَّعامِ وشُربُ الماءِ مُباحٌ، فإن نَوينا بهما نيَّةً صَالحةً فقُلنا: (بسم الله الرحمن الرحيم، نَويتُ التَّقويَ على طاعةِ اللهِ). حصلنا على ثوابٍ كبيرٍ.

- وكذلكَ في العملِ: (نَويتُ فَتحَ محلي وقضاءَ حوائجِ عبادِ اللهِ) بهذه النيَّةِ نحصلُ على ثوابٍ كبيرٍ، وفي زيارةِ مريضٍ: (نويتُ عيادَتَهُ تَقرُّباً لله تعالى)، وفي التَّعزيةِ: (نَويتُ تعزيةَ أهلِ الميِّتِ لله تعالى امتثالاً لأمرِ النبيِّ ﷺ وأداءً لحقِ الأُخُوَّةِ الإيمانيَّةِ)، وكذلكَ في الزواجِ: (إنْ كانت النيةُ تَعفُّفاً عن الحرامِ وغَضَّاً للبَصَرِ، وهكذا في سائرِ الأعمالِ).

- قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢- ١٦٣].

- وقد بيَّنَ النبيُّ ﷺ أهمية النيَّة، فقد روى أبو كَبْشةَ ﷺ، عن النبيِّ ﷺ قال:

«إنَّما الدُّنيا، لأربعةِ نَفَرٍ: عبدٌ رزقَهُ اللهُ مالاً وعِلْمَاً، فهو يَتَّقِي فيه ربَّهُ، ويَصِلُ فيه رَحِمَهُ، ويَعلمُ للهِ فيه حَقَّاً، فهذا بأفضلِ المنازلِ.

وعبدٌ رزقَهُ اللهُ عِلمَاً، ولَمْ يَرزقهُ مَالاً، فَهوُ صَادِقُ النِّيَّةِ فيقولُ: لو أنَّ لي مالاً لَعَمِلْتُ بعملِ فلانٍ، فهو بِنِيَّتِه، فأجرُهما سَواءٌ.

وعبدٌ رزقَهُ اللهُ مَالاً، ولَمْ يرزقْهُ عِلْمَاً، فهو يَتَخبَّطُ في مالِه بغيرِ علمٍ، لا يتقي فيه ربَّهُ، ولا يَصلُ فيه رحِمَهُ، ولا يَعْلَمُ فيه للهِ حقاً فهذا بأخبثِ المنازلِ.

وعبدٌ لَمْ يرزقْهُ اللهُ مالاً، ولا علْماً وهو يقولُ: لو أنَّ لي مَالاً لعَمِلْتُ فيه بعملِ فلانٍ، فهو بِنِيَّتِه فوِزْرُهُمَا سَواءٌ، أو كَمَا قالَ ﷺ». (أخرجه أحمد والترمذي)

- وينبغي للمسلم أن يعلم أن للإخلاص ثمرات وفوائد كثيرة يجنيها إن تحقق به من أهمها:

أولاً- الإخلاص وسيلة هامة من وسائل تفريج الكروب والأحزان، وحلّ لكثير من الأمراض والمشاكل التي تواجهه في الدنيا، وأظهر شيء لهذا الموضوع حديث رسول الله ﷺ: فقد روى ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «انْطَلَقَ ثَلاَثَةُ رَهْطٍ مِمَّنْ كَانَ قَبْلَكُمْ حَتَّى أَوَوْا الْمَبِيتَ إِلَى غَارٍ فَدَخَلُوهُ، فَانْحَدَرَتْ صَخْرَةٌ مِنَ الْجَبَلِ فَسَدَّتْ عَلَيْهِمُ الْغَارَ فَقَالُوا إِنَّهُ لاَ يُنْجِيكُمْ مِنْ هَذِهِ الصَّخْرَةِ إِلاَّ أَنْ تَدْعُوا اللَّهَ بِصَالِحِ أَعْمَالِكُمْ. فَقَالَ رَجُلٌ مِنْهُمُ اللَّهُمَّ كَانَ لِي أَبَوَانِ شَيْخَانِ كَبِيرَانِ، وَكُنْتُ لاَ أَغْبِقُ قَبْلَهُمَا أَهْلاً وَلاَ مَالاً، فَنَأَى بِي فِي طَلَبِ شَيْءٍ يَوْماً، فَلَمْ أُرِحْ عَلَيْهِمَا حَتَّى نَامَا، فَحَلَبْتُ لَهُمَا غَبُوقَهُمَا فَوَجَدْتُهُمَا نَائِمَيْنِ وَكَرِهْتُ أَنْ أَغْبِقَ قَبْلَهُمَا أَهْلاً أَوْ مَالاً، فَلَبِثْتُ وَالْقَدَحُ عَلَى يَدَيَّ أَنْتَظِرُ اسْتِيقَاظَهُمَا حَتَّى بَرَقَ الْفَجْرُ، فَاسْتَيْقَظَا فَشَرِبَا غَبُوقَهُمَا، اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ فَفَرِّجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ مِنْ هَذِهِ الصَّخْرَةِ، فَانْفَرَجَتْ شَيْئاً لاَ يَسْتَطِيعُونَ الْخُرُوجَ».

قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «وَقَالَ الآخَرُ اللَّهُمَّ كَانَتْ لِي بِنْتُ عَمٍّ كَانَتْ أَحَبَّ النَّاسِ إِلَيَّ، فَأَرَدْتُهَا عَنْ نَفْسِهَا، فَامْتَنَعَتْ مِنِّي حَتَّى أَلَمَّتْ بِهَا سَنَةٌ مِنَ السِّنِينَ، فَجَاءَتْنِي فَأَعْطَيْتُهَا عِشْرِينَ وَمِائَةَ دِينَارٍ عَلَى أَنْ تُخَلِّيَ بَيْنِي وَبَيْنَ نَفْسِهَا، فَفَعَلَتْ حَتَّى إِذَا قَدَرْتُ عَلَيْهَا قَالَتْ لاَ أُحِلُّ لَكَ أَنْ تَفُضَّ الْخَاتَمَ إِلاَّ بِحَقِّهِ. فَتَحَرَّجْتُ مِنَ الْوُقُوعِ عَلَيْهَا، فَانْصَرَفْتُ عَنْهَا وَهِيَ أَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ وَتَرَكْتُ الذَّهَبَ الَّذِي أَعْطَيْتُهَا، اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ فَافْرُجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ. فَانْفَرَجَتِ الصَّخْرَةُ، غَيْرَ أَنَّهُمْ لاَ يَسْتَطِيعُونَ الْخُرُوجَ مِنْهَا. قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: وَقَالَ الثَّالِثُ اللَّهُمَّ إِنِّي اسْتَأْجَرْتُ أُجَرَاءَ فَأَعْطَيْتُهُمْ أَجْرَهُمْ، غَيْرَ رَجُلٍ وَاحِدٍ تَرَكَ الَّذِي لَهُ وَذَهَبَ فَثَمَّرْتُ أَجْرَهُ حَتَّى كَثُرَتْ مِنْهُ الأَمْوَالُ، فَجَاءَنِي بَعْدَ حِينٍ فَقَالَ يَا عَبْدَ اللَّهِ أَدِّ إِلَيَّ أَجْرِي. فَقُلْتُ لَهُ كُلُّ مَا تَرَى مِنْ أَجْرِكَ مِنَ الإِبِلِ وَالْبَقَرِ وَالْغَنَمِ وَالرَّقِيقِ. فَقَالَ يَا عَبْدَ اللَّهِ لاَ تَسْتَهْزِئْ بِي. فَقُلْتُ إِنِّي لاَ أَسْتَهْزِئُ بِكَ. فَأَخَذَهُ كُلَّهُ فَاسْتَاقَهُ فَلَمْ يَتْرُكْ مِنْهُ شَيْئًا، اللَّهُمَّ فَإِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ فَافْرُجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ. فَانْفَرَجَتِ الصَّخْرَةُ فَخَرَجُوا يَمْشُونَ». (أخرجه البخاري)

ثانياً- الإخلاص من أهم الوسائل للتخلص من الشيطان، بل والتمكن من الانتصار عليه وقهره، والخلاص من إغوائه وإغرائه، وهذا ما حكاه القرآن من قول الشيطان: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ (الحجر: ٣٩-٤٠).

- وقال سبحانه: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾. [ص: ٨٢-٨٣]

- وعلى سبيل التوضيح لهذا الموضوع نورد القصة التي ذكرها الغزالي في بحث الإخلاص وهي:

(أن عابداً كان يعبد الله دهراً طويلاً فجاءه قوم فقالوا إن ههنا قوما يعبدون شجرة من دون الله تعالى فغضب لذلك وأخذ فأسه على عاتقه وقصد الشجرة ليقطعها فاستقبله إبليس في صورة شيخ فقال أين تريد رحمك الله قال أريد أن أقطع هذه الشجرة قال وما أنت وذاك تركت عبادتك واشتغالك بنفسك وتفرغت لغير ذلك فقال إن هذا من عبادتي قال فإني لا أتركك أن تقطعها فقاتله فأخذه العابد فطرحه على الأرض وقعد على صدره فقال له إبليس أطلقني حتى أكلمك فقام عنه فقال إبليس يا هذا إن الله تعالى قد أسقط عنك هذا ولم يفرضه عليك وما تعبدها أنت وما عليك من غيرك ولله تعالى أنبياء في أقاليم الأرض ولو شاء لبعثهم إلى أهلها وأمرهم بقطعها فقال العابد لا بد لي من قطعها فنابذه للقتال فغلبه العابد وصرعه وقعد على صدره فعجز إبليس فقال له هل لك في أمر فصل بيني وبينك وهو خير لك وأنفع قال وما هو قال أطلقني حتى أقول لك فأطلقه فقال إبليس أنت رجل فقير لا شيء لك إنما أنت كَلٌّ على الناس يعولونك ولعلك تحب أن تتفضل على إخوانك وتواسي جيرانك وتشبع وتستغني عن الناس قال نعم قال فارجع عن هذا الأمر ولك على أن أجعل عند رأسك في كل ليلة دينارين إذا أصبحت أخذتهما فأنفقت على نفسك وعيالك وتصدقت على إخوانك فيكون ذلك أنفع لك وللمسلمين من قطع هذه الشجرة التي يغرس مكانها ولا يضرهم قطعها شيئاً ولا ينفع إخوانك المؤمنين قطعك إياها فتفكر العابد فيما قال وقال صدق الشيخ لست بنبي فيلزمني قطع هذه الشجرة ولا أمرني الله أن أقطعها فأكون عاصيا بتركها وما ذكره أكثر منفعة فعاهده على الوفاء بذلك وحلف له فرجع العابد إلى متعبده فبات فلما أصبح رأى دينارين عند رأسه فأخذهما وكذلك الغد ثم أصبح اليوم الثالث وما بعده فلم ير شيئاً فغضب وأخذ فأسه على عاتقه فاستقبله إبليس في صورة شيخ فقال له إلى أين قال أقطع تلك الشجرة فقال كذبت والله ما أنت بقادر على ذلك ولا سبيل لك إليها قال فتناوله العابد ليفعل به كما فعل أول مرة فقال هيهات فأخذه إبليس وصرعه فإذا هو كالعصفور بين رجليه

وقعد إبليس على صدره وقال لتنتهين عن هذا الأمر أو لأذبحنك فنظر العابد فإذا لا طاقة له به قال يا هذا غلبتني فخل عني وأخبرني كيف غلبتك أولاً وغلبتني الآن فقال لأنك غضبت أول مرة لله وكانت نيتك الآخرة فسخرني الله لك وهذه المرة غضبت لنفسك وللدنيا فصرعتك). (إحياء علوم الدين: جزء٣ ص٣٧٧)

ثالثاً- الإخلاص ينجي صاحبه من هموم الدنيا وآلامها، ويدخله يوم القيامة الجنة، وينجيه من النار، لأنه أخلص نيته وعمله لله تعالى، وابتعد عن الشرك الخفي وهو الرياء يؤكد ذلك سبحانه وتعالى بقوله: ﴿إِنَّكُمْ لَذَآئِقُوا۟ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ﴾.
[الصافات: ٣٨-٤١]

وقوله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [الصافات: ٧٢- ٧٤].

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [الصافات: ١٥٨- ١٦٠].

- من كل ذلك ينبغي للمؤمن أن يتحرى دائماً قصص المخلصين وأعمالهم ليستفيد منها ويأخذ دروساً تعظه في سائر حياته، فيعمل عملهم ويتأسى بهم، وخير ما يحقق له ذلك أن يقرأ دائماً سيرة النبي ﷺ، فيرى فيها كامل الإخلاص في كل أعماله وأقواله، وأفعاله وتقريراته ﷺ، فهو المثل الأعلى والقدوة الصالحة، قال ﷻ عنه: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾.
[الأحزاب: ٢١]

- ولقد أثر النبي ﷺ في أصحابه وزكاهم ورباهم فغير الكثير من صفاتهم في كل مجالات الحياة، ولو تتبعنا أخبار الصحابة والتابعين والصالحين في موضوع الإخلاص لوجدنا الكثير منها:

- روى الأوزاعي أن عمر بن الخطاب ﷺ: (خرج في سواد الليل فرآه طلحة فذهب عمر فدخل بيتا ثم دخل بيتاً آخر فلما أصبح طلحة ذهب إلى ذلك البيت فإذا بعجوز عمياء مقعدة فقال لها ما بال هذا الرجل يأتيك قالت إنه يتعاهدني منذ كذا وكذا يأتيني بما يصلحني ويخرج عني الأذى فقال طلحة ثكلتك أمك يا طلحة أعثرات عمر تتبع). (أخرجه أبو نعيم في الحلية)

- وقصة صاحب النقب في هذا الموضوع مشهورة يؤخذ منها فوائد وعبر كثيرة يستفيد منها كل مؤمن فيلتزم الإخلاصَ في كل شؤون حياته وتصرفاته.

- حدّثنا أبو عمرو الصّفّار قال: (حاصر مسلمة حصنا فندب الناس إلى نقب منه، فما دخله أحد. فجاء رجل من عرض الجيش فدخله ففتحه اللّه عليهم، فنادى مسلمة: أين صاحب النقب؟ فما جاءه أحد، فنادى: إني قد أمرت الآذن بإدخاله ساعة يأتي، فعزمت عليه إلاّ جاء. فجاء رجل فقال: استأذن لي على الأمير. فقال له: أنت صاحب النقب؟ قال: أنا أخبركم عنه. فأتى مسلمة فأخبره عنه، فأذن له فقال له: إن صاحب النقب يأخذ عليكم ثلاثاً: ألاّ تسوّدوا اسمه في صحيفة "إلى الخليفة" ولا تأمروا له بشيء، ولا تسألوه ممن هو. قال: فذاك له. قال: أنا هو. فكان مسلمة لا يصلي بعدها صلاة إلا قال: اللهم اجعلني مع صاحب النقب).

(عيون الأخبار، ابن قتيبة الدينوري جزء١ ص١٧٢)

١- أولياء الله.

٢- كرامات الأولياء.

٣- التوسل.

أولاً- أولياء الله

- الولاية علاقة متبادلة بين العبد وربه، فهناك ولاية العبد لربه بأن يحب العبد ربه، فيسعى إلى رضاه وطاعته وتنفيذ أوامره، وتحقيق شرعه، وولاية الله لعبده بنصرته وحفظه ومساعدته وهدايته وإرشاده، قال تعالى: ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾. [الأعراف: ١٩٦]

- فقد اعتاد الناسُ في كثيرٍ من أمورِ حياتهم أن يعتمدوا على أولياءِ أمورِهِمْ، فلكلِّ إنسانٍ وليٌّ يديرُ أمورَه ويتدبرُ أحوالَه من أبٍ أو أمٍّ أو أخٍ أو عمٍّ أو خال.

- لكن باستطاعةِ المؤمنِ أن يتخذَ ولياً أكملَ وأفضلَ وأقدَرَ وأقوى وأعلمَ من كلِّ وليٍّ يعتمدُ عليه لا في أمورِ الدنيا فحسبُ بل في جميعِ أمورِ دنياه ودينه وآخرته، ضامناً لنتائجِ اعتمادِه عليه الفوزَ والنجاحَ والتوفيقَ والحفظَ، إنه الله، اللهُ سبحانَهُ الذي ارتضى أن يكونَ ولياً لمن أرادَ، قال الله تعالى على لسان نبيه يوسف عليه السلام:

﴿أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾[يوسف: ١٠١].

- فما أحرانا أن نوالِيَ اللهَ ونحن في أشدِّ الحاجةِ إلى ولايتِه، أمامَ هذا الضعفِ الذي نعانيه، والفقرِ الذي نشكو منه، والأمراضِ التي ألَمَّتْ بنا، والمصائبِ التي تواجِهُنا، والفُرْقةِ التي تُمَزِّقُنا، وتكالُبِ العدوِّ الذي يهدِّدُنا، والإحاطة التي أحطنا بها، والتهديد الذي يوجه إلينا.

- وإذا أرادَ المسلمُ ولايةَ اللهِ، عليه أن يوالِيَ اللهَ، حتى يوالِيَهُ اللهُ، وهذا يتطلَّبُ من العبدِ أن يلتزمَ طاعةَ اللهِ، فيتولَّى اللهُ حِفظَهُ ورِعايتَهُ، قال تعالى:

﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٦].

- ومفهومُ الوليِّ عندَ كثيرٍ من الناس مفهومٌ خاطئٌ فمنهم مَنْ يَعُدُّ أن بعضَ المخذوبين البُسطاءَ المهملين لشأنِهم وثيابِهم هُمْ أولياءُ اللهِ.

- ومنهم مَنْ يَعُدُّ الذي يدّعي أنه يطيرُ في السماءِ ويمشي على الماءِ هو وليٌّ من أولياءِ اللهِ، ولو خالفَ أوامرَ اللهِ وكان عاصياً.

- وقد اتفقَ العلماءُ على أن الرجلَ لو طارَ في الهواءِ، أو مشى على الماءِ، لا يُغترُّ به حتى يُنْظَرَ إلى متابَعتِهِ لكتابِ اللهِ وسُنةِ نبيِّه.

- هذا ومن جهةٍ ثانيةٍ فإن الولايةَ أيضاً لا تختصُّ بالعلماءِ والمربين والدعاةِ وأهلِ الذكر والعِرْفان، وإنما أولياءُ اللهِ هم الذين عَرَّفَ بهم القرآنُ في قولِهِ تعالى:

﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦٢-٦٤].

- فللولايةِ إذن صفتان: الإيمانُ والتقوى، فكلُّ مسلمٍ آمنَ إيماناً حقيقياً، واتقى اللهَ حقَّ تقاتِهِ، كان ولياً للهِ ﷻ، قال الله تعالى مؤكداً ذلك: ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾. [آل عمران: ٦٨]

- وقال سبحانه وتعالى أيضاً: ﴿إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [الأنفال: ٣٤].

- وروي عن النبيِّ ﷺ أنه جمع قريشاً فقالَ لهم: «إنَّ أوليائي منكم المتقون».

(أخرجه الحاكم في المستدرك عن عبيد بن رفاعة، عن أبيه، عن جده)

- إذاً كلُّ مسلمٍ يصبحَ ولياً لله ﷻ إن كان إيمانُهُ يقينياً وكانت تقواه حقيقة.

- ومن تَحقَّقَتْ فيه هذهِ الولايةُ، تولّاه اللهُ بالعنايةِ والحفظِ والرعايةِ والبشرى في الدنيا وفي الآخرةِ وتحقَّقَ له الفوزُ العظيمُ كما قال الله تعالى:

﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [يونس: ٦٢-٦٤].

- هذا وإن الله ﷻ يغار على أوليائه، فيحفظهم، ويحارب كل من عاداهم، يبين النبي ﷺ ذلك في قوله: «إِنَّ اللَّهَ قَالَ مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ، -ثم بين الله ﷻ كيف يصل المسلم إلى هذه الولاية فقال: - وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطُشُ بِهَا وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، -عند ذلك يستجيب الله لدعاء هذا الولي ويحقق آماله- وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ، يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ».

(أخرجه البخاري في صحيحه عن أبي هريرة ﷺ)

- هذا من جهة، ومن جهةٍ أخرى فالولاية لا تعني أبداً ضَعْفاً واستكانةً وفقراً وذُلاً وبُعْداً عن الدنيا وما فيها.

- بل الولايَةُ أنْ تَستمدَّ من اللهِ التأييدَ والفوزَ والحِفظَ، فهي تعني القوةَ والعِزةَ والغنى، والنصرَ المبينَ، والفوزَ العظيم.

- عندما يكون المؤمن موالياً لله فهو يملكُ عِزَّ الدنيا والآخرةِ وعزَّ النجاحِ والفرحِ، عزَّ القوةِ والنصرِ، وعزَّ الرفعةِ والسؤْدُدِ، فهو قويٌّ بالله، منتصرٌ بالله، موفقٌ بتوفيقِ الله، محفوظٌ بأمرِ اللهِ، وعند ذلك لا خوفٌ عليك ولا حَزَنٌ بل سرورٌ وفوزٌ ونجاحٌ وانشراحٌ.

- لا خوف عليك من أن يلحقك مكروه، ولا حزن من فوات مطلوب، فلا تخاف من مستقبل لا تعرفه، ولا تحزن من حاضر يمتحنك الله به، بل أنت راضٍ بأمر الله، مطمئن لعطاء الله، لأنك واليت الله، فوالاك الله.

- ولايةُ اللهِ لإبراهيمَ الخليلِ عليه السلام جعلت النارَ لا تُحرقه بل كانت:

﴿بَرْدًا وَسَلَٰمًا﴾ [الأنبياء: ٦٩].

- وولايةُ اللهِ لموسى عليه السلام جعلَتِ البحرَ لايُغْرقُهُ ومَنْ معَهُ: ﴿قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الأنبياء: ٦٩].

- وولايةُ اللهِ لسيدِنا محمدٍ ﷺ جعلَتْهُ يقولُ لصاحبِهِ وهو في الغارِ محاصَرٌ:

﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠].

فنزل الأمنُ والفتحُ والسكينةُ والنصرُ والحفْظُ.

- الولايةُ حفِظَتِ الأنبياءَ والرُسُلَ، والولايةُ حَفِظَتِ الصحابةَ والتابعين، والولايةُ حَفِظَتِ المؤمنين المتقين في كلِّ وقتٍ وحين.

- والولاية اليومَ تَحفظُ كلَّ مَنْ طلبها وسعى إليها وتقدَّمَ نحوَها وعَمِلَ بأركانها.

- الصحابةُ كلُّهم ﷺ كانوا أولياءَ للهِ فأعزَّهم اللهُ ونصَرهم وأجرى الفتوحاتِ على أيديهم وانتشرَ الدينُ بدعوتهم

- التابعون كلُّهم كانوا أولياءَ للهِ فَدَوَّنُوا العلومَ الإسلاميةَ المختلفةَ، ونشروها في البلادِ، وتابعوا الفتوحاتِ الإسلاميةَ وانتشروا دعاةً معلِّمينَ وهادين مهديين.

- وأولياءُ اللهِ في كلِّ زمان يحملون رايةَ الإسلامِ ويدافعون عنه في كلِّ مكان.

- ومقابلَ ولايةِ المسلمِ للهِ، فإنَّ اللهَ ﷻ يتولاه في كلِّ شؤونه في دينِه ودنياهُ وآخرتِه، فلا خوفٌ على هؤلاء الأولياءِ ولا هم يحزنون بل ويحقِّقُ اللهُ آمالَهم ويدفعُ عنهم آلامَهم ويستجيبُ دعاءَهم، فلهم البشرى في الحياةِ الدنيا وفي الآخرةِ ولهم الفوزُ العظيمُ.

- فإن افتقروا فاللهُ وَلِيُّهُمْ فبه يَغْنَوْن، وإن ضَعُفُوا فاللهُ وليُّهم فبه يَقْوَوْن، وإن مرِضُوا فاللهُ وليُّهم فبه يُشْفَوْن، وإن ضاقت عليهم الدنيا بما رَحُبَتْ فاللهُ وليهم فبه يزولُ ضَعْفُهُم، وبه تُفْرَجُ كروبُهم وبه تزولُ آلامهم.

- وإن طلبوا شيئاً فاللهُ وليُّهم يحقِّقُ لهم مطالبَهُمْ، ويستجيبُ دعاءهم ويحقِّقُ لهم رغباتِهم، ويحفظُهم في دينِهم ودنياهم وآخرتِهم.

- وبما أن مقام الولاية مقام عظيم ومن الواجب أن يسعى كل مؤمن أن يصل إليه، فإن أهل التصوف ورجالاته هم من أولياء الله وأحبابه، يبغون بتربيتهم وتوجيههم وسلوكهم نقل المريد إلى هذا المقام مقام الولاية ليصبح ولياً لله، وهذا من أوائل اهتمامهم وسعيهم لإيصال مريديهم إلى هذا المقام الإيماني العالي الذي وصل إليه الصحابة بتزكية رسول الله ﷺ نفوسهم، وسعى الصحابة لإيصال التابعين إلى هذا المقام، ويتتابع العمل بهذه الطريقة إلى يوم الدين.

- ولو تتبعنا أخبار أولياء الله الذين والوا الله ووالاهم الله لوجدنا العجب العجاب من مظاهر عناية الله بهم، وتأييدهم، وتحقيق آمالهم في الدنيا قبل الآخرة، والآخرة خير وأبقى.

- (يروي اللواءُ الدكتور محمود شيت خطاب وهو من العراق: قصةً واقعية حقيقيةً جرت معه ملخصُها أن صديقاً له عنده زوجةٌ مؤمنةٌ تقيةٌ أي: هي من أولياء الله اشتدَّ عليها المرضُ كثيراً فرأَتْ في نومِها أن شيخين صالحين أتياها فقالَ الأولُ لها: يا ابنتي لقد تعبت كثيراً وأمضَّكِ الألَمُ، وأنت بحاجةٍ إلى الراحةِ الطويلةِ في مستَقرٍّ مُريحٍ فتعالَيْ واستقري هنا وأشار إلى مكان يجاور مكانَهُ الذي هو فيه لتستريحي ولن تعاودَكِ الآلامُ في هذا المكانِ أبداً.

وقال الثاني: يا ابنتي سأكونُ في عَونِكِ حين تكونين بحاجة إلى العَوْنِ ولن أنساكِ أبداً، فلما سألَتْهما عن اسميهما قال الأول: أنا الشيخُ عبدُ القادرِ الجيلاني، وقال الثاني: أنا أبو أيوبَ الأنصاريُّ.

- يقولُ صاحب القصة فسألتني عن تفسيرِ هذا المنامِ فقلتُ لها خيراً إن شاء الله واستقر في نفسي أنها سَتَرْحَلُ إلى العَالَمِ الآخَرِ فتستريحُ الراحةَ الأبديةَ، ولكني لم أستطع أن أبوحَ لها بذلك، ولكن الذي حيرني في منامِها ما علاقةُ الشيخين بها وبموتها.

- وبعدَ مدةٍ وجيزةٍ ماتتْ هذه الوليةُ وأسرَعْتُ إلى زوجِها لتقديمِ المساعدةِ له فوجدتُه في حَيْرَةٍ من أمرِهِ وعلمتُ أن سببَ حَيْرَتِهِ أنها وصَّت أن تُدْفَنَ في مقبرةِ

الشيخِ عبدِ القادرِ الجيلانيِّ وطلَبَ الزوجُ مني أن أسعى في تحقيقِ أمنيتِها لما يعرفُهُ من مكاني ومعارفي، وتوكَّلْتُ على الله وقمتُ باتصالاتي مع معرفتي صعوبةَ هذا الأمرِ فكم من شخصياتٍ كبيرةٍ جداً لم يُسمح لهم بالدفنِ في تلك المقبرةِ ولكنْ المُيسِّرُ يَسَّرَ الأمرَ فقد هُيئ قبلَ أيامٍ قبرٌ بجانبِ قبرِ الشيخِ عبدِ القادرِ الجيلانيِّ، وسُمِحَ لنا باستخدامه، وصلينا المغرب في حرم مسجد عبدِ القادرِ الجيلانيِّ، وحينَ قُضيتِ الصلاةُ نادى الإمامُ يدعو المصلينَ إلى الصلاةِ على المرأةِ المسلمةِ وأنا أفكِّر في منامها فقد حقَّقَ اللهُ رؤياها في دعوةِ الشيخِ عبدِ القادر لتكونَ إلى جانبه فأين مكانُ أبي أيوبَ الأنصاريِّ في رؤياها وفجأةً وقفَتْ سيارتان كبيرتان، تحملُ كلٌّ واحدةٍ منهما ثلاثينَ حاجاً من الأتراك، ترجَّلُوا مسرعينَ ودخلوا بابَ المسجدِ مُهَرْولينَ باتجاه حَرَمِ المسجدِ، ووجدوا أمامَهم صفاً يريدُ الصلاةَ على المرحومةِ فانضموا إلى ذلك الصفِ وشاركوا في الصلاة.

- وبعد أن قُضيتِ الصلاةُ التفتوا يسألونَ عن المرأةِ وكان زوجُها يتكلَّمُ التركيةَ فسلموا عليه وقالَ إمامُهم: أنا إمامُ مسجدِ أبي أيوبَ الأنصاريِّ وهذا خَطِيبُه وهؤلاءِ من المصلين في مسجدِه هنالكَ.

وجدت الجواب وسارع إلى شفتي قولُ اللهِ ﷻ: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢]). (تدابير القدر، محمود شيت خطاب)

- (تاجر مشهور في هذا البلد كانت يداه طويلتين في أعمال الخير والبر، ومساعدة الفقراء والمحتاجين وتَدْيينِ المعوزين والغارمين.

- خسرت تجارته، وأدت به إلى الإفلاس النهائي، مما اضطره إلى بيع كل ما يملك حتى منزله الذي يقطنه لإيفاء حقوق الآخرين عليه وحفظ سمعته وشرفه، ولم يجد بيتاً يسكن فيه إلا مستودعاً صغيراً في قبو عمارة قديمة في حيٍ قديم قدمه له أحدُ أصدقائه من التجار.

- صبر هو وعائلته المؤمنة على قضاء الله تعالى وقدره وبلائه وامتحانه سنةً كاملة، كانت الأسرة خلالها تعيش عيشة فقر لم تتعود عليها سابقاً أبدا، ولكنها كانت أسرة مؤمنة صادقة صابرة شاكرة حامدة.

- كما كانت لا تترك صلاة التهجد وتطيل السجود في الليل وكان التاجر يناجي ربه، يا رب: أنت العليم بحالي، فلا تخيب رجائي.

- يا رب: ما رددت يوماً سائلاً، وما طالبت مديوناً وكنت دائماً في عون عبادك، والتيسير على المعسر منهم، وها أنا اليوم على بابك كما عهدتني، محتاج إليك وأنت وعدت بعونك من أعان عبادك، وبتيسيرك أمور من يسرَ عليهم وبتنفيس الكربة عمن نفس كُرب المكروبين.

يا مَنْ يجيبُ دُعا المضطر في الظُّلَمِ يا كاشفَ الضُّرِ والبلوى مع السقمِ

- كان هذا التاجر يناجي ربه باكياً ولم يكن أحدٌ يسمعه سوى الله الذي لا يغيب ولا ينام وهو السميع البصير وهو على كلِ شيء قدير.

- ارتفعت برقية هذا التاجر إلى الله ﷻ، فأصدر الله أمره بإسعاد هذا التاجر المؤمن الصادق وإنهاء محنته ومصيبته.

- **والسؤال** كيف كان الجوابُ العمليُ لذلك، رأى الشيخ أحمد الحارون في منامه النبي ﷺ وهو يكلفه بتحقيق ما أمر الله به لهذا التاجر وهو شراء بيتٍ له على أن يكون واسعاً ممتلئاً بكل حاجاته وفي أجملِ حيّ من بقاع دمشق، وقد أعلم النبيُ ﷺ الشيخ باسم التاجر ومكانه. استيقظ الشيخ أحمد الحارون واستعاد المنام في ذهنه ولكنه وقف حائراً كيف يشتري لهذا التاجر البيت المطلوب وهو لا يملك المال لشرائه، وما إن انتهى من استعراض أفكاره حتى سمع قرع الباب، ففتح الباب، وإذا بأحد تُجار هذا البلدِ الكبار يقدم له مبلغاً كبيراً من المال وقال له تصرف بما أمرك به النبي ﷺ أسرع الشيخ إلى مكان التاجر وأخذ بيده باحثاً عمّا يحقق أمر الله واشترى له البيت المطلوب وانتقلت العائلة شاكرةً حامدةً.

- ما أعظم المؤمن عندما يكون مع الله مُطَبِّقاً لشرعه!. وما أعظمَ لُطف الله بعباده!). (من أعلام الإحسان، محمد خالد رنكوسي ص٣٣)

- احفظِ الله يحفظْكَ هو أولُ شعاراتِ الولايةِ لله.

- (رابعةُ العدويةُ وقفَتْ ليلةً تُصَلّي فدخلَ عليها لِصٌّ وجمعَ محتوياتِ بيتِها وأرادَ أن يخرجَ من دارِها فلم يجدِ البابَ فوضعَ المتاعِ فرأى البابَ ثم أخذَ المتاعَ ليخرجَ فحُجِبَ عنه البابُ فتعجَّبَ من ذلك فَسَمِعَ نداءً يقول:

حَفِظْتَنا فحفِظْناها، وانشغلَتْ بنا فلا ننشغِلُ عنها، دعِ المتاعَ ترَ البابَ فتركَ المتاعَ وتابَ إلى الله ﷻ، هذه هي الولاية وهذا حفظُ اللهِ).

(انظر: رابعة العدوية، محمد عطية خميس المحامي)

ثانياً- كرامات الأولياء

- (الكرامة هي: أمر خارق للعادة، غير مقرون بالتحدي، يظهر على يد عبد ظاهر الصلاح ملتزم بمتابعة النبي ﷺ مصحوب بصحيح الاعتقاد والعمل الصالح، أما المعجزة، فتكون من الأنبياء وهي مقرونة بالتحدي).

(لوامع الأنوار البهية، السفاريني جزء٢ ص٣٩٢)

- أجرى الله ﷻ على أيدي الأنبياء والمرسلين معجزات خارقة للعادة، وهي إخراج الشيء من العدم إلى الوجود، والمعجزات لا تكون إلا للأنبياء.

- كذلك يجري الله ﷻ للأولياء كرامات: (بإجابة دعوة، وتمام حال، وقوة على فعل، وكفاية مؤونة، يقوم لهم الحق بها، وهي مما يخرج عن العادات).

(انظر: التعرف لمذاهب أهل التصوف، أبو بكر محمد الكلاباذي ص٧٤)

- (ومن الفروق بين المعجزات والكرامات ما قاله الإمام أبو بكر بن فورك (واعظ عالم بالأصول والكلام، من فقهاء الشافعية): أن الأنبياء عليهم السلام مأمورون بإظهارها والولي يجب عليه سترها وإخفاؤها، والنبي ﷺ يدعي ذلك، ويقطع القول به، والولي لا يدعيها، ولا يقطع بكرامتها لجواز أن يكون ذلك مكراً).

(الرسالة القشيرية، القشيري ص٣٥٥)

- (والكرامة لا تكون إلا لولي، والولي هو صاحب العقيدة الصحيحة المواظب على العمل الصالح، والمتابعة للنبي ﷺ، وأما ما يجري على أيدي بعض الزنادقة كطعن أجسادهم بالأسلحة الحادة، وأكل النار والزجاج مع كونهم مجاهرين بالمعصية، منحرفين عن دين الله تعالى، فهو من قبيل الاستدراج، وأن الولي لا يستأنس بالكرامة، ولا يتفاخر بها على غيره).

(الموسوعة اليوسفية في بيان أدلة الصوفية، يوسف خطار محمد ص٤٢٦)

- (وقال علي الخواص رحمه الله: الكمل يخافون من وقع الكرمات على أيديهم، ويزدادون بها وجلاً لاحتمال أن تكون استدراجاً).

(اليواقيت والجواهر، الشعراني جزء٢، ص١١٣)

- قال العلامة فخر الدين الرازي: (إن صاحب الكرامة لا يستأنس بتلك الكرامة بل عند ظهور الكرامة يصير خوفه من الله تعالى أشد وحذره من قهر الله أقوى فإنه يخاف أن يكون ذلك من باب الاستدراج، وأما صاحب الاستدراج فإنه يستأنس بذلك الذي يظهر عليه ويظن أنه إنما وجد تلك الكرامة لأنه كان مستحقاً لها وحينئذ يستحقر غيره ويتكبر عليه ويحصل له أمن من مكر الله وعقابه ولا يخاف سوء العاقبة فإذا ظهر شيء من هذه الأحوال على صاحب الكرامة دل ذلك على أنها كانت استدراجاً لا كرامة). (تفسير سورة الكهف، الرازي في تفسيره الآية ٩- ١٢)

- وقد أجمع أهل الله وأولياؤه أن أجل الكرامات التقيد بأوامر القرآن الكريم والسنة المطهرة مع الابتعاد عن النواهي والمحرمات، فقد قال أبو القاسم القشيري: (واعلم أن من أجل الكرامات التي تكون للأولياء دوام التوفيق للطاعات والعصمة عن النواهي والمخالفات). (الرسالة القشيرية، القشيري ص٣٥٦)

- وفي ذلك يقول الشيخ أبو الحسن الشاذلي رحمه الله: (الكرامة الحقيقية إنما هي حصول الاستقامة والوصول إلى كمالها، ومرجعها أمران: صحة الإيمان بالله ﷻ، واتباع ما جاء به رسول الله ﷺ ظاهراً وباطناً، فالواجب على العبد ألا يحرص إلا عليها، ولا تكون له همة إلا في الوصول إليها، وأما الكرامة بمعنى خرق العادة، فلا عبرة بها عند المحققين إذ قد يرزق بها من لم تكتمل استقامته، وقد يرزق بها المستدرجون).

(نور التحقيق، حامد صقر ص١٢٨)

- وقال: (إنما هي كرامتان جامعتان محيطتان، كرامة الإيمان بمزيد الإيقان وشهود العيان، وكرامة العمل على الاقتداء والمتابعة ومجانبة الدعاوي والمخادعة، فمن

أعطيهما ثم جعل يشتاق إلى غيرهما فهو عبد مغتر كذاب ليس ذا حظ في العلم والعمل بالصواب). (المرجع السابق)

- وقال الشيخ أحمد الحارون رحمه الله تعالى: (كرامتان ليس بعدهما كرامة: الإيمان والاستقامة، فإذا وجدتم رجلاً مستقيماً فلا تطلبوا منه كرامة).

(كرامات الأولياء، أبو محمد الخلال ص١٥)

- هذا وإن صاحب الكرامة عند الأولياء والصالحين ليس مفضلاً على غيره.

- قال الإمام الشافعي رحمه الله تعالى: (لا يلزم أن يكون كل من له كرامة من الأولياء أفضل من كل من ليس له كرامة منهم، بل قد يكون بعض من ليس له كرامة منهم أفضل من بعض من له كرامة، لأن الكرامة قد تكون لتقوية يقين صاحبها ودليل على صدقه وعلى فضله لا على أفضليته، وإنما الأفضلية تكون بقوة اليقين وكمال المعرفة بالله تعالى). (نشر المحاسن الغالية، اليافعي ص١١٩)

- كذلك فإن الأولياء يعدون عدم ظهور الكرامة ليس دليلاً على عدم الولاية، قال الإمام القشيري: (وليس كل كرامة لوليّ يجب أن تكون تلك بعينها لجميع الأولياء. بل لو لم يكن للولي كرامة ظاهرة عليه في الدنيا لم يقدح عدمها في كونه ولياً).

(الرسالة القشيرية، القشيري ص٣٥٥)

- وفي ذلك يقول الشيخ زكريا الأنصاري (قاض مفسر، من حفاظ الحديث) في شرحه لرسالة القشيري عند هذا الكلام: (بل قد يكون أفضل ممن ظهر له كرامات لأن الأفضلية إنما هي بزيادة اليقين لا بظهور الكرامة).

(القشيري: الرسالة القشيرية، ص٣٥٥)

- ويجب أن نعلم أن الكرامة قد تشبه السحر، فما الفرق بين الكرامة والسحر، أجاب على ذلك الشيخ محمد أمين الكردي، وقال: (الفرق بينها وبين السحر كونه يظهر على يد الفساق والزنادقة والكفار الذين هم على غير شريعة ومتابعة،

وأما الكرامة فلا تقع إلا على يد من بالغ في الاتباع للشريعة، حتى بلغ الغاية).

(تنوير القلوب، محمد أمين الكردي ص٤٤٥)

- ثم قال: (واعلم أن الكرامة عند أكابر الرجال معدودة من جملة رعونات النفس إلا إن كانت لنصرة دين أو جلب مصلحة، لأن الله تعالى هو الفاعل عندهم لا هم فالكون في مجاري أقداره أليق بالأدب). (المصدر نفسه ص٤٤٦)

- (ولقد ثبتت كرامات الأولياء في كتاب الله تعالى، وفي سنة رسوله ﷺ وفي آثار الصحابة رضوان الله عليهم ومن بعدهم إلى يومنا هذا، وأقرها جمهور العلماء من أهل السنة والجماعة من الفقهاء والمحدثين والأصوليين ومشايخ الصوفية، وتصانيفهم ناطقة بذلك، كما ثبتت كذلك بالمشاهدة العيانية في مختلف العصور الإسلامية). (حقائق عن التصوف، عبد القادر عيسى ص٣٦١)

أولاً: أما الدليل من القرآن الكريم:

فقد ذكر القرآن الكريم نماذج من الكرامات التي ظهرت على الأولياء نذكر من ذلك:

١- قوله سبحانه وتعالى عن مريم عليها السلام، ولم تكن نبياً ولا رسولاً:

﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيۡهَا زَكَرِيَّا ٱلۡمِحۡرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزۡقًا ۖ قَالَ يَٰمَرۡيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتۡ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٍ ﴾ [آل عمران: ٣٧].

- وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا ﴾. [مريم: ٢٥]

وكان جذع النخلة يابساً، فاخضر وتساقط منه الرطب الجني، وكان هذا في غير أوان الرطب.

٢- قصة أصحاب الكهف وبقاؤهم في النوم سالمين عن الآفات مدة ثلاثمائة وتسع سنين، والأعاجيب التي ظهرت عليهم والكلب الذي معهم.

٣- قصة الخضر مع موسى عليهما السلام، وما ظهر على يديه وهي أمور مناقضة للعادة، ولم يكن نبياً، وإنما كان ولياً.

٤- قصة آصف بن برخيا مع سليمان عليه السلام على ما قاله جمهور المفسرين في قوله تعالى: ﴿قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾.

[النمل: ٤٠]

فجاء بعرش بلقيس من اليمن إلى بلقيس قبل ارتداد الطرف.

ثانياً - الدليل من السنة الشريفة:

١- قصة جُرَيج العابد: فعَنْ أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قَالَ: «لَمْ يَتَكَلَّمْ فِي الْمَهْدِ إِلاَّ ثَلاَثَةٌ عيسَى، وَكَانَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ جُرَيْجٌ، كَانَ يُصَلِّي، فَجَاءَتْهُ أُمُّهُ فَدَعَتْهُ، فَقَالَ: أُجِيبُهَا أَوْ أُصَلِّي. فَقَالَتْ: اللَّهُمَّ لاَ تُمِتْهُ حَتَّى تُرِيَهُ وُجُوهَ الْمُومِسَاتِ (الزانيات). وَكَانَ جُرَيْجٌ فِي صَوْمَعَتِه، فَتَعَرَّضَتْ لَهُ امْرَأَةٌ وَكَلَّمَتْهُ فَأَبَى، فَأَتَتْ رَاعِياً، فَأَمْكَنَتْهُ مِنْ نَفْسِهَا فَوَلَدَتْ غُلاَماً، فَقَالَتْ: مِنْ جُرَيْجٍ. فَأَتَوْهُ فَكَسَرُوا صَوْمَعَتَهُ، وَأَنْزَلُوهُ وَسَبُّوهُ، فَتَوَضَّأَ وَصَلَّى ثُمَّ أَتَى الْغُلاَمَ فَقَالَ: مَنْ أَبُوكَ يَا غُلاَمُ، قَالَ: الرَّاعِي. قَالُوا نَبْنِي صَوْمَعَتَكَ مِنْ ذَهَبٍ. قَالَ لاَ إِلاَّ مِنْ طِينٍ...».

(أخرجه البخاري)

٢- قصة الثلاثة الذين دخلوا الغار، وانفراج الصخرة عنهم بعد أن سدت عليهم الباب: فعن عَبْد اللَّه بْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّه ﷺ يَقُولُ: «انْطَلَقَ ثَلاَثَةُ رَهْطٍ مِمَّنْ كَانَ قَبْلَكُمْ حَتَّى أَوَوُا الْمَبِيتَ إِلَى غَارٍ فَدَخَلُوهُ، فَانْحَدَرَتْ صَخْرَةٌ مِنَ الْجَبَلِ فَسَدَّتْ عَلَيْهِمُ الْغَارَ فَقَالُوا: إِنَّهُ لاَ يُنْجِيكُمْ مِنْ هَذِه الصَّخْرَةِ إِلاَّ أَنْ تَدْعُوا اللَّهَ بِصَالِحِ أَعْمَالِكُمْ. فَقَالَ رَجُلٌ مِنْهُمْ: اللَّهُمَّ كَانَ لِي

أَبَوَانِ شَيْخَانِ كَبِيرَانِ، وَكُنْتُ لاَ أَغْبِقُ (أي لا أشرب) قَبْلَهُمَا أَهْلاً وَلاَ مَالاً، فَنَأَى بِي فِي طَلَبِ شَيْءٍ يَوْماً، فَلَمْ أُرِحْ عَلَيْهِمَا حَتَّى نَامَا، فَحَلَبْتُ لَهُمَا غَبُوقَهُمَا فَوَجَدْتُهُمَا نَائِمَيْنِ وَكَرِهْتُ أَنْ أَغْبِقَ قَبْلَهُمَا أَهْلاً أَوْ مَالاً، فَلَبِثْتُ وَالْقَدَحُ عَلَى يَدَيَّ أَنْتَظِرُ اسْتِيقَاظَهُمَا حَتَّى بَرَقَ الْفَجْرُ، فَاسْتَيْقَظَا فَشَرِبَا غَبُوقَهُمَا، اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ فَفَرِّجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ مِنْ هَذِهِ الصَّخْرَةِ، فَانْفَرَجَتْ شَيْئاً لاَ يَسْتَطِيعُونَ الْخُرُوجَ». قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «وَقَالَ الآخَرُ: اللَّهُمَّ كَانَتْ لِي بِنْتُ عَمٍّ كَانَتْ أَحَبَّ النَّاسِ إِلَيَّ، فَأَرَدْتُهَا عَنْ نَفْسِهَا، فَامْتَنَعَتْ مِنِّي حَتَّى أَلَمَّتْ بِهَا سَنَةٌ مِنَ السِّنِينَ، فَجَاءَتْنِي فَأَعْطَيْتُهَا عِشْرِينَ وَمِائَةَ دِينَارٍ عَلَى أَنْ تُخَلِّيَ بَيْنِي وَبَيْنَ نَفْسِهَا، فَفَعَلَتْ حَتَّى إِذَا قَدَرْتُ عَلَيْهَا قَالَتْ لاَ أُحِلُّ لَكَ أَنْ تَفُضَّ الْخَاتَمَ إِلاَّ بِحَقِّهِ. فَتَحَرَّجْتُ مِنَ الْوُقُوعِ عَلَيْهَا، فَانْصَرَفْتُ عَنْهَا وَهِيَ أَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ وَتَرَكْتُ الذَّهَبَ الَّذِي أَعْطَيْتُهَا، اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ فَافْرُجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ. فَانْفَرَجَتِ الصَّخْرَةُ، غَيْرَ أَنَّهُمْ لاَ يَسْتَطِيعُونَ الْخُرُوجَ مِنْهَا».

قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «وَقَالَ الثَّالِثُ: اللَّهُمَّ إِنِّي اسْتَأْجَرْتُ أُجَرَاءَ فَأَعْطَيْتُهُمْ أَجْرَهُمْ، غَيْرَ رَجُلٍ وَاحِدٍ تَرَكَ الَّذِي لَهُ وَذَهَبَ فَثَمَّرْتُ أَجْرَهُ حَتَّى كَثُرَتْ مِنْهُ الأَمْوَالُ، فَجَاءَنِي بَعْدَ حِينٍ فَقَالَ: يَا عَبْدَ اللَّهِ أَدِّ إِلَيَّ أَجْرِي. فَقُلْتُ لَهُ: كُلُّ مَا تَرَى مِنْ أَجْرِكَ مِنَ الإِبِلِ وَالْبَقَرِ وَالْغَنَمِ وَالرَّقِيقِ. فَقَالَ: يَا عَبْدَ اللَّهِ لاَ تَسْتَهْزِئْ بِي. فَقُلْتُ: إِنِّي لاَ أَسْتَهْزِئُ بِكَ. فَأَخَذَهُ كُلَّهُ فَاسْتَاقَهُ فَلَمْ يَتْرُكْ مِنْهُ شَيْئاً، اللَّهُمَّ فَإِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ فَافْرُجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ. فَانْفَرَجَتِ الصَّخْرَةُ فَخَرَجُوا يَمْشُونَ».

(أخرجه البخاري)

٣- قصة البقرة التي كلمت صاحبها: فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «بَيْنَمَا رَجُلٌ رَاكِبٌ عَلَى بَقَرَةٍ الْتَفَتَتْ إِلَيْهِ. فَقَالَتْ لَمْ أُخْلَقْ لِهَذَا، خُلِقْتُ لِلْحِرَاثَةِ،

قَالَ: آمَنْتُ بِهِ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ، وَأَخَذَ الذِّئْبُ شَاةً فَتَبِعَهَا الرَّاعِي، فَقَالَ الذِّئْبُ مَنْ لَهَا يَوْمَ السَّبُعِ، يَوْمَ لاَ رَاعِيَ لَهَا غَيْرِي. قَالَ: آمَنْتُ بِهِ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ» (أخرجه البخاري).

- أما الصحابة الكرام فقد نقل عنهم من الكرامات الشيء الكثير أذكر منها:

١- قصة أبي بكر ﷺ مع أضيافه في تكثير الطعام، حتى صار بعد الأكل منه أكثر مما كان: فقد كان عند أبي بكر أضياف، فقدم لهم الطعام، فلما أكلوا منه ربا من أسفله حتى إذا شبعوا قال لامرأته: يا أخت بني فراس ما هذا؟ قالت: وقرة عيني لهي ((تعني القصعة)) أكثر منها قبل أن يأكلوا.... إلى آخر القصة.

(أخرجه البخاري عن عبد الرحمن بن أبي بكر ﷺ)

٢- قصة عمر ﷺ وهو على منبر المدينة ينادي بقائده يا سارية الجبل: فعن عمرو ابن الحارث قال: بينما عمر يخطب يوم الجمعة إذ ترك الخطبة فقال: (يا سارية الجبل - مرتين أو ثلاثا)، ثم أقبل على خطبته، فقال بعض الحاضرين: لقد جن، إنه لمجنون فدخل عليه عبد الرحمن بن عوف وكان يطمئن إليه فقال: إنك لتجعل لهم على نفسك مقالاً، بينا أنت تخطب إذ أنت تصيح: (يا سارية الجبل) أي شيء هذا قال: (والله إني ما ملكت ذلك رأيتهم يقاتلون عند جبل يؤتون من بين أيديهم ومن خلفهم فلم أملك أن قلت: يا سارية الجبل ليلحقوا بالجبل). فلبثوا إلى أن جاء رسول سارية بكتابه أن القوم لقونا يوم الجمعة فقاتلناهم حتى إذا حضرت الجمعة سمعنا مناديا ينادى: يا سارية الجبل مرتين، فلحقنا بالجبل، فلم نزل قاهرين لعدونا إلى أن هزمهم الله وقتلهم.

(أخرجه أبو نعيم في الدلائل في جامع الأحاديث)

٣- قصة عثمان ﷺ مع الرجل الذي دخل عليه، فأخبره عما أحدث في طريقه من نظره إلى المرأة الأجنبية: ذكر التاج السبكي رحمه الله تعالى في الطبقات وغيره:

(أنه دخل على عثمان ﷺ رجلٌ، كان قد لقي امرأة في الطريق، فتأملها، فقال له عثمان ﷺ: يدخل أحدكم، وفي عينيه أثر الزنى؟ فقال الرجل: أوحيٌ بعد رسول الله ﷺ؟ قال: لا، ولكنها فراسة المؤمن). (حجة الله على العالمين، النبهاني)

٤- (قصة عبَّاد بن بشر وأسيد بن حضير رضي الله عنهما الذين أضاءت لهم العصا عندما خرجا من عند رسول الله ﷺ في ليلة مظلمة: عن أنس أن أسيد بن حضير الأنصاري ورجلاً آخر من الأنصار، تحدثا عند النبي ﷺ في حاجة لهما، حتى ذهب من الليل ساعة وكانت ليلة شديدة الظلمة، ثم خرجا من عند رسول الله ﷺ وبيد كل واحد منهما عصية، فأضاءت عصا أحدهما لهما حتى مشيا في ضوئها، حتى إذا افترقت بهما الطريق أضاءت للآخر عصاه فمشى كل واحد منهما في ضوء عصاه حتى بلغ أهله). (أخرجه البيهقي في دلائل النبوة)

٥- قصة خبيب ﷺ في قطف العنب الذي وجد في يده يأكله في غير أوانه فقد روى أبو هريرة ﷺ: أن خبيباً كان أسيراً عند بني الحارث في مكة -في قصة طويلة- وفيها أن بنت الحارث كانت تقول: (ما رأيت أسيراً قط خيراً من خبيب، لقد رأيته يأكل من قطف عنب، وما بمكة يومئذ ثمرة، وإنه لموثق في الحديد، وما كان إلا رزقٌ رزقه الله). (أخرجه البخاري)

٦- (قصة أم أيمن رضي الله عنها، وكيف عطشت يوم هجرتها فنزل عليها دلو من السماء فشربت: فعن عثمان بن القاسم قال خرجت أم أيمن مهاجرة إلى رسول الله ﷺ من مكة إلى المدينة وهي ماشية ليس معها زاد وهي صائمة في يوم شديد الحر فأصابها عطش شديد حتى كادت أن تموت من شدة العطش قال وهي بالروحاء (قرية على بعد ليلتين من المدينة) أو قريباً منها فلما غابت الشمس قالت: إذ أنا بحفيف شيء فوق رأسي فرفعت رأسي فإذا أنا بدلو من السماء مدلى برشاء (أي حبل) أبيض قالت فدنا مني حتى إذا كان حيث أستمكن منه

تناولته فشربت منه حتى رويت قالت فلقد كنت بعد ذلك اليوم الحار أطوف في الشمس كي أعطش وما عطشت بعدها). (أخرجه أبو نعيم في الحلية)

٧- قصة عبور العلاء بن الحضرمي ﷺ البحر على فرسه ونبع الماء بدعائه: فكان أبو هريرة ﷺ يقول: (رأيت من العلاء ثلاثة أشياء لا أزال أحبه أبداً، رأيته قطع البحر على فرسه يوم دارين وقدم من المدينة يريد البحرين، فلما كان بالدهناء (بالقرب من نجد) نفد ماؤهم فدعا الله فنبع لهم من تحت رملة فارتووا وارتحلوا، وأنسي رجل منهم بعض متاعه فرجع فأخذه و لم يجد الماء، وخرجت معه من البحرين إلى صف البصرة فلما كنا بلياس (اسم جبل بين اليمامة والبحرين) مات ونحن على غير ماء فأبدى الله لنا سحابة فمطرنا فغسلناه وحفرنا له بسيوفنا و لم نلحد له ودفناه ومضينا، فقال رجل من أصحاب رسول الله، ﷺ: دفناه و لم نلحد له فرجعنا لنلحد له فلم نجد موضع قبره).

(الطبقات الكبرى، ابن سعد)

٨- قصة خالد بن الوليد ﷺ في شربه السم: (عن أبي السفر (روى عن ابن عباس والبراء وعن سعيد بن جبير) قال نزل خالد بن الوليد الحيرة على أمر بني المرازبة فقالوا له احذر السم لا يسقيكه الأعاجم فقال: ائتوني به فأتي به فأخذه بيده ثم اقتحمه وقال: بسم الله فلم يضره شيئاً).

(أخرجه أبو يعلى في مسنده، والبيهقي في دلائل النبوة)

٩- قصة القصعة التي أكل منها سلمان الفارسي وأبو الدرداء رضي الله عنهما وسماعهما التسبيح: (بينما أبو الدرداء وسلمان يأكلان من صفحة إذا سبحت بما فيها). (أخرجه البيهقي في دلائل النبوة)

١٠- قصة سفينة ﷺ مولى رسول الله ﷺ مع الأسد فعن محمد بن المنكدر، أن سفينة مولى رسول الله ﷺ قال: «ركبت البحر فانكسرت سفينتي التي كنت

فيها فركبت لوحاً من ألواحها فطرحني اللوح في أجمة (الغابة) فيها الأسد فأقبل إلي يريدني فقلت: يا أبا الحارث، أنا مولى رسول الله ﷺ فطأطأ رأسه، وأقبل إلي فدفعني بمنكبه حتى أخرجني من الأجمة، ووضعني على الطريق وهمهم فظننت أنه يودعني فكان ذلك آخر عهدي به». (أخرجه الحاكم في مستدركه)

- (هذا غيض من فيض، وقليل من كثير مما ورد من كرامات عن صحابة رسول الله ﷺ، ثم توالى ورود الكرامات الكثيرة على أيدي الأولياء في عهد التابعين وتابعي التابعين إلى يومنا هذا، مما يصعب عده، ويضيق حصره، وقد ألف العلماء في ذلك مجلدات كثيرة، وصنف أكابر الأئمة منهم مصنفات في إثبات الكرامة للأولياء). (حقائق عن التصوف، عبد القادر عيسى ص٣٧٠)

ثالثاً- التوسل

- يخطئ كثيرٌ من الناس في معنى التوجه والتوسل، ويخلطون بينهما.

- **فالتوجه** لا يكون إلا لله، ولا يجوز لغيره، وهو الإقرار بالعقل والقلب بوحدانية الله سبحانه وتعالى، وبأسمائه الحسنى، وصفاته العليا، وأنه القادر على كل شيء والمقدر لكل شيء وحاجات الخلق بيده ولا معطي إلا هو ولا مستجيب للدعاء إلا هو، وهو سبحانه الذي يقول:

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ [سورة البقرة: ١٨٦].

- فتوجه العبد دائماً في صلاته ودعائه وحاجاته ورغباته وآماله لله سبحانه وتعالى لا إلى غيره، واعتقاد هذا العبد أن الله ﷻ وحده الذي يحقق ما يرغب فيه العبد ويحب لأنه مالك الملك، والواحد الأحد، الفرد الصمد الذي يلجأ إليه لا إلى سواه.

- ويشير إلى هذا حديث النبي ﷺ حيث يقول: «وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ اللَّهُمَّ أَنْتَ الْمَلِكُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ. أَنْتَ رَبِّي وَأَنَا عَبْدُكَ ظَلَمْتُ نَفْسِي وَاعْتَرَفْتُ بِذَنْبِي فَاغْفِرْ لِي ذُنُوبِي جَمِيعاً إِنَّهُ لاَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ أَنْتَ وَاهْدِنِي لأَحْسَنِ الأَخْلاَقِ لاَ يَهْدِي لأَحْسَنِهَا إِلاَّ أَنْتَ وَاصْرِفْ عَنِّي سَيِّئَهَا لاَ يَصْرِفُ عَنِّي سَيِّئَهَا إِلاَّ أَنْتَ لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ وَالْخَيْرُ كُلُّهُ فِي يَدَيْكَ وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ أَنَا بِكَ وَإِلَيْكَ تَبَارَكْتَ وَتَعَالَيْتَ أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ».

(أخرجه مسلم عن علي بن أبي طالب ﷺ)

- **والتوسل:** هو أن نلتجئ إلى الله ﷻ متوسلين إليه بالأنبياء والصالحين أي بأعمالهم الصالحة، ومكانتهم عند ربهم، أو توسل المسلم بأعماله الصالحة فهذا جائز، ودليله من القرآن والسنة، وإجماع الأمة.

- فالتوسل هو طريقة من طرق التضرع إلى الله ﷻ، وأحد أبواب دعائه والتوجه إليه سبحانه وتعالى، فالوسيلة هي كل ما جعله الله ﷻ سبباً في التقرب إليه، وباباً لقضاء الحوائج منه، قال تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ ﴾ [المائدة: ٣٥].

- والمسلم عندما يتوسل بالنبي ﷺ أو بالرجل الصالح، إنما يتوسل به لما يعلم من كرامته ومنزلته وجاهه عند الله ﷻ فهو من الذين قال الله فيهم: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾. [المائدة: ٥٤]

- ونعني بالجاه المنزلة التي يختص الله ﷻ بها من يشاء من عباده، قال تعالى:

﴿ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [آل عمران: ٧٤].

- كما أنه يجتبي سبحانه من يشاء، قال تعالى:

﴿ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴾ [الشورى: ١٣].

- فالإنسان عندما يتوسل إلى الله تعالى بجاه نبي أو ولي فإن ذلك يعني أنه توسل إلى الله تعالى بما منَّ الله تعالى به على هذا العبد من منزلة واجتباء وما خصه الله من رحمته، وهذا مجمع على جوازه عند أهل الحقيقة.

- أما قول النبي ﷺ: «... إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ..».

(أخرجه الترمذي عن ابن عباس رضي الله عنهما)

- فإن هذا الحديث ليس المقصود به النهي عن السؤال والاستعانة بما سوى الله، كما يفيد ظاهر لفظه، وإنما المقصود به النهي عن الغفلة عن كون ما جرى من الخير على يد الأسباب أنه من الله، والتنبيه إلى أن ما كان من نعمة على يد المخلوقات، فهو من الله وبالله، لأنه لابد من تحقيق ما يريده الإنسان من الاستعانة بالأسباب البشرية مع قصده الاستعانة بالله مسبب الأسباب، والغرض الذي يرمي إليه الحديث ألا تحجب الأسباب عن رؤية المسبب ﷻ.

➢ أولاً - الأدلة على جواز التوسل من القرآن الكريم:

- في القرآن الكريم آيات يستفاد منها جواز التوسل إلى الله ﷻ أذكر منها ما يلي:

١- قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ ﴾.
[المائدة: ٣٥]

لفظ الوسيلة في الآية عامٌ، فهو شامل للتوسل بالذوات الفاضلة من أنبياء وصالحين في حياتهم وبعد موتهم وبصالح الأعمال.

٢- قوله تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ﴾ [الإسراء: ٥٧].

- فقد قيل في تفسير هذه الآية: (الوسيلة ما يتقرب به إلى الله تعالى، وقوله أيهم أقرب معناه ينظرون أيهم أقرب إلى الله تعالى، فيتوسلون به.

وقال الزجاج: أيهم أقرب يبتغي الوسيلة إلى الله تعالى ويتقرب إليه بالعمل الصالح ﴿وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ﴾ جنته ﴿وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾ أي يطلب منه الحذر). (تفسير البغوي)

٣- قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ جَآءُوكَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسۡتَغۡفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابٗا رَّحِيمٗا ﴾ [النساء: ٦٤].

- فالآية دليل على جواز التوسل والاستشفاع بالنبي ﷺ في سائر الأحوال، لأنه في قبره الشريف حيٌّ تعرض عليه أعمال أمته، فيدعو لهم ويستغفر.

- جاء في تفسير هذه الآية ما يلي: (وقد ذكر جماعة منهم: الشيخ أبو نصر بن الصباغ في كتابه "الشامل" الحكاية المشهورة عن العُتْبي، قال: كنت جالساً عند قبر النبي ﷺ، فجاء أعرابي فقال: السلام عليك يا رسول الله، سمعت الله يقول: ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ جَآءُوكَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسۡتَغۡفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابٗا رَّحِيمٗا ﴾ وقد جئتك مستغفراً لذنبي مستشفعاً بك إلى ربي ثم أنشأ يقول:

يا خيرَ من دُفنَت بالقاع أعظُمُه فطاب منْ طيبهنّ القاعُ والأكَمُ
نَفْسي الفداءُ لقبرٍ أنت ســاكنُه فيه العفافُ وفيه الجودُ والكــرمُ

ثم انصرف الأعرابي فغلبتني عيني، فرأيت النبي ﷺ في النوم فقال: يا عُتْبي، الحقْ الأعرابيّ فبشره أن الله قد غفر له). (تفسير ابن كثير)

وذكر ذلك الإمام النووي في كتابه الإيضاح والمجموع وزاد البيتين التاليين:

أنت الشفيع الذي ترجى شفاعته على الصراط إذا ما زلت القدم
وصاحباك فلا أنــساهما أبــدا مني السلام عليكم ما جرى القلم

➢ ثانياً - الأدلة من الأحاديث النبوية الشريفة وآثار الصحابة:

وهي أيضاً كثيرة ومتعددة ذكرت في عدة كتب اهتمّت بهذا الموضوع أذكر منها:

١- حديث عُثْمَانَ بْنِ حُنَيْفٍ فقد روى: أَنَّ رَجُلاً ضَرِيراً أَتَى النَّبِيَ ﷺ فَقَالَ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ ادْعُ اللَّهَ أَنْ يُعَافِيَنِي. فَقَالَ: «إِنْ شِئْتَ أَخَّرْتُ ذَلِكَ فَهُوَ أَفْضَلُ لآخِرَتِكَ وَإِنْ شِئْتَ دَعَوْتُ لَكَ». قَالَ لاَ بَلِ ادْعُ اللَّهَ لِي. فَأَمَرَهُ أَنْ يَتَوَضَّأَ وَأَنْ يُصَلِّيَ رَكْعَتَيْنِ وَأَنْ يَدْعُوَ بِهَذَا الدُّعَاءِ «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ وَأَتَوَجَّهُ إِلَيْكَ بِنَبِيِّكَ مُحَمَّدٍ ﷺ نَبِيِّ الرَّحْمَةِ يَا مُحَمَّدُ إِنِّي أَتَوَجَّهُ بِكَ إِلَى رَبِّي فِي حَاجَتِي هَذِهِ فَتُقْضَى وَتُشَفِّعُنِي فِيهِ وَتُشَفِّعُهُ فِيَّ». قَالَ: فَفَعَلَ الرَّجُلُ فَبَرَأَ.

(أخرجه أحمد والنسائي والترمذي وابن ماجه وابن خزيمة والحاكم وقال أبو إسحاق هذا حديث صحيح)

فقوله إني أسألك وأتوجه إليك توسلٌ ظاهر بذاته وجاهه ﷺ وقد اعتمده العلماء المحدثون والحفاظ في كتب السنة في صلاة الحاجة حاثين الأمة عليها.

٢- حديث أبي سعيد الخدري ﷺ حيث روى عن رسول الله ﷺ أنه قال: « مَنْ خَرَجَ مِنْ بَيْتِهِ إِلَى الصَّلاَةِ فَقَالَ اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِحَقِّ السَّائِلِينَ عَلَيْكَ وَأَسْأَلُكَ بِحَقِّ مَمْشَايَ هَذَا فَإِنِّي لَمْ أَخْرُجْ أَشَراً (الطغيان بالنعمة) وَلاَ بَطَراً (التكبر على

الحق فلا يقبل) وَلاَ رِيَاءً وَلاَ سُمْعَةً وَخَرَجْتُ اتِّقَاءَ سُخْطِكَ وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِكَ فَأَسْأَلُكَ أَنْ تُعِيذَنِي مِنَ النَّارِ وَأَنْ تَغْفِرَ لِي ذُنُوبِي إِنَّهُ لاَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ أَنْتَ، أَقْبَلَ اللَّهُ عَلَيْهِ بِوَجْهِهِ وَاسْتَغْفَرَ لَهُ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ».

(أخرجه ابن ماجه وأحمد والطبراني والبيهقي وغيرهم)

(وهذا حثّ ظاهر من النبي ﷺ للصحابة على التوسل إلى الله تعالى بحقّ سائليه عليه، والسائلون: جمع يشمل الأحياء والأموات ومن كان حاضراً ومن غائباً، وفي الحديث دليل التوسل بالعمل الصالح وهو ممشى الرجل إلى المسجد لوجه الله، فالشرع لم يفرق بين التوسل بالذوات الفاضلة وبين التوسل بالعمل الصالح، بل لقائل أن يقول: كيف لا يجوز التوسل بذات النبي ﷺ الذي هو أشرف خلق الله، ويجوز التوسل بصلاة العبد وصيامه وصدقته وكلا الأمرين خلق الله).

(الشيخ يوسف خطار محمد: الموسوعة اليوسفية في بيان أدلة الصوفية)

٣- حديث سيدنا علي ﷺ أن النبي ﷺ لما دفن فاطمة بنت أسد أم سيدنا علي رضي الله عنهما قال: « اللهم بحقي وحق الأنبياء من قبلي اغفر لأمي بعد أمي».

(أخرجه الطبراني في الأوسط، وأبو نعيم في الحلية والهيثمي في مجمع الزوائد)

٤- عَنْ أَنَسِ بن مالك ﷺ أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ ﷺ كَانَ إِذَا قَحَطُوا اسْتَسْقَى بِالْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ فَقَالَ: (اللَّهُمَّ إِنَّا كُنَّا نَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِنَبِيِّنَا فَتَسْقِينَا وَإِنَّا نَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِعَمِّ نَبِيِّنَا فَاسْقِنَا. قَالَ: فَيُسْقَوْنَ). (أخرجه البخاري)

٥- عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال، قال رسول الله ﷺ: «انْطَلَقَ ثَلاَثَةُ رَهْطٍ مِمَّنْ كَانَ قَبْلَكُمْ حَتَّى أَوَوُا الْمَبِيتَ إِلَى غَارٍ فَدَخَلُوهُ، فَانْحَدَرَتْ صَخْرَةٌ مِنَ الْجَبَلِ فَسَدَّتْ عَلَيْهِمُ الْغَارَ فَقَالُوا إِنَّهُ لاَ يُنْجِيكُمْ مِنْ هَذِهِ الصَّخْرَةِ إِلاَّ أَنْ تَدْعُوا اللَّهَ بِصَالِحِ أَعْمَالِكُمْ. فَقَالَ رَجُلٌ مِنْهُمُ اللَّهُمَّ كَانَ لِي أَبَوَانِ شَيْخَانِ كَبِيرَانِ، وَكُنْتُ لاَ أَغْبِقُ (لا أشرب) قَبْلَهُمَا أَهْلاً وَلاَ مَالاً، فَنَأَى بِي فِي طَلَبِ شَيْءٍ

يَوْماً، فَلَمْ أُرِحْ عَلَيْهِمَا حَتَّى نَامَا، فَحَلَبْتُ لَهُمَا غَبُوقَهُمَا فَوَجَدْتُهُمَا نَائِمَيْنِ وَكَرِهْتُ أَنْ أَغْبِقَ قَبْلَهُمَا أَهْلاً أَوْ مَالاً، فَلَبِثْتُ وَالْقَدَحُ عَلَى يَدَيَّ أَنْتَظِرُ اسْتِيقَاظَهُمَا حَتَّى بَرَقَ الْفَجْرُ، فَاسْتَيْقَظَا فَشَرِبَا غَبُوقَهُمَا، اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ فَفَرِّجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ مِنْ هَذِهِ الصَّخْرَةِ، فَانْفَرَجَتْ شَيْئاً لاَ يَسْتَطِيعُونَ الْخُرُوجَ». قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «وَقَالَ الآخَرُ اللَّهُمَّ كَانَتْ لِي بِنْتُ عَمٍّ كَانَتْ أَحَبَّ النَّاسِ إِلَيَّ، فَأَرَدْتُهَا عَنْ نَفْسِهَا، فَامْتَنَعَتْ مِنِّي حَتَّى أَلَمَّتْ بِهَا سَنَةٌ مِنَ السِّنِينَ، فَجَاءَتْنِي فَأَعْطَيْتُهَا عِشْرِينَ وَمِائَةَ دِينَارٍ عَلَى أَنْ تُخَلِّيَ بَيْنِي وَبَيْنَ نَفْسِهَا، فَفَعَلَتْ حَتَّى إِذَا قَدَرْتُ عَلَيْهَا قَالَتْ لاَ أُحِلُّ لَكَ أَنْ تَفُضَّ الْخَاتَمَ إِلاَّ بِحَقِّهِ. فَتَحَرَّجْتُ مِنَ الْوُقُوعِ عَلَيْهَا، فَانْصَرَفْتُ عَنْهَا وَهْيَ أَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ وَتَرَكْتُ الذَّهَبَ الَّذِي أَعْطَيْتُهَا، اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ فَافْرُجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ. فَانْفَرَجَتِ الصَّخْرَةُ، غَيْرَ أَنَّهُمْ لاَ يَسْتَطِيعُونَ الْخُرُوجَ مِنْهَا. قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: وَقَالَ الثَّالِثُ: اللَّهُمَّ إِنِّي اسْتَأْجَرْتُ أُجَرَاءَ فَأَعْطَيْتُهُمْ أَجْرَهُمْ، غَيْرَ رَجُلٍ وَاحِدٍ تَرَكَ الَّذِي لَهُ وَذَهَبَ فَثَمَّرْتُ أَجْرَهُ حَتَّى كَثُرَتْ مِنْهُ الأَمْوَالُ، فَجَاءَنِي بَعْدَ حِينٍ فَقَالَ: يَا عَبْدَ اللَّهِ أَدِّ إِلَيَّ أَجْرِي. فَقُلْتُ لَهُ كُلُّ مَا تَرَى مِنْ أَجْرِكَ مِنَ الإِبِلِ وَالْبَقَرِ وَالْغَنَمِ وَالرَّقِيقِ. فَقَالَ: يَا عَبْدَ اللَّهِ لاَ تَسْتَهْزِئْ بِي. فَقُلْتُ: إِنِّي لاَ أَسْتَهْزِئُ بِكَ. فَأَخَذَهُ كُلَّهُ فَاسْتَاقَهُ فَلَمْ يَتْرُكْ مِنْهُ شَيْئاً، اللَّهُمَّ فَإِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ فَافْرُجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ. فَانْفَرَجَتِ الصَّخْرَةُ فَخَرَجُوا يَمْشُونَ». (أخرجه البخاري)

وفي هذا الحديث دلالة واضحة على توسل المسلم بأعماله الصالحة لتحقيق ما يحب ويرغب فيه ويأمل أو في دفع بلاء أو مصيبة، أو قدر وقع عليه.

- أجمع العلماء المعتدلون المنصفون أن التوسل هو مشروع دلت عليه نصوص الكتاب والسنة وجرى عليه عمل السلف الصالح، وأجمع عليه المسلمون وهو:

١- التوسل باسم من أسماء الله تبارك وتعالى أو صفة من صفاته.

٢- التوسل بعمل صالح قام به الداعي.

٣- التوسل بدعاء رجل صالح.

٤- ثم ينقل أقوال الأئمة المعتمدين في مسألة التوسل فيقول:

فأجاز الإمام أحمد التوسل بالرسول ﷺ وحده، وأجاز غيره كالإمام الشوكاني التوسل به وبغيره من الأنبياء والصالحين).

وأخيراً: نجد أن للتوسل أنواعاً عدة نذكرها باختصار.

(انظر: الثقافة النبوية، مصطفى الحمصي ص٢٠٠)

١- التوسل باسم من أسماء الله سبحانه وتعالى:

- قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠].

- ويستدل على التوسل بأسماء الله تعالى بما روته عَائِشَة رضي الله عنها قَالَتْ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّه ﷺ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ باسْمكَ الطَّاهِرِ الطَّيِّبِ الْمُبَارَكِ الأَحَبِّ إِلَيْكَ الَّذي إِذَا دُعِيتَ به أَجَبْتَ وَإِذَا سُئِلْتَ به أَعْطَيْتَ وَإِذَا اسْتُرْحِمْتَ به رَحِمْتَ وَإِذَا اسْتُفْرِجْتَ به فَرَّجْتَ». قَالَتْ وَقَالَ ذَاتَ يَوْمٍ «يَا عَائِشَةُ هَلْ عَلِمْتِ أَنَّ اللَّهَ قَدْ دَلَّني عَلَى الاسْمِ الَّذي إِذَا دُعِيَ به أَجَابَ». قَالَتْ فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّه بأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي فَعَلِّمْنيه. قَالَ: «إِنَّهُ لاَ يَنْبَغي لَكِ يَا عَائِشَةُ». قَالَتْ فَتَنَحَّيْتُ وَجَلَسْتُ سَاعَةً ثُمَّ قُمْتُ فَقَبَّلْتُ رَأْسَهُ ثُمَّ قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّه عَلِّمْنيه. قَالَ: «إِنَّهُ لاَ يَنْبَغي لَكِ يَا عَائِشَةُ أَنْ أُعَلِّمَكِ إِنَّهُ لاَ يَنْبَغي لَكِ أَنْ تَسْأَلي به شَيْئاً منَ الدُّنْيَا». قَالَتْ: فَقُمْتُ فَتَوَضَّأْتُ ثُمَّ صَلَّيْتُ رَكْعَتَيْنِ ثُمَّ قُلْتُ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَدْعُوكَ اللَّهَ وَأَدْعُوكَ الرَّحْمَنَ وَأَدْعُوكَ الْبَرَّ الرَّحِيمَ وَأَدْعُوكَ بِأَسْمَائِكَ الْحُسْنَى كُلِّهَا مَا عَلِمْتُ منْهَا وَمَا لَمْ أَعْلَمْ أَنْ تَغْفِرَ لِي وَتَرْحَمَنِي. قَالَتْ فَاسْتَضْحَكَ رَسُولُ اللَّه ﷺ ثُمَّ قَالَ: «إِنَّهُ لَفِي الأَسْمَاءِ الَّتِي دَعَوْتِ بِهَا». (أخرجه ابن ماجه في سننه)

وبقوله ﷺ: «مَا أَصَابَ أَحَداً قَطُّ هَمٌّ وَلاَ حَزَنٌ فَقَالَ اللَّهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ وَابْنُ عَبْدِكَ وَابْنُ أَمَتِكَ نَاصِيَتِي بِيَدِكَ مَاضٍ فِيَّ حُكْمُكَ عَدْلٌ فِيَّ قَضَاؤُكَ أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَداً مِنْ خَلْقِكَ أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ أَوِ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ رَبِيعَ قَلْبِي وَنُورَ صَدْرِي وَجَلاَءَ حُزْنِي وَذَهَابَ هَمِّي. إِلاَّ أَذْهَبَ اللَّهُ هَمَّهُ وَحُزْنَهُ وَأَبْدَلَهُ مَكَانَهُ فَرَجاً». قَالَ فَقِيلَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَلاَ نَتَعَلَّمُهَا فَقَالَ: «بَلَى يَنْبَغِي لِمَنْ سَمِعَهَا أَنْ يَتَعَلَّمَهَا».

(أخرجه أحمد وابن حبان والحاكم في مستدركه عن عبد الله بن مسعود ﷺ)

٢- التوسل بجاه النبي ﷺ أو حرمته:

كأن يقول: (أتوسل إليك بجاه نبيك عندك أو حرمته). أي: اجعل قدر نبيك العظيم ومنزلته العالية عندك سبباً في قضاء حاجتي، ولاشك أن قدر سيدنا محمد ﷺ وجاهه عند الله ﷻ عظيم، فهو خير الخلق وأحبهم إلى الله ﷻ، وبالطبع فليس المسؤول هنا هو النبي ﷺ، وإنما المسؤول هو الله ﷻ، والرسول ﷺ هو متوسل بقدره وجاهه عند الله ﷻ.

٣- التوسل بحق النبي ﷺ:

كأن يقول: (اللهم إني اسألك بحق نبيك المصطفى عندك) وهو راجع إلى معنى الجاه والحرمة السابقة، ويستدل على ذلك بقول النبي ﷺ: «مَنْ خَرَجَ مِنْ بَيْتِهِ إِلَى الصَّلاَةِ فَقَالَ اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِحَقِّ السَّائِلِينَ عَلَيْكَ وَأَسْأَلُكَ بِحَقِّ مَمْشَايَ هَذَا فَإِنِّي لَمْ أَخْرُجْ أَشَراً وَلاَ بَطَراً وَلاَ رِيَاءً وَلاَ سُمْعَةً وَخَرَجْتُ اتِّقَاءَ سُخْطِكَ وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِكَ فَأَسْأَلُكَ أَنْ تُعِيذَنِي مِنَ النَّارِ وَأَنْ تَغْفِرَ لِي ذُنُوبِي إِنَّهُ لاَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ أَنْتَ، أَقْبَلَ اللَّهُ عَلَيْهِ بِوَجْهِهِ وَاسْتَغْفَرَ لَهُ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ».

(أخرجه ابن ماجه وأحمد والطبراني والبيهقي وغيرهم عن أبي سعدي الخدري ﷺ، وهو حديث حسن)

٤- التوسل بذات النبي ﷺ:

وذلك على معنى الاستشفاع به إلى الله تعالى، لبلوغ المأرب كأن يقول: (اللهم إني أتوسل إليك بنبيك محمد أن تقضي حاجتي) والشاهد على ذلك حديث الرجل الضرير الذي مر معنا سابقاً.

٥- التوسل بالأعمال الصالحة:

ودليله حديث أصحاب الغار الثلاثة الذين توسلوا بصالح أعمالهم إلى الله تعالى، وقد مر معنا سابقاً.

٦- التوسل بجاه الصالحين:

ودليله ما روي عن سيدنا عمر بن الخطاب ﷺ عندما توسل بعم النبي ﷺ العباس عندما أراد الاستسقاء.

١- الحسن البصري (ت ١١٠هـ).

٢- إبراهيم بن أدهم (ت١٦١هـ/ ٧٧٨م).

٣- الفضيل بن عياض. (ت١٨٧هـ/٨٠٣م).

٤- أبو يزيد البسطامي. (ت ٢٦١هـ/٨٧٥م)

٥- محمد الغزالي. (ت٥٢٠هـ).

من أعلام التصوف:

- أعلام التصوف أكثر من أن يحصوا، وهم أعلام العلم والعلماء، وأهل الفضل والإحسان، وأصحاب التقوى والإيمان، وذو الذكر والعرفان وأكابر الصالحين وأهل اللّه، الذين ظهروا على مر العصور والأزمنة، وفي كل مكان وزمان، وحملوا راية الدعوة والإرشاد، والتزكية والإحسان، فبلغوا الأمانة، ونصحوا الأمة، وربوا الأجيال المتلاحقة، وحافظوا على السنة المطهرة، وعلى الأمة الخيّرة.

- ذكرت سيرهم وهم الألوف المؤلفة في العديد من كتب التراجم والسير نورد خلاصة بسيطة عن عدد قليل منهم للذكر لا للحصر، وللتعرف على هذه النماذج القدوة في العلم والصلاح والتزكية والإحسان والزهد والرضا والرضوان والصبر والشكر في كل حال من الأحوال، حتى أصبحوا منارات للهداية، وأئمةً في الزهد والصلاح والتقوى والورع والتوكل والرضا، يقتدي بهم مَنْ بعدهم من الذين ساروا على نهجهم وطريقتهم، فذاع صيتهم، وانتشر خبرهم وعلا أمرهم، وكثر الحديث عنهم، وعمَّ نفعهم في كل زمان ومكان وإلى يومنا هذا.

- هذا وإن الدارس لهؤلاء الأعلام يجد أن هناك تشابهاً بينهم في كثير من الأحيان في طريق وصولهم إلى معرفة الله ﷻ، واجتماع قلوبهم عليه، وذلك من خلال ما خصهم الله به من صحوة إيمانية، ودلالة ربانية عليه بعد أن كانوا في غفلة عنه، فأسرعوا إلى التمسك بهذا الطريق المستقيم والاستقامة عليه في أعلى مستواه، وأرقى محتواه، فأفاض الله على ألسنتهم من الأقوال التي فيها العظة النيرة والحكمة البالغة والعبرة القيمة التي انتفع بها كل من صاحبهم، وكل من سار على دربهم، واطلع بسلامة قلب على أخبارهم وأقوالهم.

- وقد اخترت عشرة من أعلامهم للذكر لا للحصر، لنقف على أحوالهم وأقوالهم بصفتهم نماذج لأولئك الأعلام، مع الانتباه إلى أنهم ما عدا حجة الإسلام

محمد الغزالي من الرعيل الأول، ومن القرون الخيرة التي ذكرها النبي ﷺ، فسنوات وفاتهم قبل القرن الثالث الهجري، وقد عاشوا في أزمان أئمة الفقه المجتهدين وأعلام الحديث رواية ودراية، فأخذوا عنهم وتعلموا، كما أخذ أولئك الأئمة عنهم واستفادوا، فكان عصرهم عصر الصفاء والنقاء والتمسك بالقرآن الكريم والسنة المطهرة العصرَ الذي لم تظهر فيه البدع في الدين أو البعد عنه فكانوا من القرون الخيرة التي ذكرها النبي ﷺ: «خير القرون قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم».

(متفق عليه عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه)

□ أولاً - الحسن البصري:

- هو أبو سعيد الحسن بن أبي الحسن يسار البصري، كان من سادات التابعين وكبرائهم سناً ومقاماً، ولد لسنتين بقيتا من خلافة سيدنا عمر ﷺ، وحنكه عمر ﷺ بيده.

- كان أبوه مولى لزيد بن ثابت الأنصاري ﷺ وأمه خيرة مولاة أم سلمة زوج النبي ﷺ وكانت أمه تغيب أحياناً فيبكي فتأخذه أم سلمة تعلله بثديها حتى تعود أمه، ولتكرر محاولات إسكاته در عليه ثديها فرضع منها فهو من بيت النبوة رضاعة.

- وقد رأى ثلاثين ومائة من أصحاب النبي ﷺ، وكان يشبه كلامه كلام الأنبياء، وكان رجلاً غلب عليه الحزن، ومات في شهر رجب سنة عشر ومائة وهو ابن تسع وثمانين سنة.

- ويعدّه الصوفية في رأس سلسلة سند التصوف، فهم يقولون إنه أخذ الطريقة (ولبس الخرقة) من الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، وعلي ﷺ أخذها من الرسول ﷺ.

- قال يونس بن عبيد (وهو من أصحاب الحسن): ما رأيت رجلاً قط أطول حزناً من الحسن، كان إذا أقبل كأنه أقبل من دفن أمه، وإذا جلس كأنه أسير قُدِّمَ ليضرب عنقه، وإذا تكلم كأن النار لم تخلق إلا له.

➢ من أقواله:

- لا تضحك فإنك لا تدري لعل الله قد اطلع على بعض أعمالنا فقال: لا أقبل منكم شيئاً.
- لا تخرج نفس ابن آدم من الدنيا إلا بحسرات ثلاث، أنه لم يشبع مما جمع، ولم يدرك ما أحل، ولم يحسن الزاد لما قدم عليه.
- بئس الرفيقان: الدنيا والدرهم، لا ينفعانك حتى يفارقانك.

• لا تزال كريماً على إخوانك ما لم تحتج إلى ما في أيديهم فإذا احتجت إلى ما في أيديهم ثقل عليهم حديثك وَهُنت عليهم.

• عظ الناس بفعلك ولا تعظهم بقولك.

• إذا رأيت الرجل ينافس في الدنيا فنافسه في الآخرة.

• الفكرة مرآة تريك حسناتك وسيئاتك.

• ما يسرني مودة ألف رجل بعداوة رجل واحد.

• نبكي على الميت ثلاثة أيام وعلى الأحمق حتى يموت.

• قيل له: إن الناس يقولون: إن الحجاج مغفور له، قال: آية ذلك أن يدع سيِّئ ما كان عليه.

• يا عجباً لقوم أمروا بالزاد ونودوا بالرحيل وحبس أولهم على آخرهم وهم قعود يلعبون.

• أصول الشر ثلاثة وفروعه ستة، فالأصول: الحسد والحرص وحب الدنيا، وفروعه: حب الرياسة، وحب الفخر، وحب الثناء، وحب الشبع، وحب النوم، وحب الراحة.

• من أحب الدنيا ذهب خوف الآخرة من قلبه.

• أكثروا من الاستغفار في بيوتكم وعلى موائدكم وفي طرقكم وفي أسواقكم وفي مجالسكم وأينما كنتم فإنكم لا تدرون متى تنزل المغفرة.

• المؤمن في الدنيا كالغريب لا ينافس في عزها ولا يجزع من ذلها، للناس حال وله حال.

• إن الرجل ليعمل بالحسنة فتكون نوراً في قلبه وقوة في بدنه وإن الرجل ليعمل بالسيئة فتكون ظلمة في قلبه ووهناً في بدنه.

• وكان من دعائه: اللهم عافيت فيما مضى فَعَافِ فيما بقي، اللهم أحسنت فيما مضى وأنت لما بقي.

• مسكين ابن آدم رضي بدار حلالها حساب، وحرامها عذاب، إن أخذه من حِلٍّ حوسب بنعيمه، وإن أخذه من حرام عُذب به.

• ابن آدم يستقل ماله ولا يستقل عمله، يفرح بمصيبته في دينه ويجزع بمصيبته في دنياه.

• كان يقول: لسان الحكيم من وراء قلبه إذا أراد أن يقول رجع إلى قلبه، فإن كان له قال، وإن لم يكن له أمسك.

• وكانوا يقولون: إن قلب الجاهل في طرف لسانه لا يرجع إلى قلبه ما أتى على لسانه تكلم به.

• إياكم وما يشغل من الدنيا، فإنه لا يفتح رجل على نفسه باباً من الدنيا إلا سد عليه عشرة أبواب من عمل الآخرة.

• ابن آدم اصحب الناس بأي خلق شئت يصحبوك بمثله.

قال أبو كعب صاحب الحرير: أردت سفراً، فأتيت الحسن، فقلت له: أَوْصِني، فقال: أعز أمر الله حيثما كنت يعزك، ففعلت: فلم أزل عزيزاً حتى رجعت.

□ ثانياً - إبراهيم بن أدهم:

- هو أبو إسحاق إبراهيم بن أدهم بن منصور، من كدرة بلخ في خرسان، كان من أبناء الملوك، فخرج يوماً يتصيد، فأثار ثعلباً أو أرنباً وهو في طلبه، فهتف به هاتف: يا إبراهيم ألهذا خلقت؟ أم بهذا أمرت؟ ثم هتف به: ما لهذا خلقت ولا بهذا أمرت.

- فنزل عن دابته، وصادف راعياً لأبيه، فأخذ جبة للراعي من صوف ولبسها، وأعطاه فرسه وما معه، ثم إنه دخل البادية، ثم دخل مكة المكرمة، وصحب بها سفيان الثوري والفضيل بن عياض، ثم انطلق إلى الشام طلباً للحلال فأقام بها غازياً (ت١٦١هـ/ ٧٧٨م).

- وكان يعمل في البساتين والحصاد وغير ذلك فيأكل من عمل يده.

- قال حذيفة المرعشي (وهو من كبار العباد): قدم شقيق البلخي (ستمر ترجمته) مكة وإبراهيم بن أدهم فيها فاجتمع الناس فقالوا: نجمع بينهما فجمعوا بينهما في المسجد الحرام.

فقال إبراهيم بن أدهم لشقيق: يا شقيق، على ماذا أصّلتم أصولكم؟ فقال شقيق: أصّلنا أصولنا أنا إذا رزقنا أكلنا، وإذا مُنعنا صبرنا. فقال إبراهيم بن أدهم: هكذا كلاب بلخ. إذا رزقت أكلت وإذا منعت صبرت، فقال شقيق: فعلى ماذا أصّلتم أصولكم يا أبا اسحاق؟ قال: أصّلنا أصولنا على إنا إذا رزقنا آثرنا، وإذا منعنا حمدنا وشكرنا. فقام شقيق وجلس بين يديه وقال: يا أبا إسحاق أنت أستاذنا.

- وكان إبراهيم بن أدهم يحرس كرماً، فمر به جندي، فقال: أعطنا من هذا العنب، فقال: ما أمرني به صاحبه، فأخذ يضربه بسوطه، فطأطأ رأسه، وقال: اضرب رأساً طالما عصى اللّه تعالى، فأعجز الرجل ومضى.

- حدث ابن تميم (ثقة صدوق، أحد النُّسّاك المجاهدين، صحب إبراهيم بن أدهم) فقال: قلت لإبراهيم بن أدهم: منذ كم أنت بالشام؟ قال: منذ أربع وعشرين سنة، وما أتيتها لرباط - يعني لغزو - قلت: فَلِمَ؟ قال: لأشبع من خبز الحلال.

- خرج إبراهيم بن أدهم من بيت المقدس فمر بمَسْلَحَةٍ (قوم ذوي سلاح) فقالوا: عبدٌ؟ قال: نعم، قالوا: آبق؟ قال: نعم، فذهبوا به فحبسوه بسجن في طبريا، قال فجاء رجل يطلب عبداً له آبقاً من بيت المقدس، فقيل له: إن في مسلحة كذا قد أصابوا غلاماً آبقاً، وهو في السجن بطبريا، قال: فذهب إلى السجن فإذا هو بإبراهيم ابن أدهم، قال: سبحان الله ما تصنع ها هنا، قال: أنا ها هنا، وما أحسن مكاني! قال: فرجع الرجل إلى بيت المقدس، فأخبرهم فجاء الناس من بيت المقدس إلى أمير طبريا فقالوا: إبراهيم ما يصنع في حبسك؟ قال: ما حبسته. قالوا: بلى، قال: فبعث إليه

فجاءه، فقال له: لَمَ حبست؟ فقال: مررت بمسلحة، فقالوا: عبدٌ، قلت: نعم وأنا عبد الله، قالوا: آبقٌ، قلت: نعم وأنا آبق من ذنوبي، قال: فخلى سبيله.

- كتب إبراهيم بن أدهم إلى سفيان الثوري: من عرف ما يطلب هان عليه ما يبذل، ومن أطلق بصره طال أسفه، ومن طال أمله ساء عمله، ومن أطلق لسانه قتل نفسه.

- كان إبراهيم بن أدهم في البحر فعصفت الريح واشتدت، وإبراهيم ملفوف في كسائه، فجعل أهل السفينة ينظرون إليه، فقال له رجل منهم: يا هذا ما ترى ما نحن فيه من هذا الهول، وأنت نائم في كسائك؟ قال: فكشف إبراهيم رأسه فأخرجه من الكساء ثم رفع رأسه إلى السماء، فقال: اللهم قد أريتنا قدرتك فأرنا عفوك، قال: فسكن البحر وهدأت السفينة.

- قالَ: يا أهلَ البصرةِ قد ماتتْ قلوبُكُمْ بعشرةِ أشياءَ فكيفَ يُستجابُ لكم؟

أولاً: عرفْتُم اللهَ و لم تؤدوا حقَّهُ.

ثانياً: قرأْتُم القرآنَ و لم تعملوا به.

ثالثاً: ادَّعيْتُمْ حُبَّ الرسولِ وتركْتُمْ سُنَّتَهُ.

رابعاً: ادَّعيتم عداوةَ الشيطانِ وأطعْتُموه.

خامساً: ادَّعيتم دخولَ الجنةِ و لم تعملوا لها.

سادساً: ادعيتم النجاةَ من النار ورَمَيْتُمْ بها أنفسَكُمْ.

سابعاً: قلتم الموتُ حقٌّ و لم تستعِدُّوا له.

ثامناً: اشتغلتم بعيوبِ الناسِ وتركتم عيوبَكُمْ.

تاسعاً: دفنْتُمْ موتاكم و لم تَعْتبروا.

عاشراً: أكلتم نعمةَ الله و لم تشكروه عليها.

➢ من أقواله:

● من عرف ما يطلب هان عليه ما يبذل، ومن أطلق بصره طال أسفه، ومن طال أمله ساء عمله، ومن أطلق لسانه قتل نفسه.

● اتخذ اللّه صاحباً، وذر الناس جانباً.

● من أراد الراحة فليخرج الخلق من قلبه حتى يستريح.

● كثرة النظر إلى الباطل يذهب بمعرفة الحق من القلب.

● ما صدق اللّه عبد أحب الشهرة.

□ ثالثاً - الفضيل بن عياض:

- هو الفضيل بن عياض بن مسعود التميمي أبو علي، ولد بسمرقند ونشأ بكورة بأبيورد (مدينة بخورسان)، وقدم الكوفة وهو كبير، فسمع بها الحديث، ثم تعبد وانتقل إلى مكة فمات بها سنة (١٨٧هـ/٨٠٣م) في الشهر المحرم.

- قال الفضيل بن موسى (من أصحاب الفضيل): كان الفضيل شاطراً (قاطع الطريق) يقطع الطريق بين أبيورد وسرخس، وكان سبب توبته أنه عشق جارية، فبينما هو يرتقي الجدار إليها سمع قارئاً يتلو قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [الحديد: ١٦].

فقال: يا رب قد آنَ، فرجع فآواه الليل إلى خربة، فإذا فيها رفقة، فقال بعضهم: نرتحل، وقال بعض آخر: حتى نصبح فإن فضيلاً على الطريق يقطع علينا، فتاب الفضيل وأمنهم، وجاور الحرم حتى مات.

- قال إسحاق بن إبراهيم (من أصحاب الفضيل): كانت قراءة الفضيل حزينة شهية بطيئة مترسلة، كأنه يخاطب إنساناً، وكان إذا مر بآية فيها ذكر الجنة يرددها،

وكان يلقى له حصير بالليل في مسجده، فيصلي من أول الليل ساعة حتى تغلبه عينه، فيلقي نفسه على الحصير، فينام قليلاً ثم يقوم، فإذا غلبه النوم نام، ثم يقوم هكذا حتى يصبح.

- قال وسمعت الفضيل يقول: إذا لم تقدر على قيام الليل، وصيام النهار، فاعلم أنك محروم مكبل كبَّلتكَ خطيئتك.

- وعن مهران بن عمرو الأسدي (من أصحاب الفضيل) قال: سمعت الفضيل ابن عياض عشية عرفة بالموقف، وقد حال بينه وبين الدعاء البكاء يقول: واسوأتاه وفضيحتاه إن لم تعْفُ عني.

- وعن أحمد بن سهل قال: قدم علينا سعد بن زنبور (من رواة الفضيل) فأتيناه فحدثنا قال: كنا على باب الفضيل بن عياض فاستأذنا عليه فلم يؤذن لنا، فقيل لنا إنه لا يخرج إليكم أو يسمع القرآن، قال: وكان معنا رجل مؤذن، وكان صيتاً، فقلنا له: اقرأ (ألهاكم التكاثر) فقرأها ورفع بها صوته، فأشرف علينا الفضيل، وقد بكى حتى بلَّ لحيته بالدموع، ومعه خرقة ينشف بها الدموع، وأنشأ يقول:

بلغت الثمانين أو جزتها ... فماذا أؤمل أو أنتظر؟
أتى لي ثمانون من مولدي ... وبعد الثمانين ما ينتظر؟
علتني السنون فأبلينني...

- قال: ثم خنقته العبرة، وكان معنا علي بن خشرم (ابن أخت بشر الحافي)، فأتمه لنا فقال:

علتني السنون فأبلينني ... فرقت عظامي وكلَّ البصر

- قال أبو علي الرازي (من أصحاب الفضيل): صحبت الفضيل ثلاثين سنة ما رأيته ضاحكاً ولا متبسماً إلا يوم مات ابنه علي، فقلت له في ذلك، فقال: إنَّ الله أحب أمراً فأحببت ذلك.

➢ من أقواله:

● لو أن الدنيا بحذافيرها عرضت عليَّ ولا أحاسب بها لكنت أتقذرها كما يتقذر أحدكم الجيفة إذا مر بها أن تصيب ثوبه.

● ترك العمل لأجل الناس هو رياء، والعمل لأجل الناس هو شرك.

● قال لرجل: لأعلمنك كلمة هي خير من الدنيا وما فيها: والله لَئِنْ علم الله منك إخراج الآدميين من قلبك حتى لا يكون في قلبك مكان لغيره لم تسأله شيئاً إلا أعطاك.

● وعن الفضل بن الربيع (تولى الوزارة في عهد الرشيد) قال: حج أمير المؤمنين الرشيد فأتاني فخرجت مسرعاً فقلت يا أمير المؤمنين لو أرسلت إليَّ أتيتك فقال: ويحك قد حاك في نفسي شيء فانظر لي رجلاً أسأله فقلت ها هنا سفيان بن عيينة فقال امض بنا إليه.

فأتيناه فقرعت الباب فقال من ذا؟ فقلت أجب أمير المؤمنين فخرج مسرعاً فقال يا أمير المؤمنين لو أرسلت إلي أتيتك فقال له: خذ لما جئناك له رحمك الله (يريد النصيحة).

فحدثه ساعة ثم قال له عليك دين قال نعم فقال أبا عباس اقض دينه فلما خرجنا قال: ما أغنى عني صاحبك شيئا انظر لي رجلاً اسأله فقلت له هاهنا عبد الرزاق بن همام (من حفاظ الحديث الثقات، من أهل صنعاء) قال امض بنا إليه فأتيناه فقرعت الباب فقال من هذا؟ قلت: أجب أمير المؤمنين. فخرج مسرعاً فقال: يا أمير المؤمنين لو أرسلت إلي أتيتك قال خذ لما جئناك له.

فحادثه ساعة ثم قال له عليك دين قال نعم قال أبا عباس اقض دينه.

فلما خرجنا قال ما أغنى صاحبك شيئا انظر لي رجلا اسأله قلت ها هنا الفضيل بن عياض قال: امض بنا إليه فأتيناه فإذا وهو قائم يصلي يتلو آية من القرآن

يرددها فقال اقرع الباب فقرعت الباب فقال من هذا فقلت أجب أمير المؤمنين فقال ما لي ولأمير المؤمنين فقلت سبحان الله أما عليك طاعة؟ أليس قد روي عن النبي ﷺ أنه قال: ليس للمؤمن أن يذل نفسه فنزل ففتح الباب ثم ارتقى إلى الغرفة فأطفأ المصباح ثم التجأ إلى زاوية من زوايا البيت فدخلنا فجعلنا نجول عليه بأيدينا فسبقت كف هارون قبلي إليه فقال يا لها من كف ما ألينها إن نجت غداً من عذاب الله ﷻ فقلت في نفسي ليكلمنه الليلة بكلام نقيّ من قلب تقيّ فقال له خذ لما جئناك له رحمك الله فقال إن عمر بن عبد العزيز لما ولى الخلافة دعا سالم بن عبد الله ومحمد بن كعب القرظي ورجاء بن حيوة (وهم من علماء زمانه) فقال لهم إني قد ابتليت بهذا البلاء فأشيروا علي. فعد الخلافة بلاء وعددها أنت وأصحابك نعمة فقال له سالم بن عبد الله إن أردت النجاة غداً من عذاب الله فصم عن الدنيا وليكن إفطارك من الموت وقال له محمد بن كعب القرظي إن أردت النجاة من عذاب الله فليكن كبير المسلمين عندك أباً وأوسطهم عندك أخاً وأصغرهم عندك ولداً فوقر أباك وأكرم أخاك وتحنن على ولدك.

وقال له رجاء ين حيوة إن أردت النجاة غداً من عذاب الله ﷻ فأحب للمسلمين ما تحب لنفسك واكره لهم ما تكره لنفسك ثم مت إذا شئت وإني أقول لك إني أخاف عليك أشد الخوف يوماً تزل فيه الأقدام فهل معك رحمك الله من يشير عليك بمثل هذا؟ فبكى هارون بكاء شديدا حتى غشي عليه فقلت له ارفق بأمير المؤمنين فقال يا ابن أم الربيع تقتله أنت وأصحابك وارفق به أنا ثم أفاق فقال له: زدني رحمك الله فقال: يا أمير المؤمنين بلغني أن عاملا لعمر بن عبد العزيز شكا إليه فكتب إليه عمر يا أخي أذكرك طول سهر أهل النار في النار مع خلود الأبد وإياك أن ينصرف بك من عند الله فيكون آخر العهد وانقطاع الرجاء قال فلما قرأ الكتاب طوى البلاد حتى قدم على عمر بن عبد العزيز فقال له ما أقدمك قال خلعت قلبي بكتابك لا أعود إلى ولاية أبداً حتى ألقى الله ﷻ.

قال فبكى هارون بكاء شديداً ثم قال له زدني رحمك الله فقال يا أمير المؤمنين إن العباس عم المصطفى ﷺ جاء إلى النبي ﷺ فقال يا رسول الله أمرني على إمارة فقال له النبي ﷺ إن الإمارة حسرة وندامة يوم القيامة فإن استطعت أن لا تكون أميرا فافعل.

فبكى هارون بكاء شديداً وقال له زدني رحمك الله فقال يا حسن الوجه أنت الذي يسألك الله ﷻ عن هذا الخلق يوم القيامة فإن استطعت أن تقي هذا الوجه من النار فافعل وإياك أن تصبح وتمسي وفي قلبك غش لأحد من رعيتك فإن النبي ﷺ قال: من أصبح لهم غاشاً لم يرح رائحة الجنة.

بكى هارون وقال له عليك دين قال نعم دين لربي يحاسبني عليه فالويل لي إن سألني والويل لي إن ناقشني والويل لي إن لم ألهم حجتي قال إنما أعني دين العباد قال إن ربي لم يأمرني بهذا أمر ربي أن أوحده وأطيع أمره فقال ﷻ:

﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴾ [الذاريات: ٥٦- ٥٨].

فقال له هذه ألف دينار خذها فأنفقها على عيالك وتَقَوَّ بها على عبادتك فقال: سبحان الله أنا أدلك على طريق النجاة وأنت تكافئني بمثل هذا؟ سلمك الله ووفقك.

ثم صمت فلم يكلمنا فخرجنا من عنده فلما صرنا على الباب قال هارون: أبا عباس إذا دللتني على رجل فدلني على مثل هذا، هذا سيد المسلمين.

فدخلت عليه امرأة من نسائه فقالت يا هذا قد ترى ما نحن فيه من ضيق الحال فلو قبلت هذا المال فتفرجنا به فقال لها مثلي ومثلكم كمثل قوم كان لهم بعير يأكلون من كسبه فلما كبر نحروه فأكلوا لحمه.

فلما سمع هارون هذا الكلام قال ندخل فعسى أن يقبل المال فلما علم الفضيل خرج فجلس في السطح على باب الغرفة فجاء هارون فجلس إلى جنبه فجعل

يكلمه فلا يجيبه فبينا نحن كذلك إذ خرجت جارية سوداء فقالت يا هذا قد آذيت الشيخ منذ الليلة فانصرف رحمك الله فانصرفنا.

➢ **ومن أقواله أيضاً:**

- يجيء في آخر الزمان أقوام يكونون إخوان العلانية أعداء السريرة.
- لم يتزين الناس بشيء أفضل من الصدق وطلب الحلال.
- ثلاث خصال يقسين القلب: كثرة الأكل، وكثرة الكلام، وكثرة النوم.

□ رابعاً - أبو يزيد البسطامي:

- وهو أبو يزيد طيفور بن عيسى بن سروشان - وكان سروشان مجوسياً فأسلم- وكان لعيسى ثلاثة أولاد: أبو يزيد وهو أوسطهم، وآدم، وهو أكبرهم، وعلي وهو أصغرهم، وكانوا كلهم عباداً زهاداً، أما أبو يزيد فكان أجلهم حالاً، وهو من أهل بسطام (بلدة بالقرب من نيسابور)، وتوفي فيها سنة (٢٦١هـ/٨٧٥م) وله ثلاث وسبعون سنة.

- وسئل أبو يزيد: بأي شيء وجدْتَ هذه المعرفة؟ فقال: ببطن جائع، وبدن عار.

- وقيل: لم يخرج أبو يزيد من الدنيا حتى استظهر القرآن كلّه.

- إبراهيم الهروي قال: سمعت أبا يزيد البسطامي يقول: غلطت في ابتدائي في أربعة أشياء: توهمت أني أذكره، وأعرفه، وأحبه، وأطلبه. فلما انتهيت رأيت ذكره سبق ذكري، ومعرفته تقدمت معرفتي، وطلبه لي أولاً حتى طلبته.

- قال منصور وسمعت أبا عمران موسى بن عيسى يقول: سمعت أبي يقول: قال أبو يزيد عملت في المجاهدة ثلاثين سنة فما وجدت شيئاً أشد عليَّ من العلم ومتابعته، ولولا اختلاف العلماء لتعبت، واختلاف العلماء رحمة إلا في تجريد التوحيد.

- سئل: أبو يزيد عن ابتدائه زهده، فقال: ليس للزهد مترلة. فقلت: لماذا؟ فقال: لأني كنت ثلاثة أيام في الزهد، فلما كان اليومُ الرابع خرجت منه: اليوم

الأول: زهدت في الدنيا وما فيها، واليوم الثاني: زهدت في الآخرة وما فيها، واليوم الثالث: زهدت فيما سوى الله، فلما كان اليوم الرابع لم يبق سوى الله.. فَهِمْتُ، فسمعت، هاتفاً يقول: يا أبا يزيد لا تقوى معنا. فقلت. هذا الذي أريده.

فسمعت قائلاً يقول: وَجدتَ، وجدت.

➢ من أقواله:

● لو نظرتم إلى رجل أُعطي من الكرامات حتى يرتقي في الهواء، فلا تغتروا به، حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهي، وحفظ الحدود، وأداء الشريعة.

● لا يعرف نفسه من صحبته شهوته.

● وقد سئل ما علامة العارف؟ قال: ألا يفتر من ذكره ولا يمل من حقه، ولا يستأنس بغيره.

● قال مخاطباً ربه: هذا فرحي بك وأنا أخافك، فكيف فرحي بك إذا أمنتك.

● اطلع الله على قلوب أوليائه، فمنهم من لم يكن يصلح لحمل المعرفة صرفاً، فأشغلهم بالعبادة.

● ليس العجب ممن لم يجد لذة الطاعة، إنما العجب ممن وجد لذتها ثم تركها كيف صبر عنها.

● لم أزل ثلاثين سنة كلما أردت أن أذكر الله أتمضمض وأغسل لساني إجلالاً لله أن أذكره.

● ما دام العبد يظن أن في الخلق من هو شر منه فهو متكبر.

● أشد المحجوبين عن الله ثلاثة بثلاثة، أولهم: الزاهد بزهده، والثاني: العابد بعبادته، والثالث: العالم بعلمه. ثم قال: مسكين الزاهد، لو علم أن الله ﷻ سمى الدنيا كلها قليلاً فكم ملك من الدنيا؟ وفي كم زهد مما ملك؟ وأما العابد فلو رأى

منَّةَ الله عليه في العبادة عرف عبادته في المنة، وأما العالم فلو علم أن جميع ما أبدى الله ﷻ من العلم سطراً واحداً من اللوح المحفوظ فكم علم هذا العالم من ذلك السطر؟ وكم عمل مما علم؟

● قعدت ليلة في محرابي فمددت رجلي فهتف بي هاتف من يجالس الملوك فينبغي أن يجالسهم بحسن الأدب.

● الناس كلهم يهربون من الحساب ويتحافون عنه، وأنا أسأل الله تعالى أن يحاسبني فقيل له: لم؟ قال: لعله أن يقول لي فيما بين ذلك: يا عبدي، فأقول: لبيك. فقوله لي: عبدي أحب إلي من الدنيا وما فيها. ثم بعد ذلك يفعل بي ما يشاء.

● قال لرجل سأله: دلني على عمل أتقرب به إلى ربي ﷻ؟ فقال: أحبب أولياء الله تعالى ليحبوك فإن الله تعالى ينظر إلى قلوب أوليائه فلعله أن ينظر إلى اسمك في قلب وليه فيغفر لك.

نظرت فإذا الناس في الدنيا متلذذون بالنكاح والطعام والشراب، وفي الآخرة بالمنكوح والملذوذ، فجعلت لذتي في الدنيا ذكر الله ﷻ وفي الآخرة النظر إلى الله ﷻ.

□ خامساً - محمد الغزالي:

- هو أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي الشافعي المعروف بالغزالي (زين الدين، حجة الإسلام) ولد بطوس سنة (٤٥٠هـ /١٠٥٨م) وتوفي سنة (٥٠٥هـ/١١١١م) أي عاش خمساً وخمسين سنة فقط، وعرف بالغزالي وقد تشدد الزاي نسبة إلى حرفة والده وهي غزل الصوف، وقد تخفف نسبة إلى قريته التي ولد بها (غزالة في نواحي طوس).

- وهو متكلم، فقيه، أصولي، صوفي مشارك في أنواع من العلوم، له نحو مائتي مصنف في هذه العلوم المتعددة أشهرها: (إحياء علوم الدين) و(تهافت الفلاسفة) و(محك النظر) و(معارج القدس في أحوال النفس) و(الفرق بين الصالح وغير الصالح)

و(مقاصد الفلاسفة) و(الوقف والابتداء) في التفسير، و(البسيط) في الفقه، و(المعارف العقلية)، و(المنقذ من الضلال)، و(بداية الهداية).

- مولده ووفاته في الطابران (إحدى مدينتي طوس بخراسان)، رحل إلى نيسابور ثم إلى بغداد فالحجاز فبلاد الشام فمصر وعاد إلى بلدته.

- ولقد كانت بيئته في طفولته وتربيته المترلية الأولى ذات أثر واضح في تكوينه فيما بعد.

- فقد ولد في أسرة فقيرة متدينة، وحينما أحس أبوه بقرب أجله عهد برعاية ولديه أبي حامد وأخيه الأصغر منه المسمى أحمد إلى أحد أصدقائه من الصوفية.

- وقد قام هذا الرجل بواجبه في الإشراف على تربيتهما وتعليمهما ثم نصحهما بالانتقال إلى نيسابور، وهناك طلب الغزالي الفقه لتحصيل القوت، ثم ارتحل إلى أبي نصر الإسماعيلي (وهو من كبار علماء زمانه) بجرجان (مدينة عظيمة مشهورة بقرب طبرستان)، ثم تم له الاتصال بإمام الحرمين (أبي المعالي الجويني)، فاشتغل عليه ولازمه، فظهر نبوغ الغزالي في فترة مبكرة، ثم جلس للإقراء، وحضر مجلس الوزير نظام الملك، فأقبل عليه نظام الملك، فعظمت مترلة الغزالي، وندب للتدريس في نظامية بغداد.

- وقد أصبح الغزالي من أعلام مذهب الشافعي في الفقه، وأحد أركان المدرسة الأشعرية، بالإضافة إلى تعمقه في الفلسفة والمنطق والأصول.

- ولم يجد فيها راحته القلبية حتى اجتمع بالإمام الزاهد المتصوف أبي علي الفضل بن علي الفارمذي الطوسي (من كبار رجال التصوف) فأقبل عليه وأخذ منه علم التصوف وأخذ يطالع كتب التصوف فتعرف على كنه مقاصدهم، ثم دخل مدخلهم، وذاق أحوالهم، وسار في طريقهم.

- ويتحدث الغزالي عن تجربته الصوفية في كتابه المنقذ من الضلال بعد أن فرغ من علوم الشريعة بكتاب الأربعين، وعلوم الفلسفة القديمة في كتاب مقاصد

الفلاسفة وكذلك التهافت يقول واصفاً التصوف والصوفية: (ثم إني لما فرغت من هذه العلوم أقبلت بهمتي على طريق الصوفية، وعلمت أن طريقتهم إنما تتم بعلم وعمل، وكان حاصل علومهم قطع عقبات النفس، والتنـــزُّه عن أخلاقها المذمومة وصفاتها الخبيثة، حتى يتوصل بها إلى تخلية القلب عن غير الله تعالى وتحليته بذكر الله.

وكان العلم أيسر علي من العمل، فابتدأت بتحصيل علمهم من مطالعة كتبهم مثل: قوت القلوب لأبي طالب المكي رحمه الله، وكتب الحارث المحاسبي، والمتفرقات المأثورة عن الجنيد والشبلي وأبي يزيد البسطامي قدس الله أرواحهم وغيرهم من المشايخ، حتى اطلعت على كنه مقاصدهم العلمية، وحصلت ما يمكن أن يحصل من طريقهم بالتعلم والسماع. فظهر لي أن أخص خواصهم، ما لا يمكن الوصول إليه بالتعلم بل بالذوق والحال وتبدل الصفات، فعلمت يقيناً أنهم أرباب أحوال لا أصحاب أقوال، والقدر الذي أذكره لينتفع به، هو أني علمت يقيناً أن الصوفية هم السالكون لطريق الله تعالى، وأن سيرتهم أحسن السير، وطريقهم أصوب الطرق، وأخلاقهم أزكى الأخلاق، بل لو جُمع عقل العقلاء، وحكمة الحكماء، وعلم الواقفين على أسرار الشرع من العلماء ليغيروا شيئاً من سيرهم وأخلاقهم ويبدلوه بما هو خير منه لم يجدوا إلى ذلك سبيلاً، وإن جميع حركاتهم وسكناتهم في ظاهرهم وباطنهم مقتبسة من نور مشكاة النبوة، وليس وراء نور النبوة على وجه الأرض نور يستضاء به، فأيقنت أنهم الفرقة الناجية.

وماذا يقول القائلون في طريقة أول شروطها: تطهير القلب بالكلية عما سوى الله تعالى، وعمادها ومفتاحها الجاري منها مجرى الإحرام في الصلاة: استغراق القلب بالكلية بذكر الله، وآخرها الفناء في الكلية بالله).

- ثم أقبل الغزالي على العبادة والسياحة، فخرج إلى الحجاز فحج، ورجع إلى دمشق فاستوطنها عشر سنين ثم سار إلى القدس والإسكندرية، ثم عاد إلى وطنه

بطوس، ثم إن الوزير فخر الدين ابن نظام الملك طلبه إلى نظامية نيسابور، فأجاب إلى ذلك، ثم عاد إلى وطنه، وابتنى إلى جواره خانقاه (داراً) للصوفية ومدرسة لهم.

- ومن أراد أن يتعرف على أقوال وأعمال هذا العالم الفاضل فعليه أن يرجع إلى مؤلفاته الكثيرة في شتى العلوم الإسلامية.

- هذا وإن الدارس لعصر هذا الإمام الفاضل، وما اشتهر به هذا العصر من انتشار الفلسفة الدخيلة على العالم الإسلامي التي كادت تؤثر على أفكار المسلمين وتحرفهم عن جادة الصواب يدرك السبب الذي دفع هذا المجدد إلى الرد على هؤلاء الفلاسفة بمؤلفاته المتعددة التي كانت سبباً في عودة المسلمين إلى جادة الصواب، والتمسك بتعاليم الإسلام النابعة من القرآن والسنة، فكان حقاً حجة الإسلام، وحجة المسلمين.

- ولابد لكل طالب علم في كل زمان ومكان أن تحتوي مكتبته كتابه الجامع للعلوم المتعددة (إحياء علوم الدين) الذي يجد فيه الطالب كل ما يحتاجه من نفائس علوم الدين المتعددة.

وأما في مجال التصوف فلقد أضاف الغزالي للفكر الإسلامي من خلال تصوفه تجديداً وتصويباً وتنويراً في علوم التصوف أذكر منها ما يلي:

١- أعاد للعبادة جانبها الروحي من خشوع ورهبة، بعد أن حولها بعض الفقهاء إلى مجرد طقوس شكلية.

٢- حبب التصوف للناس بإزالة ما لحق به من فكر دخيل، مع إثباته أن المكاشفة تصل إلى ما لم يصل إليه العقل.

٣- كان المتصوفة قد استكانوا إلى الحب الإلهي وأغراهم الاطمئنان فأدى بهم إلى التقصير، فأعاد الغزالي للتصوف الخوف من اللّه على طريقة الحسن البصري.

٤- فلسف العبادات بإظهار حكمة التشريع فصارت قراءة الفقه أكثر إمتاعاً من عرض الفقهاء له.

٥- رفض ما دخل في التصوف من تطرف وخروج عن تعاليم الشريعة بتأثير الفلسفات الغربية بالإضافة إلى ما دخله من شعوذة وسحر وهذيان لا قيمة له إلا في نظر العامة.

٦- التركيز على تطهير الباطن وتصفية القلب وعدم الانخداع بالمظاهر، والقشور لأن ذلك يؤدي إلى انتكاس النفس ووقوعها في الرياء.

-**وأخيراً**: كان اعتناق الغزالي لمذهب التصوف نصراً باهراً للصوفية، فأخذ أهل السنة من بعده بالتصوف السني النابع من القرآن والسنة والبعيد عن التطرف أو الخروج عن تعاليم الشريعة، والبعيد عن الشعوذة والسحر والهذيان، والتركيز على تطهير الباطن، وتصفية الباطن وعدم الانخداع بالمظاهر والقشور لأن ذلك يؤدي إلى انتكاس النفس في الرياء.

١- الطريقة النقشبندية.

٢- الطريقة القادرية.

٣- الطريقة الرفاعية.

٤- الطريقة الشاذلية.

الطرق الصوفية

- إن الدارس والمحقق في الطرق الصوفية يجد أن منشأ هذه الطرق كان على أيدي أئمة من كبار العلماء اشتهروا في زمانهم، وعرفوا بعلمهم الغزير، وإيمانهم العميق، وبرزوا بالشريعة والحقيقة والطريقة، وقد أخذ كلٌّ منهم طريقته وتربّى على يد عالمٍ سلك هذا الطريق، وهذا أخذ وتربّى على يد عالمٍ سلك هذا الطريق، وهكذا، إلى أن تصل هذه السلسلة إلى عهد التابعين ثم الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين، كما سنرى ذلك من خلال دراستنا لأهم هذه الطرق، وهي:

١- **الطريقة النقشبندية.**

٢- **الطريقة القادرية.**

٣- **الطريقة الرفاعية.**

٤- **الطريقة الشاذلية.**

- والمقصود بالطرق الصوفية ليس فقط طريقة الذكر وما يتعلق به من هيئات وكيفيات وأوراد وأذكار متعددة، وإنما المقصود من الطرق الصوفية الطرق التي مؤداها علم بالشريعة، وتنور بالحقيقة، وسلوك تام مطابق لهما، ويتحقق ذلك من خلال ما يقوم به شيخ الطريقة من تربية لمريديه بأساليب متعددة فحين يحصل اللقاء الجامع بين الشيخ ومريديه يقوم الشيخ في هذا اللقاء بتفسير آية أو شرح حديث، ثم يتم التعليق على الآية أو الحديث بما أفاض الله على هذا الشيخ المربي من مواعظ وقصص وعبر وحكم وأمثال، مما يؤثر ذلك في سلوك المريدين وتغيير أحوالهم بما يتناسب مع الشريعة والحقيقة والسلوك، ثم بعد هذا الدرس النظري يكون هناك درس عملي جماعي يمارس فيه ذكر الله ﷻ.

- يبتدئ هذا الدرس بقراءة عشر من القرآن الكريم، ثم التوجه إلى الله ﷻ بالاستغفار، ثم قراءة سورة الفاتحة وسورة الإخلاص وسورتي المعوذتين وسورة الانشراح، ثم الصلاة على النبي ﷺ بصيغ متعددة وبعدد محدود ثم الابتداء بذكر الله ﷻ إما باسمه الأعظم (الله) أو بصفاته (لا إله إلا الله) أو بتسبيحه أو تحميده أو تكبيره أو بأذكار أخرى مستمدة من القرآن والسنة.

- ويختم المجلس بقراءة عشر من القرآن والصلاة على النبي العدنان ﷺ والدعاء.

- كل ذلك في جو إيماني يغسل النفوس، ويزيل الهموم، وينور القلوب، ويشرح الصدور، ويزيد في الإيمان.

- وأئمة هذه الطرق ظهروا ما بين القرنين السادس والثامن، فكانوا قريبي عهد بالسلف الصالح، حرصوا أشد الحرص على الاستفادة منهم والتمسك بما تمسكوا به من تعاليم القرآن والسنة، مبتعدين عن كل بدعة تُبعِدُ عن الدين وكل ضلالة تؤدي إلى النار.

- ثم انتشرت هذه الطرق في بلاد العالم، وتعددت أسماؤها حسب أسماء شيوخها، وإن وجد في بعضها شيء من البدع التي تخالف الشرع، فإنما هي بدعٌ ظهرت من المريدين الذين لم يتمسكوا بحقائق الطريقة، فالخطأ منهم لا من الطريقة.

- ومن أخذ بطرقهم فعليه أن يتمسك بحقيقة هذه الطريقة وجوهرها، وأن يبتعد عن كل بدعة يراها مخالفة للقرآن والسنة، وأن يعرف أن هذه البدع من زيادة بعض المريدين لا من أصل هذه الطريقة.

◻ الطريقة النقشبندية:

- تنسب هذه الطريقة إلى الخليفة الراشدي الأول سيدنا أبي بكر الصديق ﷺ إذ كان يعدُّه - أصحاب هذه الطريقة - المؤسس الأول، وهم بذلك يرجعونها إلى الرسول ﷺ.

- وقد استقت هذه الطريقة مبادئها وأسسها التي ميزتها عن بقية الطرق الصوفية بفضل تعاليم أربع شخصيات:

أولاً- الصحابي الجليل سلمان الفارسي: (ت٣٦هـ/٦٥٦م).

ثانياً - أبو يزيد طيفور البسطامي واسمه طيفور بن عيسى بن آدم بن سروشان: ولد في خرسان (ت٢٤٦هـ/٨٧٧م) ولم يعرف مكان دفنه.

ثالثاً - عبد الخالق الغجدواني: (ت. ٥٧٥هـ/١١٧٩م) ولد بقرية غجدوان القريبة من بخارى ونشأ بها وتوفي ودفن بها أيضاً، وهو الذي وضع (الختم) النقشبندي أي طريقة الذكر، ومن المعلوم أن النقشبندية يولون أهمية كبرى لهذا الختم.

رابعاً- محمد بهاء الدين النقشبندي الأويسي البخاري المعروف بشاه نقشبند: وهو شيخ هذه الطريقة بلا منازع والتي أخذت اسمها من اسمه فأصبحت تعرف بالنقشبندية: ولد (٧١٧هـ/١٣١٧م) بقصر العارفان وهو قرية بالقرب من بخارى أصبح الشيخ محمد بابا السماسي والشيخ الأمير كلال، وقد اقتصر الذكر على الذكر الخفي وهذا النوع من الذكر أهم ما يميز الطريقة النقشبندية عن سواها من الطرق الصوفية توفي ليلة الاثنين ثالث شهر ربيع الأول (٧٩١هـ/١٣٨٨م) ودفن في بستانه كما أوصى.

- ومن آثاره عدة رسائل:

١- الأوراد البهائية وقد قام أتباع الشيخ بشرحها وتسميتها منبع الأسرار.

٢- تنبيه الغافلين.

٣- سلك الأنوار.

٤- هدية السالكين وتحفة الطالبين.

- كما اشتهر بنظم بعض الأبيات الحكمية بالفارسية قام مريدوه بتعريبها منها: (الحدائق الوردية في حقائق أجلاء النقشبندية، عبد المجيد الخاني ص١٣١)

أتينـــاك بـــالفقر لا بـــالغنى وأنت الـــذي لم تـــزل محـــسنا

من كان ذا عقل تبرأ من فـــتى يؤخر فعل اليوم منـــه إلى غـــد

- وقد كان زاهداً متقشفاً حريصاً على الكسب الحلال فكان يأكل خبز الشعير الذي يزرعه بنفسه، وكان يلبس جبة من الصوف، وكان محباً للفقراء يصنع لهم الطعام بيده، ويخدمهم ويواسيهم لذلك أحبه الجميع واعترفوا بفضله.

(المصدر السابق ص١٣٥)

- وقد عرفت الطريقة النقشبندية منذ نشأتها حتى الآن بعدة أسماء:

١- فمن عهد أبي بكر ﷺ حتى أبي يزيد البسطامي كانت تسمى **صديقية**.

٢- ومن عهد أبي يزيد حتى عبد الخالق الغجدواني كانت تسمى **طيفورية** نسبة للاسم الأول لأبي يزيد.

٣- ومن الغجدواني إلى محمد بهاء الدين كانت تسمى **خواجكانية** نسبة إلى ختم (ذكر) الخواجكان الذي أدخله الغجدواني.

٤- ومن محمد بهاد الدين إلى الآن أصبحت تعرف بالنقشبندية، وهي كلمة مؤلفة من جزءين: (**نقش** وهو الحفر، و**بند** أي القلب ومعناه ربط وبقاء من غير محو فالكلمة تشير إلى تأثير الذكر في القلب وانطباعه فيه).

(الحديقة الندية، محمد سليمان)

(يرى النقشبندية أن طريقتهم أقرب الطرق وأسهلها على المريد للوصول إلى درجة التوحيد وهي طريقة الصحابة على أصلها لم تزد و لم تنقص فهي تدعو إلى العبودية التامة ظاهراً وباطناً مع الالتزام التام بآداب السنة النبوية وهي تحض على العزائم وتجنب الرخص في جميع الحركات والسكنات في العادات والعبادات والمعاملات، كما أنها متحررة من الابتداع والانحرافات والشطحات والرقص وسفاسف السماع وليس فيها كثرة الجوع وكثرة السهر، وبالتالي فإنها سليمة من كدرات جهلة المتصوفة، لأنها ملتزمة بآداب الشريعة التي تحث على الاعتدال وفضيلة الوسط). (جامع الأصول، الكمشخالني ص١٣٦)

(ومدار الطريقة عندهم يقوم على:

أولاً- التحقق بكمال الإيمان بالله ورسوله، وبما جاء به الرسول ﷺ بحيث تظهر نورانية تلك الحقيقة في جميع أعضاء المريد، ولا يتسنى ذلك إلا بملازمة طاعة الله ﷻ، وابتغاء مرضاته، ومتابعة الرسول ﷺ، ومخالفة النفس الأمارة.

ثانياً - التحقق بكمال الإسلام المعبر عنه بالتزام العبد بجميع الأحكام الشرعية مع إظهار العجز والافتقار والذل والانكسار والتسليم من حيث الظاهر والباطن، ولا يحصل كمال الإسلام إلا بمجاهدة النفس وبأن تتبّع السنة النبوية، وتعمل بالعزيمة، وتتجنب الرخصة.

ثالثاً: التحقق بكمال الإحسان أي تصفية العمل من طلب عوض أو قصد غرض أو رياء، وبكلمة هي الإخلاص أي أن يكون العمل خالصاً لوجه الله ﷻ).

(بغية الواجد، أسعد صاحب ص٢٥)

- (وللطريقة النقشبندية قدم راسخة في إنقاذ البشر من عالم الشرور لما فيها من التعاليم العالية، فغايتها تهذيب النفوس، وإيصالها إلى الماهية الغالية من الإيمان).

(منحة الرحمن، عبد الله الدهلوي ص٣١)

- وبالجملة فهي: (أم الطرائق ومعدن الأسرار الصديقية والحقائق، وهي الطريق الأقرب الأسلم الأحكم الأوضح، والمشرب الأعلى الأصفى المصون عن قدح كل قادح). (الحديقة الندية، محمد سليمان ص١٧)

- وقد انتشرت هذه الطريقة في أنحاء العالم الإسلامي كله، وإليها ينتسب كثيرٌ من العلماء المشهورين في هذا العالم ومن أشهرهم في بلاد الشام: الشيخ عيسى الكردي وتلامذته ومنهم الشيخ محمد أمين الكردي الزملكاني، والشيخ محمد أمين كفتارو، ثم الشيخ أحمد كفتارو رحمهم الله.

□ الطريقة القادرية:

- مؤسس الطريقة القادرية الشيخ عبد القادر الجيلاني، وهو محيي الدين عبد القادر بن أبي صالح موسى بن عبد الله بن يحيى الزاهد بن محمد بن داود بن موسى الجون بن عبد الله المحض بن الحسن المثنى بن الحسن بن علي بن أبي طالب ﷺ، أمه: أم الخير فاطمة بنت الشيخ عبد الله الصومعي الحسيني الزاهد فهو حسني من جهة الأب حسيني من جهة الأم.

- (ولد الشيخ عبد القادر عام (٤٧٤هـ/١٠٧٧م) في جيلان أو كيلان فعرف بالجيلاني أو الكيلاني، وجيلان إقليم فارسي يقع في الجنوب الغربي لبحر قزوين اشتق اسمها من الجيالي بمعنى الوحل، وذلك لكثرة المستنقعات التي تغمر الإقليم).

(القاموس الإسلامي، أحمد عطية الله)

- ظل الشيخ عبد القادر في بلدته جيلان ثمانية عشر عاماً تلقى فيها بعض مبادئ العلوم الشرعية فقصد بغداد حيث كانت عنواناً لحضارة علمية، فكانت مجمعاً للعلماء والفلاسفة، ومركزاً للفقهاء والعلماء والمحدثين، ومنتدى للشعراء والكتاب وأصحاب التراجم والسير والتاريخ، ومحراباً للزهاد والصوفية، أمضى الشيخ عبد القادر في بغداد أكثر من سبعين سنة عاصر خلالها خمسة من الخلفاء العباسيين وهم

المستظهر بأمر الله والمسترشد والراشد والمقتفي لأمر الله والمستنجد بالله، هذه الفترة التي كانت ملأى بالحوادث الخطيرة حيث كان الصراع عنيفاً بين الخلفاء العباسيين وبين سلاطين آل سلجوق الذين كانوا يطمحون إلى بسط نفوذهم وسيطرتهم على الدولة العباسية، وكثر في هذا الوقت حب الدنيا، والتكالب على شهواتها وزخارفها وسيطر النفاق والحقد، والغل والحسد، والكراهية والبغضاء، إلى غير ذلك من الآفات والمفاسد الاجتماعية.

- فلما رأى الشيخ عبد القادر هذه الانحرافات، وأدرك أن هذه الأمة بحاجة ملحة إلى دعوة دينية تخفف من الغلو في حب الدنيا، والشغف بلذاتها، والإقبال على مظاهرها، وتوقظ في النفوس روح الإيمان، وتثير عقيدة الآخرة، وتدعو إلى تحريك القلوب حباً لله وحده وحنيناً إليه وطلباً لرضوانه.

- ومن أجل أن يحقق الشيخ عبد القادر هذه الأهداف أقبل على طلب العلم بهمة عالية وحرص شديد فكان يتعلم في اليوم ما يتعلمه أقرانه في أسبوع فأتقن العلوم السائدة في عصره على مشاهير مشايخ بغداد آنذاك، فحصل علوم القرآن والأصول والفروع وعلم الحديث وقرأ الأدب وأخذ علوم التصوف عن الشيخ حماد بن مسلم الدباس وعن القاضي ابن سعيد المخرمي الذي له سلسلة من المشايخ تصله بالشبلي فالجنيد فالسري السقطي فمعروف الكرخي فداود الطائي فحبيب العجمي فالحسن البصري فأمير المؤمنين علي بن أبي طالب، ثم حبب إليه شيخه حماد الدباس المجاهدات والرياضات، كان هذا الشيخ قدوة لمشايخ بغداد، فقام الشيخ عبد القادر بهذه المجاهدات والرياضات حتى صفا قلبه، ونال مراده، ومالت نفسه إلى إرشاد الخلق إلى الحق ﷻ فسلمه شيخه أبو سعيد مدرسته بباب الأزج ببغداد، فقام الشيخ عبد القادر بالمهمة خير قيام ولاقى قبولاً منقطع النظير من جماهير بغداد، وأقبل عليه الناس من كل حدب وصوب حتى أن المدرسة ضاقت بهم، فقام الأغنياء منهم بشراء الدور والأماكن المجاورة وتمت توسعتها، وما لبثت أن نسبة إليه.

- (وتصدر بها للتدريس والاجتهاد في الوعظ مع الاجتهاد في العلم والعمل وجمع الله قلوب عباده على حبه، وألهج ألسنهم بالثناء عليه، وانتهت إليه رئاسة العلم والتربية والإصلاح والإرشاد والدعوة إلى الله ﷻ بالعراق، وقصده الناس من الآفاق، وكان يحضر مجالسه في بعض الأحيان الخليفة والملوك والوزراء، فيجلسون متأدبين خاشعين أما العلماء والفقهاء، فلا يأتي عليهم حصر، وقد عد في بعض مجالسه أربعمائة محبرة). (رجال الفكر، الندوي ص٢٥٤)

- (في هذه المجالس كان الشيخ يدرس التفسير والحديث والمذهب والخلاف والأصول والنحو ويقرأ القرآن بالقراءات وكان يفتي على مذهبي الإمامين (الشافعي وأحمد بن حنبل) وكانت فتواه تعرض على علماء العراق فتعجبهم).

(الطبقات الكبرى الشعراني جزء١ ص١٢٧)

- (كان الشيخ عبد القادر يبدأ درسه بذكر آية قرآنية في موضوع معين ثم يورد الأحاديث النبوية التي تعين على فهمها، ثم يذكر أقوال السلف الصالح في تفسيرها ثم يدلي بدلوه في هذا الموضوع بما يثير إعجاب الجماهير ويبث فيهم روح الإيمان ونور اليقين فيتوب على يديه ألوف العصاة والمذنبين ويسلم الكثير من اليهود والنصارى). (قلائد الجواهر، محمد التادفي الحنبلي ص٦)

- توفي الشيخ عبد القادر في بغداد في رمضان سنة ٥٦١هـ تموز ١١٦٧م، وقد جاوز التسعين وقبيل وفاته سأله ابنه عبد الوهاب النصيحة فقال: (عليك بتقوى الله، ولا تخف أحداً سوى الله، ولا ترجو أحداً سوى الله، وكل الحوائج إلى الله، ولا تعتمد إلا عليه، واطلبها جميعاً منه، ولا تثق بأحدٍ سوى الله).

(فتوح الغيب على هامش قلائد الجواهر، عبد القادر الجيلاني ص١٣٠)

- وقد صلى عليه ولده عبد الوهاب مع إخوته وحشد كبير من تلامذته ومريديه وأصحابه، ثم دفن برواق مدرسته بباب الأزج ببغداد.

- (ثم ما لم لبث أن تحول ضريحه إلى زوايا عظيمة لتخريج رجالات القادرية، أخذ من توالى على حكم بغداد في توسعة هذه الزوايا والعناية في تزيينها وزخرفتها حتى أضحت مزاراً ومعلماً من مزارات بغداد ومشاهدها).

(أسعد صاحب في بغية الواجد ص٢٠٩)

- ترك الشيخ عبد القادر عدة مؤلفات تمتاز بالدقة العلمية، والفهم السليم لمرامي الشريعة الإسلامية والتحليل العميق لمشاكل المسلمين في عصره، وأشهر هذه المؤلفات:

١- الغنية لطالبي الحق ﷻ.

٢- الفتح الرباني والفيض الرحماني، ويضمُّ المواعظ التي كان يلقيها على تلامذته في مدرسته ببغداد.

٣- فتوح الغيب مطبوع على هامش قلائد الجواهر للتاد.

٤- الفيوضات الربانية في المآثر والأوراد القادرية، جمع الشيخ محمد سعيد القادري.

- (اشتهر الشيخ عبد القادر بحسن أخلاقه وعلو همته وتواضعه لله تعالى وسخائه وكرمه وإيثاره، وكان يجالس الفقراء ويؤاكلهم ويحنو عليهم، كان يحفظ الود، ويتجاوز عن السيئات، ويتفقد من غاب من تلامذته، ويسأل عنهم).

(رجال الفكر، الندوي ص٢٥٥)

- (ومن تواضعه انه كان يقف للصغير والجارية وذلك مع جلالة قدره وعلو منزلته، وبالمقابل لم يكن ليقف بباب وزير أو سلطان طلباً لدنيا أو سعياً وراء جاه أو منفعة). (التصوف في الإسلام، عمر فروخ ص٧٩)

- (وكان حنبلي المذهب لكنه لم يكن متعصباً لأن همه الأوحد الوصول إلى الله سبحانه وتعالى ونيل رضوانه، فكان يقول: اترك التعصب في المذهب واشتغل بشيء ينفعك في الدنيا والآخرة). (الفتح الرباني، الجيلاني ص٢٣)

- يصفه العالم ابن رجب الحنبلي فيقول: (شيخ العصر، وقدوة العارفين، وسلطان المشايخ، وسيد أهل الطريقة في وقته، صاحب المقامات والكرامات، والعلوم والمعارف، والأحوال المشهورة). (الذيل، ابن رجب جزء١، ص٢٠٥)

- ويصفه ابن السمعاني: (إمام الحنابلة وشيخهم في عصره، فقيه، صالح، دينٌ، خيرٌ، كثير الذكر، دائم الفكر، سريع الدمعة). (المصدر نفسه والصفحة نفسها)

- وقال عنه ابن حجر العسقلاني الشافعي: (كان فقيهاً، زاهداً، عابداً، يتكلم إلى الناس ويرغبهم في الزهد والتوبة، ويحذرهم من العقوبة على المعصية، فكان يتوب على يده من الخلق ما لا يحصى كثرته، وله كرامات مستفيضة).

(قلائد الجواهر، محمد التادفي الحنبلي ص١٣٥)

- كما وصفه الإمام النووي بالعبارات التالية: (جميل الصفات، شريف الأخلاق، كامل الأدب والمروءة، كثير التواضع، دائم البشر، وافر العلم والعقل، شديد الاقتفاء لكلام الشرع وأحكامه، معظماً لأهل العلم، مكرماً لأرباب الدين والسنة، مبغضاً لأهل البدعة والأهواء، محباً لمريدي الحق مع دوام المجاهدة ولزوم المراقبة إلى الموت، وكان له كلام عال في علوم المعارف، سخي الكف، كريم النفس على أجمل طريقة). (المصدر نفسه: ص١٣٨)

- وضع الشيخ عبد القادر الجيلاني رحمه الله الأسس والمبادئ للتربية الروحية، ووضع بعض الصلوات والأدعية والأوراد ليرددها السالكون، وهي جميعاً مستمدة من كتاب الله ﷻ ومن سنة رسول الله ﷺ، فالشيخ عبد القادر من الصوفية المعتدلين الذين كرسوا حياتهم للدعوة والإيمان، وترك الفسوق والعصيان، والإقبال على الله ﷻ لنيل رضاه، ولم يطلب من مريديه ولا تلاميذه استعمال الآلات الموسيقية وضرب الشيش وأكل الحمر خلال حلقات الذكر، فهذه الأمور من البدع التي أدخلها بعض المريدين بعد وفاة الشيخ.

- ولقد دعا الشيخ عبد القادر رحمه الله إلى اتحاد القول والفعل ومعانقة الإخلاص وتفويض الأمر لله والرضا بقضائه وموافقة الكتاب والسنة في كل حال ووارد وخطرة، وفي ذلك يقول:

(اتبعوا ولا تبتدعوا، وأطيعوا ولا تخالفوا، واصبروا ولا تجزعوا، واثبتوا ولا تمزقوا، وانتظروا ولا تيأسوا، واجتمعوا على الأمر ولا تفرقوا، وانتبهوا من الذنوب ولا تتلطخوا، وعن باب مولاكم لا تبرحوا). (الطبقات الكبرى، الشعراني جزء١ص١٢٩)

- (ولقد رأى أن المعروف هو كل ما وافق الكتاب والسنة والعقل، وأن المنكر هو ما خالف هذه المصادر). (الغنية، الجيلاني جزء١، ص٤٧)

□ الطريقة الرفاعية:

- (مؤسس هذه الطريقة الشيخ أحمد الرفاعي، وهو أبو العباس أحمد بن أبي الحسن علي بن يحيى بن ثابت بن حازم بن أحمد بن علي بن رفاعة الرفاعي الحسيني البطائحي المغربي أصلاً الشافعي مذهباً، ورفاعة هذا اسمه حسن المكي ولقبه رفاعة، هاجر من مكة إلى المغرب عام (٣١٧هـ/٩٢٩م) وهي السنة التي قتل فيها القرامطة أمير مكة وقاموا بنهب وهدم أجزاء من الكعبة المشرفة، وينتهي نسب رفاعة إلى الحسين بن علي بن أبي طالب.

- التحق رفاعة بإحدى القبائل العربية بالقرب من إشبيليه بالأندلس، وظل أولاده يتناسلون هناك إلى عهد يحيى جد الشيخ أحمد، فكان يحيى أول قادم من هذه الأسرة إلى العراق حيث وصل البصرة عام (٤٥٤هـ/١٠٥٨م)، وقد اشتهر بالزهد، وعلوّ الهمة، تزوج بنت الشيخ حسن النجاري وولد له علي أبو الحسن والد الرفاعي).

- في عام (٥٠٠هـ/١١٠٦م) ولد أحمد الرفاعي في قرية حسن بالبطائح بالقرب من واسط بالعراق، وفي السابعة من عمره توفي والده ببغداد فكفله خاله الشيخ منصور البطائحي، وقد درس القرآن وحفظه ورتله على الشيخ عبد السميع

الحربوني، ثم انتقل مع والدته وإخوته وخاله إلى قرية نهر دقلي حيث تتلمذ على الشيخ أبي الفضل علي القارئ الواسطي (وهو من كبار المتصوفة وعلماء زمانه) الذي قام بتربيته وتأديبه وتعليمه، كما تلقى الفقه على المذهب الشافعي عن الشيخ عبد الملك الحربوني (فقيه زمانه).

- وفي العشرين من عمره أجازه الشيخ أبو الفضل بعلوم الشريعة والطريقة ولقبه بأبي العلمين (الظاهر والباطن).

- (وفي الثامنة والعشرين من عمره سلمه خاله منصور مشيخة رواق (أم عَبيدة) -وكانت زمن الرفاعي مأهولة بالسكان وموقعها في البطحاء قرب قضاء الرفاعي من محافظة الناصرية بالعراق- فامتثل أوامر خاله، وأقام في تلك القرية، أخذ بالإرشاد، فكان يقرأ في كل يوم صباحاً ومساءً دروس الفقه والتفسير والحديث والعقائد، كما كان يعظ الناس كل اثنين وخميس بعد صلاة الظهر حيث كان يقبل على مجالس وعظه الجم الغفير من الناس). (البرهان المؤيد، أحمد الرفاعي ص٤)

- وكان إذا جلس على كرسيه في الدرس أحاطت به أئمة العلماء وفحول الخطباء والمرشدون والكثير من الخواص والعوام، فإذا أخذ بالتحدث جرى العلم على لسانه كالبحر المتدفق فيذهل العارفين ببلاغته وسعة علمه، ويخرس الجامدين والمارقين بقوة حججه، فالأدباء تأخذ نصيبها من فصاحته، والعلماء من معارفه، والفلاسفة من تحقيقه وحكمه.

- وكان الرفاعي يقرأ القرآن ويجوده على أحسن وجه، وقد أتقن هذا الفن على شيخه علي القارئ الواسطي، وكان الرفاعي في شبابه يتجنب الأقران منصرفاً إلى رياضة الذكر ومجاهد النفس وترويضها حتى تترقى في مقامات الطريق (حتى انتهت إليه الرئاسة في علوم الطريق وشرح أحوال القوم وكشف مشكلات منازلاتهم، فتخرج بصحبته الجمع الكثير وأثنى عليه العارفون، وقدمه السالكون).

(سماع وشراب عند أشرف الأقطاب، عبد الحكيم عبد الباسط ص٣٠)

- (وفي عام ٥٥٥هـ/ ١١٥٦م قام الرفاعي بأداء فريضة الحج مع جموع غفيرة من مريديه، ومما يذكره الرواة أنه وقف تجاه قبر الرسول ﷺ وقال: السلام عليك يا جدي وأنشد:

في حالة البعد روحي كنت أرسلها ... تقبل الأرض عني فهي نائبتي
وهذه دولة الأشباح قد حضرت ... فامدد يمينك قد تحظى بها شفتي)

(العقد النضيض في آداب الشيخ والمريد، أبو الهدى الصيادي ص٤٥)

- وقد قيل أنه حدثت له حالة روحية شعر بها أن النبي قد أخرج يده فقبلها.

- (مرض الشيخ أحمد الرفاعي مرضاً في بطنه استمر نحو شهر ثم توفي في الثاني عشر من جمادى الأولى عام ٥٧٨هـ/١١٨٢م، ودفن بأم عبيدة في قبة جده لأمه).(سواد العينين، الرافعي ص٨٣)

- وكان يوم وفاته مشهوداً إذ احتشدت الجموع لتشييعه من كل المدن والقرى وبلغت مراثيه أكثر من ألف قصيدة، وقد ترك الشيخ الرفاعي رحمه الله مؤلفات كثيرة ومتنوعة فقد معظمها إبان هجوم التتار على العراق وتدميرهم للحضارة الإسلامية بالعراق، وأشهر ما بقي منها:

١- البرهان المؤيد: وهو عبارة عن مجالس وعظه، وقد جمعه ودونه تلميذه شرف الدين بن الشيخ عبد السميع الواصد، وهو من الكتب المهمة في بيان أصول الطريق الرفاعية.

٢- حالة أهل الحقيقة مع الله: ويتضمن أربعين مجلساً في كل خميس مجلس، ويبدأ الرفاعي مجلسه بذكر حديث نبوي ثم يأخذ في شرحه بما أوتي من علوم الصوفية وأقوالهم مستشهداً بالآيات القرآنية.

٣- المصباح المنير في ورد السيد الرفاعي الكبير.

٤- السر المصون وهو حزب الرفاعي.

٥- معاني بسم الله الرحمن الرحيم.

٦- تفسير سورة القدر.

٧- الطريق إلى الله.

- ومن أهم مصنفاته المفقودة: شرحه لكتاب التنبيه لأبي إسحاق الشيرازي في فروع الفقه الشافعي، وقد شرحه الرفاعي في ستة مجلدات كبيرة.

- (ولم يسلم الرفاعي من الدس، فقد تجرأت جماعة من الخارجين عن تعاليمه فوضعت كتاب الفتح المبين، وزعمت أنه من مواعظ الرفاعي وكلماته المأثورة، وقد ذكروا فيه أقوالاً لا يمكن أن تصدر عن شيخ ملتزم بأوامر الشرع محارب للشطحات والبدع، وقد حرص المنصفون من المترجمين لحياة الرفاعي على نبذها وإهمالها).

(التاريخ الأوحد، أبو الهدى الصيادي ص٨٤)

- فقد ذكر الإمام أحمد الرفاعي تحت عنوان الرقص والسماع ما يلي: (إيش أعمل بالسماع الذي يرقص فيه الراقص بغير قلب، ونجاسة النفس لطخته، كيف يحسب برقصه ونقصه من الذاكرين؟

ورُبَّ تالٍ تلا القــرآن مجتهــداً بين الخلائــق والقــرآن يلعنــه

- ثم قال: سمى القوم الهز بالذكر: رقصاً أن وارد الهزة من الروح، فنسبوا الرقص للروح لا للجسم، وإلا فأين الراقصون؟ وأين الذاكرون؟ طلبُ هؤلاء حق وطلب هؤلاء ضلال.

سارت مشرقة وسرت مغربــاً شتان بــين مــشرق ومغــرب

الراقصون كذابون، والذاكرون مذكورون (أي مذكرون عند الله تعالى الذي يقول: ﴿فَاذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ﴾) بين الملعون والمحبوب بون عظيم، إذا دخلتم مجالس الذكر فراقبوا المذكور، واسمعوا بأذن واعية). (مجموع الفتاوى جزء ٢ ص٢٢٣)

- (أخذ الرفاعي الإجازة في التصوف من شيخه علي القارئ الواسطي وهو من ابن كامخ الواسطي، وهو من علي بن تركان، وهو من أبي علي الروذباري، وهو من علي العجمي، وهو من أبي بكر الشبلي، وهو من أبي القاسم الجنيد البغدادي، وهو من خاله السريّ السقطي، وهو من أبي محفوظ معروف الكرخي، وهو من داود الطائي، وهو من حبيب العجمي، وهو من الحسن البصري، وهو من الإمام علي بن أبي طالب، وهو من النبي ﷺ). (أحمد الرفاعي: البرهان المؤيد ص٧٠)

- (وقد تأسى الشيخ أحمد الرفاعي رحمه الله بالرسول الكريم ﷺ، فأخذ عنه الأخلاق الحميدة والصفات الرحيمة فقد كان رحمه الله هيناً ليناً، حسن الخَلق، كريم الخُلق حلو المكالمة لطيف المعاشرة لا يمله جليسه حمولاً للأذى وفياً إذا عاهد جواداً من غير إسراف متواضعاً من غير ذلة كاظماً للغيظ من غير حقد أعلم أهل عصره بكتاب الله وسنة رسوله.

وكان يعود المرضى، ويغسل ثيابهم، ويحمل إليهم الطعام، ويأكل معهم ويجالسهم ويسألهم الدعاء، وكان يخرج إلى الطريق ينتظر العميان حتى إذا جاؤوا أخذ بأيديهم، وكان يعطف على المسنين ويوصي بهم خيراً، وكان يعفو ويصفح عمن يسيء إليه). (الطبقات الكبرى، الشعراني جزء١ ص٤٣)

◻ الطريقة الشاذلية:

- تنسب هذه الطريقة إلى مؤسسها الشيخ علي بن عبد الله أبي الحسن الشاذلي الحسني، ولد ببلدة غمارة القريبة من مدينة سبتة بالمغرب الأقصى عام (٥٩٣هـ-١١٩٦م) درس ببلدته العلوم الدينية فبرع فيها، ثم أخذت نفسه تتوق إلى التعمق في المعارف والعلوم والكشوفات، فبدأ التفتيش على شيخ خبير بمعالم الطريق، ولما كانت بغداد آنذاك مركز الحضارة الإسلامية فقد قصدها أبو الحسن عله يجد فيها ضالته المنشودة، وهناك التقى بمشاهير علمائها وأوليائها لا سيما أبي الفتح الواسطي

الذي قال فيه أبو الحسن: (لما دخلت العراق اجتمعت بالشيخ الصالح أبي الفتح الواسطي فما رأيت بالعراق مثله).

(المدرسة الشاذلية وإمامها أبو الحسن، عبد الحليم محمود ص٢٢)

- ولما أسرَّ أبو الحسن للواسطي بالهدف من حضوره للعراق أشار عليه بالعودة إلى بلاد المغرب للسلوك على الشيخ أبي محمد عبد السلام بن مشيش (وهو صوفي مشهور في المغرب العربي)، فرجع أبو الحسن إلى المغرب حيث اتصل بابن مشيش وفي ذلك يقول: (لما قدمت عليه، وهو ساكن مغارة برباطه في رأس الجبل، اغتسلت في عين في أسفل الجبل وخرجت عن علمي وعملي، وطلعت إليه فقيراً، وإذا به هابطٌ علي فلما رآني قال: مرحبا بعلي بن عبد الله... وذكر لي نسبي إلى الرسول ﷺ ثم قال: يا علي طلعت إلينا فقيراً عن علمك وعملك وستأخذ منا غنى الدنيا والآخرة، فأخذني منه الدهش، وأقمت عنده أياماً إلى أن فتح الله على بصيرتي، ورأيت لها خرق عادات من كرامات وغيرها).

(الأنوار القدسية، محمد المدني ص٣١)

- وقد ساعده الشيخ ابن مشيش على اجتياز عقبات الطريق وما فيها من مقامات وأحوال بسهولة ويسر، كما زوده بالعديد من الوصايا التي بهرته وجعلته يقبل على التمسك بالشريعة والفناء في محبة الله سبحانه وتعالى، ولعل أهمها الوصية الجامعة التالية: (لا تنقل قدميك إلا حيث ترجو ثواب الله ﷻ، ولا تجلس إلا حيث تأمن من معصية الله ﷻ، ولا تصحب إلا من تستعين به على طاعة الله ﷻ، ولا تصطفي لنفسك إلا من تزداد به يقيناً). (الصوفية في إلهامهم، حسن الملطاوي ص١٨٨)

- وبعد أن أمضى أبو الحسن مدة في الأخذ عن الشيخ ابن مشيش أمره شيخه بالرحيل إلى بلدة شاذلة أولاً، ثم إلى تونس فالمشرق العربي طالباً منه الصبر على ما سيصادفه من محن وابتلاءات، وقد أوصاه بتنـــزيه لسانه عن ذكر الناس، وقلبه عن

عبادة أصنامهم وتماثيلهم، ودعاه إلى حفظ الجوارح وأداء الفرائض وتذكير الناس بحقوق المولى عليهم، كما أمره بتلاوة الدعاء التالي: (اللهم أرحني من ذكر الناس، ومن العوارض من قبلهم، ونجني من شرهم، وأَغْنِني بخيرك عن خيرهم، وتولني بالخصوصية من بينهم). (المدرسة الشاذلية، عبد الحليم محمود ص٢٦)

- ارتحل أبو الحسن إلى بلدة شاذلة القريبة من تونس فعرف من ذلك الحين بالشاذلي، وعرفت طريقته الصوفية بالشاذلية.

- (اختلى الشاذلي مدة في جبل الزعفران القريب من شاذلة، يجاهد النفس في مغارة بأعلى الجبل). (الأنوار القدسية، محمد المدني ص٢٧)

- في هذه المغارة كان الشاذلي يتضرع إلى ربه يحدوه الشوق والمحبة، ويعمر قلبه اليقين، وهذه الخلوة ضرورية عند أهل الطريق حتى يستكمل المريد معالم شخصيته، وبعد ذلك ينطلق إلى الدعوة والإرشاد تشبهاً بما كان يفعله النبي ﷺ قبل البعثة في غار حراء لاسيما خلال شهر رمضان من كل عام.

- وبعد أن أمضى الشاذلي فترة الخلو توجه إلى مدينة تونس حيث أقام في دار مسجد البلاط مع جماعة من أتباعه منهم: أبو الحسن علي بن مخلوف السقلي، أبو عبد الله الصابوني، أبو محمد عبد العزيز الزيتوني، وغيرهم كثير، وقد التف حوله المريدون الأمر الذي دفع قاضي المدينة ابن البراء إلى الدس على الشاذلي لدى سلطان تونس أبي زكريا، وقد بلغ هذا الدس ذروته عندما تمكن الشاذلي من إفحام ابن البراء وغيره من فقهاء تونس الذين ناظروه في علوم التفسير والفقه والحديث، فما كان من ابن البراء إلا أن أوغر صدر السلطان على الشاذلي، ثم تأكد السلطان من صدق الشاذلي وإخلاصه في الدعوة إلى الله ﷻ فاعتذر له، ولما عزم الشاذلي على ترك تونس لأداء فريضة الحج، حاول السلطان ثنيه عن عزمه مخافة أن يسمع الناس أن تونس تضيق ذرعاً بالأولياء والصالحين، فوعده الشاذلي بالعودة مجدداً إلى تونس،

ولما دخل الشاذلي وأصحابه مصر في طريقهم إلى الحجاز كان ابن البراء قد أرسل إلى سلطان مصر بأنه سيصل إلى دياره من يشوش عليه البلاد كما شوش على التونسيين، لكن السلطان بعد أن اجتمع بالشاذلي وحادثه وأعجب به لم يأبه لهذه الدعوة بل سارع إلى تكريمه وتسهيل مروره مع أصحابه إلى الديار المقدسة.

- وبعد أداء الفريضة رجع الشاذلي إلى تونس فتتلمذ على يديه عدد كبير من أبنائها في طليعتهم أبو العباس المرسي، ثم عاد إلى الإسكندرية عام (٦٤٢هـ/١٢٤٤م) عن طريق الساحل ماراً بطرابلس الغرب، فلما نزل الإسكندرية استقبله أهلها بالحفاوة والتكريم، وخصص له السلطان برجاً أوقفه عليه وعلى ذريته من بعده، هذا البرج كان بمثابة الزاوية المركزية للشاذلية، ومنه انتشر مشايخ هذه الطريق يؤسسون الزوايا الشاذلية في مختلف أنحاء العالم الإسلامي.

- كان الشاذلي يجمع مريديه في هذا البرج كل ليلة لإقامة الأذكار وللوعظ والإرشاد وعند الانتهاء كان يتوجه إلى خلوته.

- (ولم يقصر أبو الحسن الشاذلي نشاطه العلمي والروحي على مدينة الإسكندرية وحدها بل كان دائم الرحلة إلى المدن المصرية فتردد على دمنهور، ثم زار دمياط والمنصورة... وتردد كثيراً على القاهرة، في كل هذه المدن كان الشيخ يعقد حلقاته المعتادة للدرس والوعظ لتفقيه الناس في أمور دينهم ولنشر مبادئه ودعوته).

(أعلام الإسكندرية في العصر الإسلامي، جمال الدين الشيال ص١٨٠)

- أصيب الشاذلي عام (٦٤٦هـ/ ١٢٤٨م) بانكفاف البصر لكثرة مطالعته وانصرافه إلى الدرس، لكن ذلك لم يدفعه إلى تغيير عادته حيث كان يؤدي فريضة الحج عاماً ويقيم آخر، وعندما كان يحج كان تلامذته في شتى أنحاء العالم يجتمعون به في الحجاز ليشكل منهم وفد الشاذلية.

- (وفي عام (٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م) انطلق وفد الشاذلية لأداء فريضة الحج وفي إحدى ليالي شهر شوال من العالم ذاته جمع أصحابه وأوصاهم بأمور كثيرة كما

أوصاهم بحفظ وترداد أحزابه، ثم اختلى بالشيخ أبي العباس المرسي، وأوعز إلى أصحابه بأن أبا العباس سيكون خليفته في مشيخة الطريقة من بعده، وبات الشاذلي في ذكر الله والتضرع إليه حتى وقت السحر فسكت وظن الجميع أنه قد نام فكلموه فلم يتكلم فحركوه فلم يتحرك فوجدوه ميتاً فدفنوه بحميثرا، في برية عيذاب في واد على طريق الصعيد، وقد أكمل الوفد بعد مراسم الدفن طريقه إلى الحج برئاسة خليفته المرسي). (طبقات الأولياء، ابن الملقن ص٤٥٩)

- (كان الشاذلي يرتدي الثياب الحسنة على غير عادة معظم الصوفية كما كان يتناول الطعام الشهي ويشرب الماء البارد لأنه تمسك بقاعدة: اعرف الله ثم كن كيف شئت، وكان فصيح اللسان عذب الكلام لا يمله السامع، حافظاً للقرآن الكريم، متبعاً للسنة النبوية، متقناً للعلوم الدينية بالإضافة إلى العلوم الصوفية، ولم يكن ليقبل المريد ما لم يتبحر في العلوم الشرعية ويجتاز مناظراتها بنجاح.

وكان جواداً كريماً يسعى جهده في قضاء حوائج الناس، والتخفيف من وَطْءِ المصائب والكوارث التي تنزل بهم، فكان يتردد إلى الأمراء والولاة شافعاً ومدافعاً.

كان يعمل في الحرث والغرس والحصاد وتربية الماشية حيث يأخذ ما يحتاج إليه ثم يتصدق بالباقي على الفقراء والمحتاجين، وكان عالماً ورعاً، بحراً عميق الغور، ومربياً ممتازاً، تتلمذ على يديه صفوة رجال الفكر والعلم، وأسس أعظم مدرسة فكرية في المجتمعات الصوفية). (مرآة الجنان، عبد الله اليافعي جزء٤ ص١٤٦)

- (لم يترك الشاذلي كتباً بالرغم من اهتمامه بالعلم ومطالعته الكثيرة وفقهه في مختلف مجالاته، وعندما سأل مرة: (لِمَ لا تضع كتاباً في الدلالة على الله، وعلى علوم القوم؟ أجاب: كتبي أصحابي) فقد اعتبر تربية المريدين أفضل من تأليف الكتب، وتدوين المصنفات، ومع ذلك فقد ترك الشاذلي ثروة عظيمة من حكم ووصايا وأوراد وأدعية رواها عنه مريدوه والعلماء ونشروها في كتب الصوفية).

(رحلة إلى الحق، فاطمة اليشروطية ٤٨)

- (وقد تفرعت الشاذلية إلى عدة فروع منها: القاسمية، والمدنية، والسولامية، والقاوقجية، والفيضية، والإدريسية، والجوهرية، والوفائية، والعزمية، والحامدية، والمحمدية، والهاشمية إلى غير ذلك، وهي تحمل أسماء مشاهير مشايخها والمجددين فيها).

(مدخل إلى التصوف الإسلامي، أبو الوفا ص٢٤٢)

- وما زالت الطريقة الشاذلية تنتشر في العالم الإسلامي إلى زماننا الحاضر، وينتسب إليها العديد من كبار العلماء والأولياء والصالحين، من أشهرهم: ابن عطاء الله السكندري توفي (٧٠٩هـ/١٣٠٩م)، وجلال الدين عبد الرحمن السيوطي توفي (٩١١هـ/١٥٠٥م)، والشيخ عبد الحليم محمود شيخ الأزهر المشهور توفي (١٤١٠هـ/١٩٩٠م).

المراجع والمصادر

١- القرآن الكريم.

٢- كتب الأحاديث النبوية: البخاري، مسلم، أحمد، الترمذي، النسائي، ابن ماجه...

٣- كتب التفاسير المتعددة: (القرطبي، ابن كثير، الخازن، الرازي، البغوي..).

٤- آثار البلاد وأخبار العباد، القزويني.

٥- أحسن المحاسن، الطبراني.

٦- إحياء علوم الدين، أبو حامد الغزالي.

٧- أدب الدنيا والدين، الماوردي.

٨- الاعتصام، الشاطبي.

٩- اعتقادات فرق المسلمين والمشركين، الرازي.

١٠ - الأعلام، الزركلي.

١١ - أعلام الإسكندرية في العصر الإسلامي، جمال الدين الشيال.

١٢ - إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان، ابن قيّم الجوزية.

١٣ - أفعال الرسول ودلالتها على الأحكام التشريعية، د. محمد سليمان الأشقر.

١٤ - الإكمال، ابن ماكولا.

١٥ - الانتصار لطريق الصوفية، أحمد صديق الغماري.

١٦ - الأنوار القدسية، محمد المدني.

١٧ - الإيضاح والمجموع، النووي.

١٨ - إيقاظ الهمم في شرح الحكم، ابن عجيبة.

١٩ - البحر الرائق، أحمد فريد.

٢٠ - البحر الرائق في الزهد والرقائق، ابن نجيم.

٢١ - البداية والنهاية، ابن كثير.

٢٢ - البرهان المؤيد، أحمد الرفاعي.
٢٣ - بستان الواعظين ورياض السامعين، ابن الجوزي.
٢٤ - بغية الواجد، أسعد صاحب.
٢٥ - بين التصوف والحياة، عبد الباري الندوي.
٢٦ - تاريخ الإسلام، د. حسن إبراهيم حسن.
٢٧ - تاريخ الجزائر العام، عبد الرحمن الجيلاني.
٢٨ - تاريخ أهل التصوف، أبو عبد الرحمن السلمي.
٢٩ - التاريخ الأوحد، أبو المدى.
٣٠ - تأييد الحقيقة العلية، جلال الدين السيوطي.
٣١ - تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري.
٣٢ - تحفة المحبين والأصحاب في معرفة ما للمدنيين من أنساب، الأنصاري.
٣٣ - تدابير القدر، محمود شيت خطاب.
٣٤ - تذكرة الحفاظ، الذهبي.
٣٥ - التربية الروحية، د. محمد شيخاني.
٣٦ - تصدير كتاب نور التحقيق، حامد إبراهيم محمد صقر.
٣٧ - التصوف الإسلامي، عمر فروخ.
٣٨ - التعرف لمذهب أهل التصوف، أبو بكر محمد الكلاباذي.
٣٩ - تنوير القلوب، محمد أمين الكردي.
٤٠ - الثقافة النبوية، مصطفى الحمصي.
٤١ - ثمار القلوب من المضاف والمنسوب، الثعالبي.
٤٢ - الجانب العاطفي من الإسلام، محمد الغزالي.
٤٣ - جامع الأصول، الكمشخانلي.
٤٤ - جامع العلوم والحكم بشرح خمسين حديثاً من جوامع الكلم، ابن رجب الحنبلي.

٤٥ - الجامع لأحكام القرآن، الكمشخانلي.
٤٦ - جلاء الأفهام، ابن قيم الجوزية.
٤٧ - الجواب الكافي، ابن قيم الجوزية.
٤٨ - حاشية ابن عابدين، ابن عابدين.
٤٩ - حاشية رد المحتار، ابن عابدين.
٥٠ - حالة أهل الحق، أحمد الرفاعي.
٥١ - حجة الله على العالمين، النبهاني.
٥٢ - الحدائق الوردية في حقائق أجلاء النقشبندية، عبد المجيد الخاني.
٥٣ - الحديقة الندية، محمد سليمان.
٥٤ - حقائق عن التصوف، عبد القادر عيسى.
٥٥ - حقيقة التصوف، أبو سعيد التونسي.
٥٦ - حكايا الصوفية، أبو اليسر عابدين.
٥٧ - حلية الأولياء، أبو نعيم الأصبهاني.
٥٨ - خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، المحبي.
٥٩ - خلاصة التصانيف في التصوف، أبو حامد الغزالي.
٦٠ - دائرة معارف الشعب.
٦١ - الدر الثمين والورد المعين، محمد أحمد القاسمي.
٦٢ - الدر المختار وعليه حاشية ابن عابدين، الحصفكي.
٦٣ - الذيل على صفات الحنابلة على ترجمة ابن القيم، ابن رجب الحنبلي.
٦٤ - رجال الفكر والدعوة في الإسلام، أبو الحسن الندوي.
٦٥ - رحلة إلى الحق، فاطمة اليشروطية.
٦٦ - الرسالة القشيرية، أبو القاسم القشيري.
٦٧ - رسالة المقاصد، النووي.

٦٨- رسائل ابن عابدين، ابن عابدين.
٦٩- رسائل المسترشدين، المحاسبي.
٧٠- الرضا، محمد خالد ثابت.
٧١- الرضا عن الله بقضائه، ابن أبي الدنيا.
٧٢- روائع إقبال، أبو الحسن الندوي..
٧٣- زاد المعاد، ابن القيم.
٧٤- سماع وشراب عند أشرف الأقطاب، عبد الحكيم عبد الباسط.
٧٥- سواد العينين، الرافعي.
٧٦- سير أعلام النبلاء، الذهبي.
٧٧- سير السلف الصالح، الأصبهاني.
٧٨- شذرات الذهب، عبد الحي الحنبلي.
٧٩- شرح كلمات الصوفية، نقلاً عن الموسوعة اليوسفية.
٨٠- الشفاء للقاضي عياض، شرح ملا علي القاري.
٨١- الشفا بتعريف حقوق المصطفى، أبو الفضل عياض البحصبي.
٨٢- الصبر والثواب عليه، ابن أبي الدنيا.
٨٣- الصوفية إلهامهم، حسن الملطاوي.
٨٤- طب القلوب، ابن قيم الجوزية.
٨٥- طبقات الأولياء، ابن الملقن.
٨٦- طبقات الحنابلة، ابن أبي يعلى.
٨٧- الطبقات الكبرى، الشعراني ابن سعد البصري.
٨٨- طبقات الشعراء، ابن المعتز.
٨٩- طبقات الصوفية، السلمي.
٩٠- الطريق إلى اللّه، أبو سعيد الخراز.

٩١ - الطريقة الرفاعية وأعلامها، د. محمد أحمد درنيقة.
٩٢ - الطريقة الشاذلية وأعلامها، د. محمد أحمد درنيقة.
٩٣ - الطريقة القادرية وأعلامها، د. محمد أحمد درنيقة.
٩٤ - الطريقة النقشبندية وأعلامها، د. محمد أحمد درنيقة.
٩٥ - العبر في خبر من غبر، الذهبي.
٩٦ - عدة الصابرين، ابن القيم.
٩٧ - العقد الفريد، ابن عبد ربه الأندلسي.
٩٨ - العقد النضيد في آداب الشيخ والمريد، أبو الهدى الصيادي.
٩٩ - العهد الوثيق لمن أراد سلوك أحسن الطريق، السبكي.
١٠٠- عوارف المعارف، الإمام السهرودي.
١٠١- عين العلم وزين العلم، شرح ملا علي القاري.
١٠٢- عيون الأخبار، ابن قتيبة الدّنيوري.
١٠٣- غذاء الألباب في شرح منظومة الآداب، السفاريني.
١٠٤- الغنية، عبد القادر الجيلاني.
١٠٥- الفتاوى الحديثة، ابن حجر.
١٠٦- فتاوى ورسائل، محمد عبد الوهاب.
١٠٧- الفتح الرباني، الجيلاني.
١٠٨- فتوح الغيب على هامش قلائد الجواهر، الجيلاني.
١٠٩- الفتوحات المكية، ابن عربي.
١١٠- الفروع، ابن مفلح.
١١١- الفقه المالكي، العلامة العدوي.
١١٢- فوات الوفيات، محمد بن شاكر الكتبي.
١١٣- فيض القدير، المناوي.

١١٤- القاموس الإسلامي، أحمد عطية الله.
١١٥- قصة الحضارة، ول ديوارنت ترجمة محمد بدران.
١١٦- قلائد الجواهر، محمد التدافي الحنبلي.
١١٧- قوت القلوب، أبو طالب المكي.
١١٨- قواعد التصوف، أحمد زروق الفاسي.
١١٩- الكامل في التاريخ، ابن الأثير.
١٢٠- كرامات الأولياء، أبو محمد الخلال.
١٢١- كشف الخفاء ومزيل الإلباس، العجلوني.
١٢٢- كشف الظنون، حاجي خليفة.
١٢٣- الكنوز النورانية القادرية، مخلف العلي القادري.
١٢٤- لسان الميزان، ابن حجر.
١٢٥- لطائف المنن والأخلاق، عبد الوهاب الشعراني.
١٢٦- صفة الصفوة، أبو الفرج الجوزي.
١٢٧- لمحات من التصوف وتاريخه، السائح علي حسين.
١٢٨- اللمع، أبو نصر السرَّاج الطوسي.
١٢٩- لوامع الأنوار الإلهية، السفاريني.
١٣٠- مبادئ الإسلام، أبو الأعلى المودودي.
١٣١- مجلة العشرة المحمدية، د. أحمد علوش.
١٣٢- مجمع الحكم والأمثال، أحمد قبش.
١٣٣- محاسبة النفس، ابن أبي الدنيا.
١٣٤- محاضرات الأولياء، الراغب الأصفهاني.
١٣٥- مختصر تاريخ دمشق، ابن منظور.
١٣٦- مختصر منهاج القاصدين، ابن قدامة المقدسي.

١٣٧- مدارج السالكين، ابن قيم الجوزية.
١٣٨- مدخل إلى التصوف الإسلامي، أبو الوفا التفتنازي.
١٣٩- المدرسة الشاذلية وإمامها، أبو الحسن عبد الحليم محمود.
١٤٠- المدينة الندية، محمد سلمان.
١٤١- مرآة الجنان، عبد الله اليافعي.
١٤٢- المسلمون في الهند، أبو الحسن الندوي.
١٤٣- مطالع المسرات ودلائل الخيرات، علاء الفاسي.
١٤٤- المعارف، ابن قتيبة.
١٤٥- معالم السلوك، الحبيب علي الجفري.
١٤٦- معالم الطريق إلى الله، محمود أبو الفيض المنوي.
١٤٧- معجم البلدان، ياقوت الحموي.
١٤٨- معجم المؤلفين، عمر كحالة.
١٤٩- معجم ما استعجم، أبو عبيد الأندلسي.
١٥٠- معجم المناهي ومعه فوائد في الألفاظ، الشيخ بكر أبو زيد.
١٥١- معراج التشوف إلى حقائق التصوف، ابن عجيبة.
١٥٢- معيد النعم ومبيد النقم، عبد الوهاب سبكي.
١٥٣- مفتاح الفلاح في ذكر الكريم الفتاح، تاج الدين بن عطاء السكندري.
١٥٤- مفتاح دار السعادة، ابن قيم الجوزية.
١٥٥- مقدمة ابن خلدون، ابن خلدون.
١٥٦- منارات السائلين، أبو بكر الرازي.
١٥٧- منحة الرحمن، عبد الله الدهلوي.
١٥٨- المنقذ من الضلال، الغزالي.
١٥٩- من كنوز الإسلام، محمد فايز المط.

١٦٠- موقف أئمة الحركة السلفية من التصوف والصوفية، عبد الحفيظ مكي.
١٦١- موسوعة التاريخ الإسلامي، أحمد الشلبي.
١٦٢- موسوعة التصوف الإسلامي، محمود حمدي زقزوق.
١٦٣- موسوعة التراث الإنسانية، الناشر: وزارة الثقافة المصرية.
١٦٤- ميزان الاعتدال، الإمام الذهبي.
١٦٥- ميزان العمل، أبو حامد الغزالي.
١٦٦- النجوم الزاهرة من ملوك مصر والقاهرة، ابن تغري بردي.
١٦٧- نشر المحاسن الغالية، اليافعي.
١٦٨- النصرة النبوية على هامش شرح الرائية للفاسي، مصطفى إسماعيل المدني.
١٦٩- نوابغ الفكر الإسلامي، أنور الجندي.
١٧٠- نور التحقيق، حامد صفر.
١٧١- هكذا تكلم الأولياء والصالحون، أحمد حسين كعكو.
١٧٢- الوافي بالوفيات، الصفدي.
١٧٣- الوصايا، المحاسبي.
١٧٤- وقفات مع سلفنا الصالح، محمد ياسر القضماني.
١٧٥- وهو يتولى الصالحين، محمد الإسكندري.
١٧٦- اليواقيت والجواهر، الشعراني.

الفهرس

الموضوع الصفحة

الإهداء ٣

مقدمة..... ٥

الباب الأول: التصوف

١- تعريف علم التصوف؟..... ١١

٢- تعريف التصوف ١٣

٣- نشأة علم التصوف ١٥

٤- لمحة عن تاريخ علم التصوف ١٩

٥- ارتباط التصوف بالشريعة ٢٢

٦- التصوف بين الحاجة إليه ونكرانه ٣٠

أولاً: أهمية التصوف ٣٠

ثانياً: ما السبب في أن التصوف لم يظهر إلا بعد عهد الصحابة والتابعين ٣٥

ثالثاً: التصوف المفترى عليه ٣٩

رابعاً: حاجتنا إلى التصوف ٤٢

خامساً: منهج التصوف ٤٨

٧- موقف التشريع الحكيم من التصوف ورأي العلماء فيه ٥٠

الباب الثاني: أنواع التصوف

١- التصوف السني ٥٧

٢- التصوف البدعي ٥٩

٣- التصوف الفلسفي ٦٤

الشطح..... ٦٦

الباب الثالث: السلوك في طريق التصوف

١- البحث عن العالم المربي، والمرشد المزكي ٧٣

٢- مصاحبة عباد الله الصالحين وأوليائه المقربين ٧٩

٣- أداء الفرائض بكمالها والتقرب إلى الله بنوافلها ٨٣
٤- الإكثار من ذكر الله في كل الأحوال مع الصلاة على النبي ﷺ ٩١
٥- السعي على سلامة القلب وصلاحه ١٠٥
٦- التزام المقامات والأحوال التي تُبلِغه الطريق وتدله عليه ١١٤

الباب الرابع: أهم المقامات والأحوال

١- التوبة ١١٩
٢- المحاسبة ١٢٦
٣- المحبة ١٣٥
٤- التقوى ١٦٠
٥- الإخلاص ١٦٩

الباب الخامس: أبحاثٌ في التصوف

أولاً: أولياء الله ١٨٣
ثانياً: كرامات الأولياء ١٩١
ثالثاً: التوسل ٢٠١

الباب السادس: من أعلام التصوف (حسب وفاتهم)

أولاً: الحسن البصري (ت ١١٠هـ) ٢١٥
ثانياً: إبراهيم بن أدهم (ت١٦١هـ/ ٧٧٨م) ٢١٧
ثالثاً: الفضيل بن عياض (ت١٨٧هـ/٨٠٣م) ٢٢٠
رابعاً: أبو يزيد البسطامي (ت ٢٦١هـ/٨٧٥م) ٢٢٥
خامساً: محمد الغزالي (ت٥٢٠هـ) ٢٢٧

الباب السابع: أهم الطرق الصوفية

أولاً: الطريقة النقشبندية ٢٣٧
ثانياً: الطريقة القادرية ٢٤٠
ثالثاً: الطريقة الرفاعية ٢٤٥
رابعاً: الطريقة الشاذلية ٢٤٩